

روايات الهيار

فتحي إمبابي



العالم

# دار الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

## الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا)  
٦٠ جنيها مصريا داخل  
(ج. م. ع) - تسدد  
مقدما نقداً أو بحوالة  
بريدية غير حكومية -  
البلاد العربية ٣٥  
دولارا - أمريكا وأوروبا  
وآسيا وأفريقيا ٥٠  
دولارا - باقى دول  
العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدماً  
بشيك مصرفى لأمر  
مؤسسة دارالهلال  
بريد الإشتراكات

Email : subscription\_dep@yahoo.com

## الإدارة

القاهرة:  
١٢ شارع محمد  
عز العرب بك (المبتدبان  
سابقاً) ت: ٣٦٢٥٤٥٠  
(٧ خطوط).

المكاتبات:  
ص.ب: ٦٦ العنينة -  
القاهرة - الرقم البريدى  
١١٥١١ - تلغرافياً: المنصور -  
القاهرة ج. م. ع.

تلكس:  
Telex 92703 hital u n

فاكس:  
FAX: 3625469

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيد

رئيس التحرير

مجدى الدقاسق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

مدير التحرير

محمد رضوان

الإصدار الأول يناير ١٩٤٩

العدد ٧١١ - مارس (أذار) ٢٠٠٨ - ربيع أول ١٤٢٩ هـ - برميات ١٧٢٤ ق

سوريا ١٢٥ - لبنان ٥٠٠ - ليرة - الأردن ٢ - فلس - الكويت  
٢٥٠ - فلسا - السعودية ١٢ - ريال - البحرين ١.٢ - دينار - قطر ١٢ - ريال -  
الإمارات ١٢ - درهما - سلطنة عمان ١ ٢ - ريال - اليمن ٤ - ريال - المغرب  
٤ - درهما - فلسطين ٢.٥ - دولار - سويسرا ٤ - فرنكات - السودان ٢.٥ - جنيه

ثمن  
النسخة

البريد الإلكتروني:

darhila @ idsc. gov. eg

العلم

فتحي إمبابي

دلالة





الغلاف والإخراج الداخلي

صالح عبد العظيم



الخطوط للفنان

محمد العيسوي

متابعة :

ياسر شعبان



# الجزء الأول





العالم

فتحي إمبابي

كذاب يا منام الليل

تجيب في عرب طال باسم

كانت الشمس تصعد وتبدأ من وراء خط الأفق. والشوارع الممتد طويلاً مضاء بمصابيح الطريق الفلوريسنت الساطعة. تنعكس على برك المياه التي خلفتها الأمطار الغزيرة طوال اليومين الماضيين. يبعث من الضوء المتلألئ على امتداد الطريق الأسفلتي المغسول بمياه الأمطار.

سيارتان وحيدتان إحداهما من طراز «بي أم دبليو» والأخرى «بيجو 504» وقفتا أمام الفيلا التي شهدت الفضيحة التي حدثت عنها المدينة طوال الأسبوعين الماضيين. تحقيقات الشرطة. أبحاث الطب الشرعي الذي أثبت انتحار العروس. التصريح بالدفن مباشرة من المستشفى العام. استقالة العريس من عمله بشركة التأمين ونهاية مستقبله الزاهر في الوطن. بالأمس قاموا جميعاً: رجال ونساء وأطفال أسرة بوزوي بتوديعه في المطار في طريقه إلى لندن.

اليوم ومنذ الثالثة صباحاً والأسيرة تستعد للعودة إلى القبة مسقط رأسها. ومن الشرفة التي لا تزال آثار الحريق واضحة عليها. وقفت خلف النافذة تريا زوجة الأخ الأكبر عمر تتابع بذهول الأخوين يعدان عدة الرحيل. وعلى زجاج النافذة انعكست الأضواء المتلألئة لحمام السباحة الذي وعد بها زوجها يوم انتقلا للفيلا منذ شهور قليلة. والذي لم ينس لها استخدامه حتى

اللحظة. ها هم يرحلون. لن يتبقى سواها وزوجها الذى سيغادر غدا صباحا إلى اليونان. وقبل أن تفكر فيما إذا كان باستطاعتها أن تستلقى بجسدها العازى بين مياها. تركت عقلها يرحل إلى تلك المجموعة من المايوهات الفاضحة. التى أهداها لها زوجها معلنا عن امتلاكهم حمام سباحة خاص. دون أن تنسى أنها لم تفكر للحظة فى ارتدائها حتى فى غرفة نومها. ظنت أن حمام السباحة هذا يحفه شؤم بدأ بانتحار درية. ورحيل ناصر. وها هم (البقية) يتابعون الرحيل. فمتى يأتي دورها.

امتلات السياراتان بالحقائب. نادى ونيس على حميدة (الأخ الأصغر) أن يستدعى العائلة. لمحت الأب يسير فى المقدمة مهدوما. محنى الظهر. وقد أصابه هرم مفاجئ. يستند على كتف حميدة الطالب فى هندسة الحاضرة الشرقية. تتبعه زوجته واحدة خلف الأخرى. جلست أم العريس ناصر مصابة بالشلل من حجم الفاجعة. على كرسي متحرك تدفعه ابنتها الصغرى صديقة. وخلفها الزوجة الثانية وأم ونيس وحميدة تجرر أقدامها المتعبة.

تابعت خروجهم من الباب الخارجى. كانت ترى أسرة مهزومة وقعت بها فاجعة. ضربة من ضربات القدر العاشمة.. التفتت أم ناصر تلقى نظرة أخيرة على الفيلا التى كان يتوقع أن يعلن فيها انتصار عائلتها الأكبر. فتلاقت عيناهما. ولمحت ثريا كنتها المشلولنة تعود بنظراتها للأرض فى انكسار.. يكت ثريا. وعقلها الواعى غير قادر على استيعاب الأحداث المأساوية التى انتهى إليها زواج ناصر الأخ الشقيق لزوجها. وعروسه درية الضحية.. ضحية من؟ أخواها؟.. أيوها؟.. أم زوجها هى: عمر؟ مزق رأسها صداع. وعبر نصف وجهها الأيمن شذر من موجات كهربائية اهتزت لها وشعرت بدوار. تراجعت بيضاء حتى لا تسقط مغشيا عليها لتجلس على حافة الفراش الذى كانت تتقلب فيه من الفرع ابنتها الصغيرة صباح. يبطء شديد تمددت بجوار الطفلة وأخذتها بين أحضانها. وانثنت بها جنين يرغب

في العودة إلى بطن أمه. هربا من الخدعة الكبرى التي تُسمّى بالحياة. فمنذ هذه اللحظة سوف يترسب في يقينها أنها تشارك الضراش وحشاً مخيفاً لن يتوانى عن أن يلقي بها إلى فارعة الطريق. ووسط أكوام الزباله. لحظة تنتهي أهميتها بالنسبة له.

من الشارع أشرق زجاج الشرفة الضجيج المتصاعد من محركات السيارتين. بعد دقائق سمعت صوت صرير العجلات ينحت أسفلت الطريق. قليلاً ثم غاب. وعاد الصمت يطوق الحى ثانية. لتبقى الأصوات الصلدة لقطرات المطر تطرق زجاج الشرفة. فى محاولتها الأبدية لغسل الحزن والعار الذى يوقعه البشر بذواتهم وبين يحيط بهم، دون جدوى.

\* \* \* \*

كانت السيارتان تنهبان الطريق الساحلية بأجّاه الشرق. وكأنه أصبح فى قناعه قائدى السيارتين أنهما أخذاً نصيباً كافياً من مصائب الدهر. بما يجعل القدر غافلاً عنهما. فى السيارة الأولى قاد ونيس السيارة البيان قيو. وبجواره امرأة أبوه وأخته فى الخلف. ووراءهما كانت البيجو يقودها حميدة. وبجواره أبوه الحاج مفتاح وأمه. هذه المرة لم يحاول أحد منهما أن يزعبه بالتخفف من السرعة. حتى عندما تركوا وراءهم مدينة الحضر. وتوغلتوا حثيثاً فى المنحنيات الخطرة للجبل الأخضر. حيث القيادة متعة لمن يعشق السرعة وهلاك لمن لا يجيدها. وكتلة الصلب المتدفقة بسرعة تتجاوز مائة وثمانين كيلو متراً فى الساعة ليست سوى رصاصة مسدس بانتظار الارتطام المروع. وعلى طول الطريق الحديث الذى يخترق الجبل منثنياً مع انثناءاته. صاعداً هابطاً مع طياته. عبرت السيارتان مدن الساحل الرئيسية واحدة بعد أخرى. حيث يترك الجبل للبحر سهلاً يحف الطريق الدولية من الجانبين. قامت على استصلاحه شركات تابعة لبلدان أوروبا الشرقية. مزارع حديثة مدت إليها أسلاك الطاقة

الكهربائية. تضم كل مزرعة حظائر للماشية ومنازل للملاك. وأبأراً تتجاوز أعماقها مئات الأمتار. وبين المينة والأخرى كانت اللافات العملاقة نهاجم الركبين بقوة. معبرة عن وجود خاص خارج الرمان والمكان: وكما استقبلته على طريق المطار وهو قادم من ألمانيا. ها هي تودعه وهو يغادر الحاضرة الشرقية إلى مقر عمله بغرناطة الشرق. مصطحباً أسرته الى القبة.

«التمثيل تدجيل ولا نيابة عن الشعب»

«لا ديمقراطية بلا مؤتمرات ثورية»

«اللجان فى كل مكان»

«شركاء لا أجراء»

عند مدخل مدينة القبة تبادل الأخوان إشارات ضوئية سريعة بالتحية. وبينما انعطف حميدة جنوباً بإتجاه القبة. ظل ونيس منطلقاً للأمام بإتجاه الشرق.

\* \* \* \*

غرناطة مدينة الأندلسيين

على طول الساحل الشمالى للولاية الشرقية يدور بين الجبل والبحر جدل عميق. امتد لمئات الآلاف من السنين. حينما يطن الجبل على البحر بسهل ضيق. فيتترك حائطاً صخرياً صلباً. يضره البحر بأواجه الهائلة كى ما يزيحه قليلاً جهة الجنوب. أو يحيله ذرات من الرمال الناعمة. مقتطعا عنوة سهولا وشريطاً ساحلياً ضيقاً. تتكئ عليه أمواجه العارمة وتكفيه كى يستريح من عناء السفر بين عالمين على طرفى نقيض: الشمال والجنوب. إذا كان للتسمية معنى جغرافى. والشرق والغرب. إذا كانت تنطوى على مذاق خاص بالهوية والتقاليد والثقافة.

ويبقى الطريق السريع أعلى الجبل مخترقاً قممه لمسافات طويلة. عنيداً خطراً. مستعصياً على الترويض. يخسر عجاب

السحب. وهضابه الواسعة. منحنياته الحادة، فتجعله على حافة الجبل. مطلاً على البحر من ارتفاع سبعمائة قدم، لينفجر فجأة بالموت شاهداً على الطريق السوداء الناصعة بحبات المطر. والبحر فاغر فاه بانتظار ضحاياه.

قرب مدينة النساء بقبع البحر شاسعاً رحباً، أسفل الطريق الذي يبدو كأنه يتجه إليه مباشرة، حتى يخال المرء أن السيارة ستستقر فيه رأساً. بعدما ينحدر الطريق لمسافة اثني عشر كيلو متراً، ليطل بعدها المشهد الخلاب للمدينة التي بناها الأندلسيون.

منذ مئات السنين، ونتيجة لأعوام من الجفاف الشديد حلت بأرض الحجاز نزحت من جُد في هجرات متعاقبة مجموعة من قبائل البادية باتجاه مصر وشمال أفريقيا. والحلم بجنة تونس الخضراء يداعب الخيال الصحراوي الذي أمضه وقضى على أبنائه وإبله وأنعامه الجفاف.

ولم تخلف جريدة البدو من قبائل بني هلال وبني سليم، للساحل الشرقي، سوى الخراب وانعدام الأمن، وأرخال سكان السهل الساحلي من المزارعين والرعاة إلى قلب الصحراء هرباً من بطش الهلالية ومذابحهم، حتى تحولت المنطقة إلى خراب جرداء، حولها أمطار الشتاء والربيع إلى بقع وأسعة من البراري والأدغال المنتشرة بين مساحات شاسعة من العشب الأخضر الزاهي.

من قرطبة أو أشبيلية أو غرناطة، لا أحد يعرف على وجه اليقين، وعلى طريق الحج القادم من الأندلس عبر المغرب وتونس إلى مصر فيحر القلزم فالحجاز، توقف أربعون حاجاً من أهل الأندلس المطاردين من الحرب الطاحنة الدائرة بين ملوك الطوائف على أرض الأندلس، درة المغرب العربي وجوهرة الإسلام، ومنبع الحكمة والجمال، بين المسلمين والمسيحيين من أهالي البلاد الأصليين، وبين العرب القرشيين والبربر من المسلمين، وبين حملة النقل والمبشرين بالعقل.

عند العقد المهور بين الجبل الأخضر والبحر الأبيض وسهل  
الفتايح الذي يمتد عشرات الكيلومترات. جذبت أنظارهم الخضرة  
العشبية الممتدة حتى الأفق. تلمس كبيرهم التربة. الطينة البكر  
المزهوة بلونها الأحمر الداكن. تذكر بلاده. فقال « وبعد عودتنا إن  
شاء الله هنا نستقر».

بعد أن زاروا الكعبة المقدسة بمكة أم القرى. وزاروا قبر الرسول  
عليه الصلاة والسلام متلمسين البركات والشفاعات. وصلوا عليه  
أفضل صلاة. ووقفوا أمام قبر الشيخين. وطلبوا الشفاعة. فقبل  
لا شفاعة في وجود خير الأنام. فحمدوا الله وشكروه. بشفاعة  
حبيب الله. شدوا الرحال عائدين باتجاه المغرب. حيث استوطنوا  
البقعة الخضراء الواقعة بين البحر والجبل والسهل. واستصلحوا  
سهل الفتايح وقاموا على زراعته. بعد موسم الأمطار الشتوية  
الغزيرة. فازدهرت المنطقة بالزراعة والرعى.

في المدينة التي سمتصبح عروس البحر ابنتى الأندلسيون الأوائل  
بيوتهم على الطراز الأندلسي. عرائش خضراء للكروم. وحدائق خيطها  
الأسوار الواطئة تدعو العابرين لطف قطوف العنب واسترفاق  
النظر. وفي نهاية كل كرمة ألحق حوش يضم حجرات للعيشة. أما  
الضيوف فيستقبلون بحجرة مقامة عند مدخل الكرم.

هكذا تشكلت عروس البحر العارية. المدينة التي تبسط علي  
البحر جسدها في ارتخاء. على سفوحها عششت منازلها الصغيرة.  
وبين نهديها نامت أحواشها تخلصها طرقها الضيقة. وتندفق مع  
الرياح جدائل شعرها الأجعد الخالك المضمخ برائحة الليل..

بعد أعوام طويلة قامت الحرب الكبرى بين قبيلتي العبايدة وأولاد  
العوايلة. والتي انتهت في دورتها الأولى بدحر قبائل العبايدة أبناء  
عمومتهم بهزيمة ساحقة. قام بعدها شيوخ العبايدة بتبني أحد  
أبناء خصومه. ورياه بين أبنائه تربية الذئب بين قطيع الحملان. وعلمه



أصول الحرب وفنون القتال. وعندما بلغ التاسعة عشرة، حكمت عليه دماؤه بطلب الثأر، فزاهية ابنة الشيخ متعب أحد كبار الزوايدة التي عشقها وهام بها رقصته عن إباء وشتمهم، وكانت حب حبيب ابن شيخ العبايدة. قالت تذكره «كيف بالحرة أن يعبد تبتنى».

الذي كان غائبا حضر من فوره، والذي كان نائها عرف طريقه. وبعد مؤامرة واسعة انقض الفنى بليل على شيخ العبايدة وكبيرها وغدر به وقتله غيلة. ولم يكذبته منه حتى طارد أبناءه، فقتلهم جميعا مستصرخا أبناء جلدته فوقعت هزيمة ساحقة بقبائل العبايدة. وكاد أن يبادوا عن آخرهم. لولا حبيب ابن الشيخ المقتول الذي حاول الهرب من المذبحة. دون جدوى. كان الموت يحيط به من كل جانب. وعندما خرج للصحراء تبعته ثلة من فرسان العوايلية، يقودهم غريمه الذي أحب زاهية وانتقم من العبايدة جميعها. أما غريمه فكان نائها في الصحراء على غير هدى. قتله العطش ودمرته الهزيمة. وعندما بلغوه كان يشرب بوله. فظنوا به الجنون. لحظتها عكف الفتى المنتقم على انتقامه الثاني. لقد حمل حبيب ابن شيخ العبايدة إلى الفتاة التي أخذها أسيرة حرب. فسيتمته وغنيمته. وعبيده وأمه وألحقه به تحت أقدامها. إذا كان هذا من تركتني من أجله فُلنَّ الآن من السيد ومن العبد.

الجنون مهريه الوحيد. بال حبيب على نفسه أمام عشقه. ومد أصبعه في بوله بلعقه. بكت الصبية حزنا، وضج الفرسان بالضحك. نكلوا به وهو يضحك ويبكي ثم أطلقوه. إلى الصحراء. وقد عفوا عن أنفسهم أن يحملوا وزر قتل معنوه.

من حافة الصحراء حرك من فوره حاملا قميص أبيه الملوث بدم الغدر وسيف الخيانة. ميمما تنظر العاصمة. رحلة شاقة من الجوع والخوف والعطش. والصراع المميت حول الحياة. بين قطعان الضباع الضالة وذئاب الصحراء. رحلة تجاوزت الألف ميل مات جواده في

منتصفها فأكملها سيرا على الأقدام، وأمام الوالى العثمانى أحمد القراملى الذى كان يدين لأبيه. طلب المساعدة. مستصرخا حقوق أبناء قبيلته المغدور بهم، فأعلن أهالى تاجورا ومصراته الانضمام إليه. مشكلين النواة التى كوَّنت ما سُمِّي بتجريدة حبيب.

بعد عام من وصوله العاصمة حُرِّكت التجريدة التى ضمت فى ميمنتها فرسان الدلاة الذى مده بها الوالى أحمد القراملى. وفى الميسرة خفقت رايات فرسان تاجورا ومصراته الذين وعدوا بالثواب والأجر من عند الله لمن يموت شهيدا. وليس له من فدية. أما الأحياء من التجريدة فلهم بعد الحرب الغنائم والسبايا. وحقوق الفريء.

بعد ثلاثة أشهر من وصول التجريدة الشرق. جرت معارك طاحنة. حلت بعدها الهزيمة بأولاد العوايلة. وطردوا لما بعد حدود الولاية. حيث استوطنوا المناطق الساحلية القاحلة.

الذين رغبوا فى العودة من فرسان التجريدة وزعت عليهم الغنائم والمغانم والعطايا. وقرر البعض البقاء. فاستوطنوا حى المغاربة وسهل الفنايح.

\* \* \* \*

كان بانتظاره على مدخل مستشفى الساحل العام. أخته عائشة وزوجها النقيب مفتاح الشهيبي. تحرك ثلاثتهم باتجاه مجموعة العيادات الخارجية. وعندما بدأت زوجة أبيه عمل فحص كامل. قام ونيس بالتوجه لمدبر المستشفى لاستلام عمله بقسم الجراحة. أوقفه على مدخل الجناح الإداري رجل في الأربعين. صاح به برعونة: وين رايح يا أخ.. بوابة من غير بواب! وقف مستنآء للعبارات المباغثة. قال مستلهما الصبر.

- نبي الدكتور حمد مدير المستشفى.
- راك الدكتور ونيس بوزوي.
- صحيح.. تيو تقيضوا على.
- تعال الدكتور يستنى فيك واجد.

بين مستشفى الساحل العام ومستشفى القديسة هنريتا النظامية التي تدرّب فيها أثناء نيله إجازته في الطب. كان الفارق شاسعاً. ورغم الحركة السريعة التي عبرت بها وحوش زاحفة عن وجودها. إلا أنه تقبل الأمر برحابة صدر. وأمام الدكتور حمد البرغوثي العم الأكبر لزوج أخته عائشة. والذي خيّر بين العمل مارساً عاماً أو العمل في قسم الجراحة العامة. اختار الأخيرة معرباً عن استعداده لاستلام عمله. وقال: أقصد أين غرفة العمليات؟

ضحك الدكتور حمد وحدث طبيباً مصرياً يجلس في زاوية جانبية من الغرفة قائلاً: إن الدكتور ونيس مستعجل واجد. فقال الطبيب المصرى من الطبيعى أن يفعل فهو تربية ألمان.

ابتسم ونيس وقال معترضاً «إنه لا يقبل. صحيح تعلم عند الألمان لكنه وأشار لصدره « أنا ونيس بوزوى تربية الجبل الأخضر. وبالأخص القبة. بك تعذرلى فوراً. «اعتذر الدكتور المصرى بسماحة. والدكتور حمد يقدم كل منهما للآخر: دكتور رفعت بيومى نائب رئيس قسم الجراحة بالمستشفى. الذى ستعمل معه. انظر يديه جيداً واستمع له جيداً. واستدار يحدث دكتور رفعت يخبره أنه بينه والدكتور ونيس بن الحاج مفتاح بوزوى قرابة نسب. وهو مشهود له بالتفوق. لهذا درس الطب فى ألمانيا. ونسى واجد نستفيد منه.

هز الطبيب المصرى رأسه مبتسماً وقال يسأله: اسمع يا دكتور ونيس. أنا عارف إنك وصلت اليوم. ومحضرتش سكتك. خب تستخدم سكن الأطباء؟.

اعتذر موضحاً أن لديه سكناً. أجابه: إذن استلم عملك اليوم. وابدأ العمل من بداية الأسبوع. عقب مدير المستشفى: لديك راحة خمسة أيام تستطيع أن تعد نفسك. ينتظرك عمل شاق.

سار في ممرات المستشفى على أطراف أصابعه. يشعر كأن عليه أن يكون طائراً يلامس الأرض. هنا مرضى. يقف بين الأطباء من غير الوطنيين. وأكثرهم من المصريين والهنود. بعين يقظة محاذراً. هذه أجساد بنى جلدتنا فانتبهوا وحافظوا عليها. وعندما يرتدى ملابس العمليات المعقمة. كان يتحرك بداخلها مثل فإخ. متوجهاً لمعركة فاصلة. عليه أن يستعمل التمعاق عقله وبراعة أنامله. التى يجب أن تكون فى ليونة الأفعى. وخفة الفراشة. حادة كالشفرة.. لم يتوتر قط. وهو يشاهد أمامه الجسد الإنسانى نهراً من الحيوية. ينبض الدم فى العروق والأوردة. فتتضاءل الأشياء. وتبرغ

الحياة بأسرارها العميقة. حيث يجب أن يكون المبضع مباشرا. ومساحته أقل ما يمكن، يبرز اللحم المهور. يسيل منه الدم. وأن تلتئم البشرة بدقة نساج ماهر. وتعود الأوردة ينبض بها الدم ثانية. ويهمس. سيلتئم الجرح.. ما أعظم أن يلتئم.. إنه الجسد الإنساني.. فكر ونيس «لن أتولى أى منصب إدارى.. لن أشترك فى أى عمل سياسى.. لا لجان ثورية. ولا اتحاد اشتراكى.. اشتراكية أو وحدة.. قوالب لا تريحنى.. الجراحة فقط.. هذا الجسد البشرى ساقف ضد فئانه.. سأكون جراحا لا يضاهى.. أنا والله متشابهان. هو يخلق. وأنا أقاوم الفناء».

\* \* \* \*

من شقة تواجه البحر في أعلى المدينة المقامة على مدارج العشق والهوى. ساعده زوج شقيقته فى الحصول عليها. هيمن على البرارى مثل صياد فتى. يسعى لرزقه فى الصباح الباكر. كان يلقي من شاطئه الصخرى على المدينة الساحرة شبكة صياد وحيد. يعشق البحر وحورياته.

نهر الارتياح الذى تخلل مسامه ومشاعره. مع الوقت تحول إلى فردوس أرضى من السعادة. لقد بات عاشقا للمدينة - التى أسسها الأندلسيون - المفعمة بالجمال والحيوية. ما إن ينتهى عمله حتى يرحل لتناول طعام الغداء فى فندق قرطبة. ثم يمضى إلى شقته لقضاء القيلولة. وعلى عادة شباب المدن الصغرى يبدأ بعد انقضاء الظهيرة بجوب المدينة: أحياءها وشوارعها. ينهل من تلك الشعلة الملتهبة التى لا تنطفئ من عيون نساءها التى حملتها معهم جداتهم القادمات من شبه القارة الأيبيرية.

هنا تنزاح رياح الضياع التى تدمر السفن الوحيدة السادرة على غير هدى. تلقى مراسيها على جزر الوحدة والألم. هنا وطوال طريقه الصباحى تطل عليه. من وراء الجرد الذى يخبر واحدة من

العيون الأنثوية مبقيا الأخرى تظل على الطريق والعالم. خصيصا عين وحيدة نافذة تأسرك مثل جزيرة متوهجة بالضوء والخضرة. تضح بحياة البر في عرض بحر صاخب مظلم. وليس سوى طوف مهشّم ومثونة نفدت. جزيرة تمد روح المودة. تدعو الملاح التائه فيك للرسو على ضفافها البدوية الحارة القادمة من عمق الصحراء. أن تستلقى على جيد قضاها وقضيضها صنعها فنان أندلسي. عرائش الذهب واللجين الساكن على جبهة جارية من أشبيلية. وصوت الحوريات يناديك من شواطئها الناعمة « أيها البحار التائه تعال وستجد ما تريده».

منذ الصباح الباكر تسير الفتيات في الطرقات تشتتم الرياح بنشوة الغزلان. يثنن العشيق على طرقات الأسفلت اللامعة. وواجهات محلاتها الزجاجية التي صفت بضائعها بنظام بديع. تجوبها السيارات بعشوق وهوى لا يفتر. رغبة من يتلمس جسد امرأة عارية.. البرودة والدفء والأحياء الواطئة. أسطح المنازل التي تعلقو كل منها كتف الأخرى مغمسولة بمياه الأمطار لتمسدها أشعة الشمس الذهبية برفق ونعومة. وهي تظل عليها من خلف السحب الثلجية. تتراقص على أناملها الرقيقة حوريات البحر اللائى حملتها النسائم القادمة من البحر القابع برسوخ تحت سماء زرقاء رحية تفوح بزهور النشوة.

هكذا كل صباح يقف في نافذته صيادا وحيدا يلقي بشبাকে على المدينة التي تتوسط هضبة الصحراء. تاركة طرقاتها مفتوحة إلى البحر. صيادا لا يمل طريقه من ميدان الجبيلة إلى حي باب شبيحة. يعرج يسارا إلى الحى التجارى حتى يصل الجسر القديم. ثم ينحرف يمينا ليسير بموازة الوادى ثم يعبر الجسر الجديد. بعد مائة متر تظل ثانوية البنات. هناك يسير الهوينى حتى لا يشنت جماعات الغزلان المتوثبة بالجمال والحياة. متقدما إلى حامية المدينة العسكرية فيتجاوزها يمينا صاعدا لأعلى حيث باب الشرق. ويستمر في سيره حتى يلتقى الجبل.

فيستدير عائدا إلى مبنى البريد فالجنسية فباب شيحة مرة ثانية.  
حيث مستشفى الساحل العام.

طوال طريقه تعبته البنات زرافات؛ عشرات العيون تحديق في  
تساؤل. وأخرى تتطلع في تألق. تُغور تفتر عن ابتسامات مشرقة.  
ودودة. وأنامل تربت جدائلها النافرة.. مئات من النظرات. الابتسامات.  
اللمسات جميعها غايا مختلصة. يا الله ما أجملك؟؟

- خير خيبة نهمس بها إحدى عاملات مصنع النسيج الكائن  
بالساحل الشرقي، برح جسده ماذا حدث؟..

تلتقى به عيناها وهو بهم بركوب سيارته. ويظل يحديق بها  
حتى خاذيه. تهتف بالتحية «خير». يجيب مشدوها «خير». تعبته  
وقبل نهاية الطريق تلتفت نحوه وخبية بابتساماة طيبة. يكاد أن  
ينكفى على الأرض خائرا.. وعندما ينطلق بسيارته كان يردد: هل  
حدثت المعجزة؟.. فتاة تدفئني بالتحية..

\* \* \* \*

مثل عصافير السنونو الوديعه حظت الفتيات على نافذته. ومن  
أسطح الدور المجاورة وشرفاتها. يطلقن عبقهن مثلما يتساقط الثلج  
الناصع تحت شمس دافئة. يختلسن أوقات الظهيرة والمساء. يغمرن  
حجراته المكشوفة بنظراتهن المفعمة بالانتظار. يحملن أطفالا  
صغارا بلاعبهن. يضمهن لصدورهن البكر. يغمرنهن بالقبليات. يبررن  
أناملهن بين مفارق شعرهم. وجميعها إشارات. دوال في عمليات  
التواصل والاتصال بين ذكور وإناث عشائر بدوية تسكن مدن الحدائق.  
وهو يجلس قبالتنهن يبادلنه النظرات. هذا من أجلك. وذلك كي تنتبه.  
وتلك وحدها لك. وعندما يستلقى راحلا ليوم جديد كان ينام وهو يغرق  
في همساتهن وضحكاتهن المغردة:

- لم يأت بعد..

لا.. توا يجي

- ريته غادي على الطريق.

- بضحكك يا نورا..

تضحك الفتاة وتتلألأ ضحكاتها كاللؤلؤ. ولا تكتفى تطارده:

ليش تبهت في هكي يا خوي.

ويكتفى بتبادل الابتسامات العابرة، وتحول الابتسامات إلى حيات وأحاديث صغيرة شيقة. على طرقات المدينة الأندلسية التي أفافت من سبات طويل مثل أميرة بحيرة البجع النائمة. وقد خرجت الأميرات اللواتي استيقظن لتوهن: بجعات وغزلان شرعن أجنحتهن مطلقات جدائلهن للرياح القادمة من وراء البحار. بحثا عن أمير منقذ. حائرات مشوشات لا يخالطنهن الارتباك أو التردد. هذه المرة غادرن الصحارى السساكنة من سباتهن الذي امتد فروتا طويلة. إلى الطرقات في سياراتهن الحديثة. يبحثن عن أميرهن المجهول. أهو الضابط الثوري الذي حمل على عاتقه طرد الملك وإعلان الجمهورية. أم الذي تولى تحرير البلاد. كى يدخل البدو وسكان التنك القرن العشرين من آخر بواباته التي توشك على الأفول. وحقول النفط التي فاضت بالذهب الأسود يداعب أحلام الجميع بتراء غير محدود وعالم جديد.

ووسط قانون العشوائية الساحر. يتبادل غرباء ابتسامات تحمل حبا من خلف نوافذ سيارات منطلقة في اتجاهات متعاكسة. سؤال بسيط هل أنت الأمير الذي أيقظني من سباتي؟

تدور المدينة بين عجلات سيارات القتيات. جوارى سلطان شرقي. فراشات محرمة. خيل فضاء المدينة إلى عبق من رغبات وأشواق ترسلها عبر آلات التنبيه والإشارات الضوئية. يسطع الجنون على فضاء مدينة يرقص شبابها رقصات غامضة. ثم يتركون بعضهم بعضا بلا إجابات شافية مخلفين الرغبة المجنونة في متابعة الغزلان اللاني يقمن سياراتهن وحيدات. ويعبرنه وقد تركن به انتظار صدف جديدة. صدف صاغا شيطان الترقب والانتظار.



مرضات، معلمات، ربّات بيوت، وطالبات، عاملات وبنات عائلات ثرية، كانت ندهشسه رعونتهن.. تنطلق إحداهن بسيارتها الفيات السبور الحديثة، تلقاه بالطريق، لا تكتفى بالإشارات الضوئية التي ترسلها من المصابيح الأمامية، تعقبها برفع يديها بالتحية وسط المارة والسيارات العابرة، كان يجيب بخجل، وعندما كن يصفن سباراتهن على جوانب الطريق مقتححات الحلات الجانبية كان الجينز الضيق بهاجمه بأرداف قدت من التفاح.

الأخرى فى سيارتها الرينو البيضاء، وجهها المشرق بدر الدور بطل فى شمس شتوية، جواد على جسد رشيق وعينان مخملتان، يتورد وجهها بالفرح لرؤيته، يصرع قثيل ابتسامتها المسروقة من وراء أسرتها، الأب العجوز يجلس بجوارها.. تدور بعينها وراه إلى الخلف كى ترسل حثتها خجولة مشرقة.

فى الأماكن المنعزلة تتباطأ أخريات، تتبادلن الأحاديث السريعة، بحثا عن وعد بالحب، والحب عالم من المشاعر والأحاسيس، عالم من الوجد والسهد، تتحقق فيه للمرء كينونته، والحب طريق نهايته الزواج، أو وهم يخدر العقل الواعى، وهو أيضا عبادة من التواطؤ الصامت المسكوت عنه يخفى الغواية، والعيون نظرات ناعسة وفرح خجول، وابتسامات مسروقة، واختلاس الخيانة منعة لا نظير لها، وجموح كموج البحر ينلاطم، ولا يهدأ إلا مع غلائل الليل، والمدينة ترحل إلى السبات العميق، وتبقى الفراشات لديه طيوراً جميلة سالمة ضعيفة، يجب أن تبقى ظاهرة حتى يحين ميعاد أوبتها إلى أعشاشها بسلام، ومع الوقت تمر الأيام والليالي يتابع عالم من العواطف والانفعالات المشبوبة، تندفق كسيل يرتطم بالحياة.

وكلما تداعت الأيام، يحل جحيم من نوع خاص فيبدو الكبت نقيا خالصا، وحل عصابية الليل الطويلة محل لحظات الإشباع العابرة، ويصير ترقب تلك اللحظات لعنة دامية، وجحيم مستعرا، لا يطفئه حديث النوافذ وعالمه.

كانت صباح أولى الفراشات التي اعترضت طريقه. صبية لم تتعد الخامسة عشرة، التقى بها في حوش أخته عائشة. أثارت المدينة بعبونها الخضراء ووجهها الحمري. فكانت مميزة وسط أمواج الفتيات وهن في طريقهن للمدرسة. رغم جسدها المشتهي الناضج. لم يرها سوى طفلة، عمره بضاعف عمرها، ولما تعددت لقاءاتهما عند عائشة، وتعددت أحاديثهما، وطلت نفسها ببساطة أن تكون زوجته. وأشاعت وسط زميلاتهما، وهي تلقى بتحيتها له أثناء عبوره لهم في الصباح. علاقته العاطفية بها دون أن يدري عن الأمر شيئاً، ولما أبلغت أخته عائشة بما بينهما، بوغت وأقسم دون أن تصدقه عائشة. بأن شيئاً بينهما لم يحدث، وتساءل أهى سذاجة أم فجور؟ عنفته عائشة. فلم يجد بداً من مواجهتها. لقد عرض الأمر واضحاً ليس فيه لبس. مؤكداً أنه يكبرها. وأنها لا زالت صغيرة. فلم تقتنع. ولم تحض فترة حتى تقدم لها شابان. فسارعت بإخباره حتى تربه كيف أنها أنثى حقيقية مؤهلة للزواج. ودعته أن يتقدم للزواج بها. فرفض. لكنها لم تيأس. وبقيت تطارده. ضغطة الكف الساخن عند اللقاء. الابتسامة الموحية العميقة. كروت البوسنتال التي ضمت وسط جمال الطبيعة الأخاذ. فتي وفتاة ضم كل منهما الآخر في وجد..

مسكينات.. والله مسكينات.. هذا ما عكف على ترديده. وكأنه كبش وسط قطع من الشياخ لم يبلغ نضوجه. مكتفٍ بذاته. والبقية قطع من الإناث الوحيدات المسكينات حتى رآها..

\* \* \* \*

قبالة حامية المدينة العسكرية. وفي الشارع الضيق الذي يربط مدخل المدينة إلى الجسر الحديدي. عبر ثانوية البنات. يقبع محل صغير أنيق لبيع الملابس والعطور والأدوات النسائية. يدعى «حانوت بغداد» صاحبه شاب صغير يدعى «علي». لا يذكر ونيس بالضبط متى وكيف جرى تعارفهما. لكنه متأكد أن الشاب هو الذي سعى لذلك. ابتسامته المشجعة. التحيات العابرة وهو يمر أمام المتجر بالسيارة. أصدقاء قدامى لهم يجلسون عنده على قارعة الطريق. نادوا عليه عدة مرات «كولا.. بيبسى.. عصير يرتقال»..

هذه المرة توقف. صف سيارته وهبط لتحببتهم. يومها تلقاه علي بترحاب مبالغ. واحتفى به كان يعرض عربوناً لصداقة عميقة.

لكن ونيس لم يكن يعلم يوم خطأ يقدمه باب حانوت بغداد. الذي ليس فيه للرجال أغراض يقضونها سوى بعض العطور. أنه سوف يشتم بقايا حوانيت العباسين وأسواق بغداد وجواربها.. عدد متواتر من الجلسات حتى بدأ كأنه يجلس على مستودع للأسرار الصغيرة.. طالبات المدارس الليلية. عاملات الظهيرة. الفتيات والنسوة المتجولات عصراً.. الجميع يدخلن المحل الصغير يتسكعن ظويلاً ويشترين وسط أحاديث خافتة. همسات غير مسموعة. ضحكات مبتورة محورها صاحب الحانوت.

يحل الجد والوجوم على الوجوه للحظات طويلة فتتحدد مصائر  
علاقات: حترق قلوب. للانزواء والخسرة. أو تبرز آمال وردية. تحل الابتسامات  
محل الوجوم. وتخرج الفتيات راحلات في رعونة. تهتز أجسادهن في  
جرأة وسفور. وأخريات يسرن خلفهن منكسات الرؤوس. وعلى وجوههن  
حمرة الخجل. وخفر الحياء الذي يطمئن له الشرقيون.

هنا في حانوت بغداد كانت مدينة المستلقية في أحضان البحر  
تكشف أسرارها.. عشيرات القصص تبعث على الفرح والحزن. العذاب  
والمتعة. الشفقة والغضب.. هذه أغرقها الهوى. وتلك تعشق دون أمل  
في الأفتران من تعشقه. لأن أهلها اختاروا لها آخر. تلفظ أنفاسها  
ذبيحة. وتلك عاهرة. أما هذه فامرأة هجالة أرمل أو مطلقة. على  
علاقة بعامل باطون لبناني. تعرفه بهدايا العطور الثمينة. والنقود  
طلباً لوصاله. أما الأخيرة التي حدثه عنها علي. فقد تقلبت في  
نزوات عميقة بين أحضان الكثير. بعد حب عنيف سلبها عافها  
ورحل بعد أن قضى وطره.. ثمار تقطف قبل نضجها.. أغصان يلقى  
بها إلى الهشيم. وزهور تسحقها أقدام لا تعرف الرحمة.

أثناء الظهيرة وهو عائد من عمله بالمستشفى نادى عليه علي  
وشدد عليه بأن هناك ما يريد أن يخبره به. فأجابه بأنه سيمر عليه  
مساء. قال له لا تتأخر. الموضوع مهم.

ومثل تاجر قماش في بغداد العصر العباسي. أخذه جانباً. وما لا  
برأسيهما معاً. وهمس يخبره أن هناك فتاتين ترسلان له السلام. هدف  
ونيس يضحك. وقد أخذ الأمر على محمل الهزل: التنين معاً.

- شنو يا أخي أنت تبصّر.. كل واحدة بروحها..  
- وشنو يبو؟

يسألوا إذا كنت مرتبط بواحدة هكي ولا لا..  
لا بعد ما انى مرتبط...

- يقولن إذا ما كنت مرتبط بهكي تزوجها..  
ضحك ونيس: تبي تزوج الاثنين ولا واحدة؟

- شنو الاتنين. واحدة يا أخى يمكن ما تعرفهن؟..
- أعرف كيف؟ حتى ما ريتهم؟
- يا راجل..
- يا راجل شنو.. اقول لك ما أعرفهم.
- باهى يا سيدي.. الأولة صاحبة السيارة الريتو البيضاء..
- هادكاهى معلمة تخرجت من جامعة العاصمة.
- هادى اللى الخجولة..
- قال علي مندهشًا: شنو خجولة هادى..
- والله خجولة.. أنت ما تصدقنى.
- أصدقك واجد. وانت ليش تضحك على.
- والتانية هادى غنية واجد..
- منو تكون.
- بنت الزروق أغنى راجل فى الساحل الشرقى. درست الحقوق فى جامعة القاهرة. تعرفها..
- من شنو اعرفها؟
- تضحك عليّ.. حتى انت تشاور ليها كل يوم..
- نظر إليه محققًا: كيف عرفت..؟
- يا راجل تسكن قدامك.
- كيف عرفت أنى أشاور ليها كل يوم؟
- هي تقول.. شنو تظن شىء يستخبي على علي؟
- يا أخى كيف نتكلمم أنت. راك حكيت لهم عنى.
- أنا نشهد الله كلمة عنك ما نطقت. هن بجن عارفات يا رجال..
- كيف؟
- كيف هن بجن يقولون ونيس هادكاهى ولد بوزوى وأخو عمر بوزوى من القبة. وتو يعيش هنا. ويقولون ونيس هادكاهى طبيب حصل فى شهادته من ألمانيا. ترى والله حتى ما أعرف عنك شىء بَكَل هن اللى بجن ويحكمن..

الأميرات النائمات اللأى اسنقطن مؤخرا. ببحن بأفسهن  
عن أمير نائم فى حاجة لمن توقظه.. فكرة دافنة وجرئة أزعجت  
وحشيتها.

قال لعلى لا أستطيع. سأله عما لا يستطيعه. قال لا أستطيع  
وكفى. وغادر الحبل مسرعا. وعلى يسأله إذا ما كان متزوجا فى القبة  
أو ألمانيا قول وما تتعبنا معاك. قال وليش نتعب معاى؟  
قال على بغضب يا أذى لما الصبايا يتعبن معاك تتعبنى أنا  
الأخر. صح ولا لا. قال ونيس بابتسامة عريضة. يا أذى لا تتعبك ولا  
تتعبهن. نشاو..

\* \* \* \*

فى ظهيرة ناعمة أحها تسير بجوار صباح فى طريق عودتهن  
من المدرسة. طويلة مشوقة. وجه قمرى وبشرة وردية. عيون سوداء  
تنم عن بحر من الهدوء الصلب. التقت عيونهم. ورحل كل منهما  
وقد انطبع فى ذاكرته الأخر. غمرته راحة دامت وهلة قصيرة.  
لقد اختفت. ظل ينتظر ظهورها فى الأيام التالية. بحث عنها  
دون أن يتمكن من رؤيتها. وود لو يسأل عنها صباح لكنه فضل  
الصمت. وبقيت حلماً يبحث عنه فى الفضاء المنوم بالسكون. فى  
المررة الثانية لمحها تغادر المدرسة الثانوية. دار دورة واسعة محاولا  
أن يلتقى بها بعيدا عن عيون الفتيات. لكنها اختفت كأن الأرض  
ابتلعها. لقد فقدتها ثانية. وعادت للحياة رتابتها. وعاد مستسلما  
لآلام الانتظار ومثقتة لفتاة لا يعرف حتى اسمها.

ومضت ثلاثة أسابيع قبل أن يراها مرة أخرى. هذه المرة التقت  
عيونهم فى استقامة. وكأنهما على لقاء عابر سريع. لقد عجلت  
بالعبور للرصيف المواجه للمدرسة ودخلت مباشرة الدرب المواجهة.  
عرف ساعتها لماذا تبتلعها الأرض. تابعها مسرعا حتى علم موقع  
منزلها الكائن قرب الجسر القديم.

هذه الليلة لم يستطع النوم. كان قلقاً كمن سيجلس صباحاً أمام طاولة الامتحانات. وظل يتربص مجيء الصباح والقلق يتلاعب به. أستيقظ باكراً يستعجل الساعات والدقائق. وراح يزرع الدرب بسيارته ببطء. وما إن ينتهي حتى يدور ملتفًا حول الطريق الرئيسية منعطفًا مباشرة أمام الميناء إلى الشارع المؤدى للجسر القديم. وعندما يتعطف للدرب يصبح وحيداً وسط الأعداد القليلة من الطالبات المتوجهات إلى مدارسهن.

زاد توتره باقتراب موعد المدارس وازدياد أعدادهن وكثرت حركة قدميه بين مكبح السيارة ومعجل السرعة. وما إن يغادر الدرب حتى ينطلق بسرعة جنونية ملتفًا في طرقاتها الخارجية عائداً للدرب.

عندما لحها كان الوقت قد فات. التفت نظراتهما ثم غابا. لعن توتره فقد جاءت اللحظة مفاجأة. ولم يتمكن من أن ينقل لها رسائله.

بالمستشفى لعن نفسه. وبخها على ضعفها. ها هو يتخلى عن الهدوء والسكينة اللذين عاد بهما من ألمانيا ليسقط صريع كبت شرفي.

النساء والسيارات والعام الدراسي يوشك على الانتهاء. ولم يكن ليجد فكاً كما. هذه الظهيرة. والشمس في منتصف السماء تحكى قصتها. عاد إلى منزله بالخيبة مقهوراً يتقلب في فراش القلق. يعد خطواته بين النافذة والفراش ينظر البحر. لم يستطع أن يمنع نفسه عن الخروج. يبحث عنها وحدها. ويحوم حول منزلها طوال اليوم دون جدوى ولما بلغه الأيس ذهب إلى حانوت بغداد وجلس أمامه ينظر العابرين في سأم.

في اليوم التالي استدعاه الدكتور حمد البرغوثي. ذهب وهو ملول. قال له هناك وفد ألماني قادم من وزارة الصحة الألمانية. وهناك رسالة من العاصمة يطلبون منك ملاقاته ومصاحبته في مهمته.

تساءل عن المهمة الملقاة على عاتقه. قال الدكتور حمد إنهم يريدون منه أن يصاحب الوفد في زيارته إلى كل من العاصمة والحاضرة الشرقية. وألقى إليه تذاكر السفر وبطاقات حجز الفنادق. وأضاف تستطيع أن تغادر المستشفى من الآن. كانت مهمة مفتوحة تبدأ من الغد. وفي الخارج فهم أنه سيعمل مترجماً على أسوأ الأحوال.

\* \* \* \*



من العاصمة هاتف ونيس أخته صديقة. أن عليها أن تعد نفسها لمصاحبتة لحفل الاستقبال الرسمى الذى سيقممه القنصل الأول للوفد الألماني ومرافقيه بعد غدٍ بالحاضرة الشرقية. فكرت كثيرا! قبل أن تباغته بالرفض بسبب من التهييب. قالت: شنو أسوى مع هادول المازجرية.

ضحك ضحكة طويلة وقال متعجبا: هادول المازجرية. القنصل الأول يدعو خوك ونيس بوزوى لعشاء رسمى. ونوا أنتى تقولى لى هادول المازجرية. لازم جى معاى.  
- ما أجى.

- هذا حفل عشاء كل راجل يروح ومعه المرة تبعه.  
- شنو من إمتى صرت المرة تبعك. تبنى تدير كدبة عليهم. أنا ما أحب الكذب بٌكل.

- يا أمة الإسلام.. شنو أسوى مع الغيبة هادى.. يا صديقة. المرة تبعه قصدى زوجته. صديفته. وهكى.  
- وأنا ما زوجتك ولا صديفتك.  
- ما خلصت أنتى أختى.  
- يا سلام تقول صحيح.  
- والله نقول صحيح. المهم أن الراجل ما يروح إشكابلى.



ومثل عذراء بطرى جمالها نزلت بقبة الدرج تكسو وجهها حمرة. تساءلت إذا كانوا يسخرون منها. ضحك معبرا عن استنكاره. موضحا أنه سيعانى من السير بجوارها لفرط أناقتها.

أطرقت برأسها إلى الأرض.. عانت كثيرا قبل أن تقرر الذهاب معه. وبين الاستغراق فى الرتبة وأنتهاز فرصة يندر أن ترد إلى عالمها المحدود. قررت أخيرا المغامرة. لم يبق لديها سوى أن تدفعها صديقة دفعا إلى الخروج. أن تحصل لها على موافقة الشايب. وعندما انتهت كل الترتيب الطقوسية. لم يبق سوى اختيار ثوبها. وطوال الظهيرة قلبت عشرات الفساتين والأحذية التى لم تستخدم سوى مرات نادرة. بعضها لم يسبق ارتداؤه. إلى أين يمكن أن تذهب به وكلها موديلات من روما وباريس.. أخيرا هذا الفستان العذب. فهل أساءت الاختيار؟ قالت: لن أذهب إذا كان هذا بضايقتك.

ضرب جبينه بانفعال: إنها تنصرف كالأطفال. قال بجديّة: ينبغي عليها استخدام قلادة من الفضة بدلا من كل هذا الذهب الذى تلف به عنقها وساعدها. واستطرد: لو فعلت لاكتملت فتنتك.

صعدت ثريا وعادت تحيط عنقها بعقد من الماس أبرز عنقها العاجى. وعندما غادرا الفيلا سويا كأن ونيس بوزوى يحدث نفسه عن المفاجآت التى تتوالى عليه. بينما ثريا تشعر للمرة الأولى أنها سيدة فاتنة تعامل بشكل راق.

\* \* \* \*

فى الحفل الليلي لم تخف زوجة رئيس الوفد التى توثقت علاقتها بونيس إبان مرافقته للوفد فى العاصمة لمدة تجاوزت أسابيع إعجابها بثريا. سألته على مدخل الحديقة الداخلية للفيلا هل هى صديقتها؟ ضحك وقد أعجبتة المفارقة. ورأى فى عينى ثريا تساؤلا. فمال يخبرها بما تظنه السيدة. ابتسمت وسرها أن يراها البعض لا

تزال فتاة، وعقبت الألمانية إنهما مناسبان كل للآخر. عادت ضحكته ثانية ينفي ما تظنه، موضحة أنها زوجة أخيه. ند عن السيدة اعتذار، والامته لكونه كان يجب أن يخبرها. أوضح أنها لم تعطه الفرصة. قالت: أوه وماذا أفعل، إنها جميلة، من فضلك بلغها اعتذاري.

ترجم لها أقوال السيدة، هزت رأسها وتقدمت إلى الداخل حيث الأثاث الفيكتوري العتيق. تتناثر في أرجائه كميات من الزهور تبعث على الألفة والارتياح.

في غرفة الاستقبال كانت ثلاث أسر ألمانية تقيم في الحاضرة الشرقية وفتاة مراهقة في الرابعة عشرة، جلست ثريا ضائعة لا تدري ماذا ينبغي عليها أن تفعل. وقد شعرت بالثقة نهرب منها وونيس يتحدث معهم عنها. ولما جاء اسم زوجها عمر بانت الدهشة على وجه الرجال. وحلت على وجوههم مشاعر الاحترام والإكبار مع ارتفاع حدة الحديث. وونيس ينظر إليها ويتسسم. فجأة وقف رجل وتقدم إليها وانحنى يسلم عليها بحرارة وحدث وونيس بكلام أخذ يترجمه لها.

قال إنهم يعربون عن سعادتهم بوجودها بينهم. فهم يقدرون زوجها ويحترمونه. وعقب وونيس: ها هو عمر بلغت شهرته الألمان. ارتبكت ولم تدري ماذا يمكن أن تقول. قال وملامح وجهه ثابتة. تبعث فيها الاطمئنان. بأن لا تهتم. أن تقول أي كلام فلن يفهموا شيئاً. سأقول إنك سعيدة بقدمك هنا. قالت له أن يقول ما يراه مناسباً. ففعل.

قال أحد رجال الأعمال الألمان: من المؤسف أن يعامل رجل في مكانة السيد بوزوى بهذه الطريقة. فهو مهذب بالتأميم. واستدار يحدثها بأن هذه معاملة فظة خشنة. واستطرد متسانلاً: كيف يتركوه يعمل بكل هذه الطاقة. ثم يحاسبونه على نشاطه ويفكرون في الاستيلاء على أمواله..

ترجم لها ونيس ما قاله الرجل. تساءلت كيف يعلمون كل هذه التفاصيل. أجابها ونيس بأن زوجها رجل مشهور في عالم الأعمال والمقاولات. لا يخفى عنه شيء بالبلد. سأخبرهم أنه في أوروبا يمارس أعمالاً خاصة به. ما رأيك؟ قالت كما ترى. طلب منها أن تتحدث قليلاً. عاد لها ارتباكها. وسألته ماذا يمكن أن تقوله. فأمسك يدها وقال بهدوء قولى أى شيء. انشتميمهم مثلاً. ضحكت وعندما حدثهم قالوا له إنه أحسن التصرف. ولما انهمكوا فى الحديث جذبت يدها فى بطء وراح عنها اضطرابها واستعادت صفاءها للحظات. كانت ترى ونيس محور الجميع. يتحدث بثقة. يضحك بثقة. وينظر مشجعاً إياها. لا ينسأها ويسيطر هذا العدد الغفير فتطمئن وتستعيد من عالمها القلق شعوراً بالراحة.

لاحظت أن النساء الثلاث يتحدثن ثم ينظرن إليها. والفتاة تستمع. وعلى وجهها ترتسم الدهشة. قامت ترجوها الوقوف. فلما فعلت ثريا استدارت الفتاة خلفها وصاحت من العجب صيحة انتبه لها الجميع. كانت النسوة الثلاث يتلمسن جدائل شعرها المنسدل أعلى أرقابها. وبقية الرجال يتطلعون نحوها بإعجاب.

لاحظت ابتسامة ونيس وعينييه اللامعتين تنقلان سعادته بها. همس يخبرها أنها ستورثهن الجنون. قالت فى ألفة. بالله عليك لا تسخر منى.

بالطابق العلوى أخذتها الفتاة المراهقة ابنة الفنصل. إلى مرسى صغير تناثرت فى أرجائه لوحات لم تكتمل بعد. وحامل فى المنتصف عليه لوحة وأدوات رسم؛ فرش متعددة الأحجام وألوان جواش. وأريكة واسعة.

فى الشرفة شاهدت ثريا المنظر الذى كان مرسوماً على اللوحة الموضوعة فوق الحامل. حى العزيزية تطل من ورائه بحيرات المدينة. وخلفها البحر. تعقبها غابات القوارشة. حدثنا بالإشارة. عندما لاحظت الفتاة اهتمام ثريا باليوم اللوحات الفنية أصرت أن تعطيه

لها. حاولت الرفض. لكن الفتاة باغتتها فمَد التفتت نحوها بغتة. وقبل أن تفهم ماذا يجري، شُبت على أطراف أصابعها وقيلتها من ثغرها. ارتبكت وقامت والألبوم في يدها تهرب من جدل لا تعرف دوافعه. وخرجت تخفي ارتباكها.

\* \* \* \*

في الليل وبعد أن نام الجميع جلست ثريا في حجرة نومها وحيدة تسترجع الأحداث أشياء كثيرة لم تفهمها وعلى الأخص ونيس. لوغاريتما غامضة غير مفهومة. كل شيء غامض على الفهم. خاصة إنها لم تدرك ما إذا كانت سعيدة أم تعيسة. الشيء الوحيد الذي تمكن منها هو ألبوم الصور الذي فتحته على مصراعيه أمامها على الفرش.

أوروبا. طرفانها وقلاعها القوطية. قصورها القديمة. جسورها المنشأة من العقود الحجرية. جبالها المغطاة بالثلوج. وامرأة تلمى بشعرها إلى الريح بحرية الروح والجسد. أزياء النساء القصيرة وأجساد النساء العارية على شواطئ جنوب أوروبا.

عندما أطلت لوحات الفنانين الكبار. ألقت ثريا بكل ما يخص الرسم الحديث والسيرالية والرمزية. وكل ما بدأ مشوها عن الطبيعة وتوقفت أمام لوحات فان جوخ. الألوان البهيجة والأضواء التي تنتع بالدفع، خضرة العشب الطازجة، السحب المتناثرة على سماء صافية بالزرقة تخيم على بحيرات. وأكواخ نائمة بين الطبيعة. ودواب وأناس بسطاء يبدو عليهم أنهم تذوقوا السعادة يوما.

توقفت طويلا أمام لوحة «الغداء على العشب» أدهشها عرى جسد المرأة المتكئة على العشب، النهدين القويين. الأرداف الممتلئة. استرخاءها اللين. ممددة بين رجلين في كامل ملابسها الرسمية. والغداء الموضوع على شرشف وسط الطبيعة. حاولت أن تجد معنى لنظراتها المستسلمة. ربما المرأة الضحية. لماذا تشكل لديها يقين

بأن ونيس لن يكون أحد الرجلين. مؤكداً عمر والثاني أبوها. لحظتها شعرت بأن من تزوج ونيس ستكون سعيدة. دأمتها الكأبة. ورأسها الموجوع. بتناثر شظايا صغيرة. كلما عن لها أن تمكر فيما إذا كانت إنسانة أم مجرد متاع فى منزل وسمعة عمر بوزوى.

المظاظلة نأكدت أمام لوحات «جويا». بوغنت بوجوه قساوسة سحره ومثسعودين. حفرت فى ذأكرتها معنى العنف فى الحياة: البغض. الحب. القسوة. العرى. الإعدام. الخيول الموت تحت سطوة محاكم التفتيش.

توقفت أمام مجموعة من اللوحات لشواطئ بتناثر على أرجأها للمصطافون. وأجساد نساء تشق البحر مفسولة بمياهه المألحة.

ماذا حدث؟ لا تعرف بالضبط سوى أنها وقفت طويلا تنظر حمام السباحة الكائن فى البأحة الأمامية للفيلا. قبل أن تتحرك جأه خزانتها وتخرج وأحسداً من تلك المايوهات. ومثلما تمارس فتاة غضة العادة السرية. خلعت ثريا ملبسها لترديه. شرائط ربيعة جًمع بين قطع لا تتجاوز حجم كف طفلتها تخفى حلمتى النهدين وثلثه. ومجرى اللغز فى قبتها. بينما يبقى كل شئ فادحا فاضحا. دأمتها شعور بالذنب من ذلك النوع الذى يؤرق الضمائر. وكأن الله يراها. وخوفا من أن يدخل عليها أحد. أغلقت باب غرفة النوم من الداخل. وجلست فى عريها المشروط بقطع تكشف أكثر ما تخفى. على كرسي. تتابع حمام السباحة ومياهه الزرقاء من شرفتها فى الطابق العلوى.

\* \* \* \*

استيقظت مكئبة تبحث عن من نفرغ فيه همومها. استقبلته على الغداء بخشونة. وتركته فى حيرة. ولما همت صباح بالخروج معه عصرا زجرتها بغلظة. تمسحت بها الطفلة كى تسمح لها بمرافقة عمها. لكنها دفعتها عنها فوفعت على الأرض تكى.

خرج يرثى للطفلة المسكينة. متعجباً من سلوك امرأة أخيه. لا يجد تفسيراً معقولاً. حتى بات يشك في سلامة طويتها. وطبيعة معاملتها المتناقضة معه. وهلة ارتاح لفيض من مشاعر الشفقة. لكنه نهاها. فالشفقة لا تجلب سوى النحس. وقرر مقاطعتها نهائياً. كان الوفد قد رحل إلى مدينة بالولاية الجنوبية مع آخرين. على أن يعود ثانية فيقى في الحاضرة الشرقية ينتظره. بعد أيام طلبت منه ابنة أخيه الخروج معه. وعززت ثراها طلبها بأنها تبغى شراء بعض اللوازم والأغراض. رفض وتعلل ببعض الارتباطات. وأشار لحميدة. الذي رفض رفضاً قاطعاً متعللاً بأنه قادم لتوه من القبة. حيث أمضى أسبوعاً كاملاً يعمل سائقاً للشباب والعجوز. وأوضح أنه يريد التركيز في الامتحانات المقبلة. وأستدار لها قائلاً إنها تستطيع الذهاب وحدها. أجابت في حدة: مو توا. عمر في اليونان وأنا ما أخرج إلا أن يكون رجع.

فهموا ما تعنيه. رجي حميدة ونيس أن يذهب هو. متعللاً بأنه تأخر في النهج ويلزمه الكثير للحاق بزملائه. وأضاف همساً. إنها ستذللهم حتى يحين مجيء عمر. بالله عليك روح معها. ودون أن ينتظرده. قال لها مؤكداً: توا يروح معاك د. ونيس وبين ما تبي. قامت غاضبة منفصلة موضحه إنها لا تغضب أحداً على الخروج معها. وستنتظر في السيارة. وليأت من يأتي.

في السيارة جلست ثراها في المقعد الأمامي مرهوه بإجبارها له على الخروج معها. وانكمشت صباح بعيداً عنه. بعد أن مر أسبوع لا يحدثها. بعد قليل اقتربت ببطء. وشرعت تحك به مثل قطعة. ثم ما لبثت أن استدارت فجأة لتدفن وجهها في صدره وتضمه بشدة.

اضطرب مقود السيارة بين يديه. واضطرب قلبه لشاعر الطفلة المتوحدة. شعر بإساءته لها. أخذها بذراعه اليمنى. وضمها وهو يمسد شعرها. وأمها تصيح بها: أيوه.. أيوه.. تحبيه يا خايبة وهو ما



يحب حدا. قالت الطفلة إنها زعلانة واجد.

سألها السيب. قالت لم بعد بأخذها بالسيارة لمشاهدة البحر كما كان يفعل. قالت إنها ترتدى ملابسها عصر كل يوم وتنتظر دون أن يهنم.

تذكر أنها فعلت في اليوم التالي الذي عنفتها فيه أمها. بحث عن حجة. لكنها قالت بإصرار إنه لم يكن مشغولاً. كان يشاهد التليفزيون. صمت مصدوماً. ولم يستطع التعقيب.

أمام سوق الظلام غادرت السيارة وتركتها معاً. وعندما عادت بعد نصف ساعة. أخبرته أنها كانت تنتظره يومياً. ترتدى ملابسها وتنتظره. وعندما يستمر في تجاهله لها. تأتي وتسألها لماذا هو غاضب منها. فتقول لها عمك يحبك اذهبى إليه وحدثيه فتأتيه. تحاول إثارة انتباهه دون جدوى. كان يصر على تجاهلها. اليوم رفضت أن تغادر حجرتها ولم تفعل إلا بعد أن أخبرتها أنه سيأتي معها. واستطردت بنبرة اتهام وصوت مطوً: مسكينة بنيتى لا تجد من يعطف عليها.

انقبض وجهه ودهش لغرابة أفكارها. وأخذ يجزم بأنها امرأة متقلبة المزاج. جنح للنشر. وفي ميدان البلدية صف سيارته بعناد وسط الميدان المزدحم. طاف بالحمالات والطفلة لا تتركه. وكلما حاولت أمها أن تأخذها ابتعدت عنها والتصفت به. أحضر لها حلوى. وفي سوق الجريد اشترى دياً كبيراً وقطاراً ألياً يقوده قرد صغير.

ضمته بين يديها الصغيرتين وقبلته سعيدة. وفاحت منها رائحة زغب الطيور الوليدة. وأمام مبنى البريد المركزي ابتاع لها مجموعة من الحمالات المصورة. وفي السيارة سألها إذا ما كانت لا تزال غاضبة منه. فأجابته بالنفى. سألها فكم يبلغ مقدار حبها. فتحت ذراعيها على سعيدتهما. ضمها لتنام في حضنه وكلما حاولت أمها أن تأخذها رفضت لحد اليكاء.

كانت الطفلة تعوق قيادته. بدأ عليها أنها تنوى إبداءها. تدخل هذه المرة بحزم. تروى شويه. شنو بيكي انركيها تفعل اللي تبيه. استاءت. ودت أن تزجره. لكنها كانت لا تعرف ما الذي ينبغي فعله. ساد الصمت والسيارة تدور في طرقات المدينة. وبدت كأنها تفقد الثقة في تصرفاتها.

فكر بغضب.. هذه امرأة مصمته. تركت دراساتها الثانوية وماتت منذ مئات السنوات. أي قيمة أخلاقية تترك عليها عدا الانطواء في كهف الوحدة والتقلبات المزاجية.. هذه المرأة يهجرها زوجها أشهرا طوال ويخونها أينما ذهب. وليس من المستبعد أنها تعرف.. هل استخدم آيات من القرآن.. لقد تكلس داخلها وقد أحكم الرتاج عليه. وأحكم الحصار الاجتماعي عليها جيدا. فلا معنر لديها للخير والشر. لن تكفيها أحدث أنواع الموضة والسيارات ورصيدها في البنك لتستقر نفسها.. إنها بانتظار علامة ما لتتبعها.. يا الله كيف أبدأ حديثي معها.. انحرف بسيارته جهة بحيرة المدينة.. هذه المرأة وحيدة أحيطت بسياسج من الجهل والرتابة. وهي تقاثل بالصمت الشرس. تود لو تنفث مقنا وكراهية خرق الجميع. ولا تجد منفئا لانفعالاتها المكبوتة سوى اينتها.

أشار بيده للمدينة القابعة أمامه خلف البحيرة. وأصواؤها الناشز تطل من وراء الغيوم. حدثها دون أن ينظر إليها مدينة مريضة بقر النفس. حكما صرامة موقف عقلي متخلف. توءد المرأة وهى على قيد الحياة. وتبسع لمن يدفع أكثر لتوءد من جديد. تأخذ الأمهات ثمن حليها ذهباً ونقداً. ويرضع الأطفال الجهل والأذى والانفعالات المكبوتة من صدور أمهاتهم.. هنا يبحث الشباب عن عالم وهمى فى المخدرات والخمر بعد أن قمعت لديهم أية إمكانية للتواصل الطبيعي مع الآخرين. لا متعة طبيعية. لا حياة اجتماعية سليمة. لهذا يهربون عبر الحدود لقضاء حاجاتهم الجنسية وشعور زائف بالحرية يحصلون عليه مدفوع الثمن بين الرافصات

والعاهرات خارج الحدود.. نياهي بغزو النساء ونشرب الخمر حتى الثمالة. وتبارى في الحديث عن عدد الكلسات ومثدات الصدر التي أهديناها لعاهرة.. هنا مجتمع أبوي فوق العادة.. يستوى في ذلك سائق شاحنة. أو رجل أعمال.

لمح شفيتها المزمومتين. عيون لقطعة تنفض شعرها استعداداً لنشب أظافرها في وجهه. توقف برهة محففاً من انفعاله ويتوسل: أتردين.. هذه البنية المسكينة ينطبع في ذاكرتها البيضاء كل أذى موجه إليها أو إليك. وأن تكون إنسانة سوية أو مريضة نفسياً مرهون بنقاء ذاكرتها.. أرجوك أعطيها قليلاً من القسوة. كثيراً من الحنان.. وشخصية لا تتغير بين لحظة وأخرى دونما سبب معلوم؟

حرك بؤبؤ عينيها ليحل استغراب مبهم. أتوسل إليها من أجل طفلة!.. قبل أن خل معالماً الاستنكار محل الدهشة. استطرد بتوسل يروجها الأتضربها. أثنار إلى درية وناصر: الأولى التي ماتت محترقة. والثاني الذي غادر البلاد مكسوراً. والنسب أباء لا ينصتون لأبنائهم.. مفضلين إلقاءهم في التهلكة. وهم في رضا. واستطرد موضحاً أنه لا يريد التدخل في حياتها. أو شؤونها الخاصة. وأنه لن يسمح لنفسه أن يفعل طالما أنها تفضل الحياة داخل صدفة صلدة تخشى من يقرب منك وأضاف: سامحيني إن أخطأت لكن المسكينة هاذي ارحمها.

قالت مستفزة. وفي عينيها بغض لشاعره جأه ابنتها: لشنو جيت بي أهنة.

انفض. ها هي تستعيد نفسها. صمت برهة كي يتحكم في انفعالاته. ثم قال وهو يلقي بمفاتيح السيارة أمامها على التابلوه. ويفتح الباب ويدلف خارجاً «شنو تظني في شوفير الهاتم». وقبل أن تفيق من الصدمة ركب سيارة أجرة ورحل.

عقبت الطفلة التي كانت تجلس دون أن تفهم شيئاً مما يجري بين أمها وعمها. سوى ما ينقله لها تعبير الاستياء على وجهيهما.

قالت: ليش هو غاضب. وبين راح عمى ونيسس؟ نهرتها وهي تنتقل لمقعد القيادة. أدارت السيارة بعصبية وعادت للخلف بسرعة دون أن تنظر في المرآة العاكسة. صرت خلفها عجالات سيارة فولفو تتحاشى الاصطدام بها في اللحظة الأخيرة. لم تهتم ثم اندفعت للأمام وعجلاتها تصر في الأرض صريرا شديدا.

\* \* \* \*

في الغيلا دخلت تبحث عنه. وهي تنوى أن تنكل به أمام أمه وامرأة أبيه القادمتين لتوهما من القبة. لم تجده فانتظرته متوشة تنكل بالطفلة البائسة وعيونها تيك الحقد. وعندما ذهبت إلى جدتها كى تربها ما أحضره لها عمها. دفعتهما لأعلى وهي توشك أن تمزق مجلاتها المصورة. والطفلة تيكى بمرارة لا تعرف جريرتها.

حتى الثانية عشرة لم يأت. وبين الطابق العلوى والبهو. لم تتوقف عن الصعود والهيوط بانتظاره. حتى علمت مصادفة أنه تلفن إليهم بأن يجهزوا حقيبة سفره ليرحل إلى عمله في الصباح الباكر.

صعدت مهدولة الأطراف. نضت ثيابها عنها. وهي تتحرك في غرفة نومها في عالم من البطء. وعندما تمددت للنوم. أخذت ابنها في حضنها بحنان. وكلما جذبتها كوابيسها إلى صحراء الرعب كانت ثمة أنامل صغيرة تمسح عن عينيها الدموع.

في الثالثة صباحا استيقظت من كابوس مرير. كان عمر يغتصبها وهي تحاول مقاومته بكل ما تملك من كراهية. جلست القرفصاء تستعيد هدوءها. شعرت بقدمه فودت لو تنزل لاستقباله لكنها لم تستطع أن تفعل. ورغم ذلك بقيت مسهدة. أطلقت بناظرها إلى حمام السياحة الذي جرى غسله وتغيير مياهه اليوم. تمنت لو تستطيع أن تخفى جسدها في مياهه. ولما كانت تعرف استحالة الأمر. رحلت لخزانتها. تستحضر واحداً من تلك

المابوهات الإيطالية. وعندما وقفت عارية أمام المرأة تردى قطعته.  
كانت تتطلع إلى جسدها؛ كان تاما، بحثت عن عيب ما دون جدوى.  
ورغم ذلك لم تكن سعيدة. حانت التفاتة منها إلى ابنتها النائمة.  
كانت نفهق.. شعرت بالجزع وأخذتها في حضنها.

بعد الفجر بقليل سمعت حركة جري بالطابق السفلي.  
توقعت قرب رحيله، عز عليها أن تنزل لتودعه، فوقفت في منامتها  
بالشرفة. داهمها الصقيع، تابعته يعبر مدخل الفيلا إلى سيارته.  
لم يلتفت ورائه، جلس خلف موقود السيارة متجاهلا شبحها الذي  
كان يطل من الشرفة العلوية، دار المحرك وأز بقوة. وعندما حرك  
مغادرا المكان كانت تشعر بالاكنتاب. وكان صدره يمتلئ بالنعاسة.

\* \* \* \*

مدينة الأندلسيات ثانية: الأنثى المتوجة بعرائش العطر الممددة تحت رياح الصيف تلفح منازلها وقبايعها وطرقاتها الهوس الذي عاشه منذ أسابيع قليلة اختفى. فقد حلت الإجازة الصيفية وتلاشت الأوهام التي فجرتها مدينة النساء السافرات المشاعر. المتشحات من قمة الرأس إلى أخصم القدم بعباءات لا تكشف إلا عن عين وحيدة لأنثى الصقر.

شروط غزو المدينة أن تكون كاذباً، أو تتقبل علاقة الصياد والضحية. كي تسقط الفريسة سريعاً ينبغي أن تلقى فخاخك بطعم الزواج أو الحب. وكيف تعرض أياً منهما على من لا تعرفها أو من يدق لها قلبك.. سيان..

أغلق نوافذه مستسلماً للإجازة الصيفية. متخلياً عن رحلات الصباح والظهيرة التي لم يعد لها قيمة. بعد أن فرغت المدينة من جحافل الطالبات اللاتي قبعن في دورهن. أو رحلن للبوادي. وعكف يمضى وقته كيفما اتفق. متقبلاً القيام بورديات غالبية الأطباء. حتى بدت ظاهرة واضحة. كل من يريد أن يتخلي عن وظيفته لقضاء حاجة. لديه دكتور ونيس. سيتولى عمله بصدر رحب. ورغم هذا جهل حضور المؤتمر الشعبي الذي عقد بالمستشفى عندما عرض عليه مساعد رئيس التمريض الأخ عبد اللطيف الأمر بإغواء بوشك بالاحتلال الفوري لمكتب مدير المستشفى.

تراجع منهشاً. فالرجل موقن بأنه طبيب تخرج لتوه. سيضعف أمام الإغواء باحتلال منصب يحتاج الوصول إليه عشرات السنين

وأضاف: وليش لا الدكتور يترك المستشفى قبل نهاية العام.  
- ولو.. أكو فيه أطباء كتير أكفأ يديرون كيف هاذى  
المستشفى.

كلهم مازجرية.

- فيه الدكتور صالح بن سالم له خمسة وعشرين سنة خبرة.  
إذ بتدخل اللجان الثورية بتكون المدير.

كان لا يزال فى الأيام الأولى لعمله. نظر إلى المريض عاجزاً عن  
الفهم. كيف يمكن لمثله أن يقرر مصير مستشفى المدينة. قطع الرجل  
تفكيره وقال وهو يضغط بثقة على كتفه « كل السلطة للشعب..  
كل السلطة للجان» شنوبيك يا دكتور. كنت؟ تدخل معنا تصير مدير  
المستشفى حتى قبل أن يرحل المدير. توا أنا نترك فيك تفكر.

كان يريد أن يقول له لا حاجة للتفكير. لن يدخل لجاناً. سيهتم  
فقط بعمله. لكن رحيله جعله يشعر بالقلق وكان المريض يحمل  
له تهديداً. وأضاف عندما لح دهشته وهو يصرخ غير مصدق  
العرض الذى عرض عليه لتوه: معقولة! قال يعلمه بالسبب الذى  
من أجله استدعاه الدكتور البرغوثى وهو مضى مبتعداً: هو يريدك  
كى تستعد لاستقبال الوفد الألمانى.

قالت عائشة وهى تضع طعام العشاء بين زوجها النقيب  
مفتاح الشهبى وأخيها: تسافر غرب ومرة شرق هادا شيء بدوخ  
العقل. بيو يعطوك فلوس واجد.

ضحك زوجها وقال: الفلوس الحقيقية يحصلها رجل مثل  
عمر. ونيس موظف حكومة يحصل دينارات قليلة. عمر يحصل  
فى ملايين.

قالت متفعلّة: حق الله هذا خطأه. ليش دخل الطب. لو كان  
يصير مهندس كان صار له شركات كبيرة واجد.

تساءل ونيس لماذا يجب أن يكون للمرء شركات كبيرة؟ كى

بحصل على مال. إنه لا يريد فلوسيا. يكفي عمر وحميدة. الأول نصاب كبير. والثاني سيكون مهندساً كبيراً. أي أيضاً نصاب كبير. وضحك. قالت أخته تلومه. بي بي بي.. كيف تتحدث عن خونك هكي. عيب عليك.

نظر بينها وبين زوجها. ثم انفجر في حنق. عيب عليك أنت. تقوللي ليش ما أبيضير مهندس. أنا ما نحب الزلظ والرمل يصيروا خوتى. أنا نعمل في الحياة اللي أعطاها لينا الخالق. أحميها من أعدائها وهم كثير واجد. أنا نقاوم الموت اللي يصير في الجسد البشرى. توا تعاود نساافر ألمانيا نحصل في الدكتوراه بس في جراحة العقول بيسش نعالج العقول هادكاهى اللي ختاج جميل وتحسين وتطوير. أنا ونيس نصير أكبر جراح في الشرق. لما أن يصير عمر أكبر مفاول في الشرق.

ضحكت عائشة وقالت له وهي تدعوه لتناول العشاء: هيا كل.. والله ورسى في سسماه أنت اللي ختاج في جراحة تعدل في عقلك هذا اللي بيبي استبلية الجانين.

نظر إليها مصعوقاً: صار هكى..

- أيوه أنت هكى. تدخل زوج أخته يخفف من الجو المشحون: امتى نبى تسافر. نظر إليه وانفجر في الضحك وسأله إذا ما كان يريد التخلص منه.

شعر الرجل بالخرج وقال نبى اتخلص من العراك الدايريناتكو.

- ماشى يا سيدى. أنا ما نساافرهم يجن.

- وبين لما نساافر إذا نرغب أكلم الرائد عمر يعطيك شقة في استراحة الضباط.

- ليسش صدقت ألى تقوله عيشة. مين مجنون يدخل الجيش بنفسه.

فتح النقيب فمه وضحك غاضباً: والله اختك عندها حق.



- شكراً سيادة النقيب. كافي هكى أنا نروح أحسن ما تطردونى.  
فى العاشرة من صباح اليوم التالى نودى عليه فى الميكرفون. توجه  
لغرفة العمليات. طلب منه الدكتور رفعت أن يستعد للعمل معه فى  
عملية ولادة قيصرية. الآن سيساهم فى إخراج طفلة إلى الوجود.

كانت زوجة جراح هندى منع من التدخل الجراحى لحالة زوجته.  
فوقف فى الخارج والقلق يقتله. بينما ونيس يتابع الأنامل الماهرة  
للدكتور رفعت بيومى. وهى تجرى عملها بدقة متناهية وبلا نقطة  
دم زائدة. أو مليمتر أكثر ما يجب. هو أيضا كان سعيدا باستقبال  
الهنود العاملين بالمستشفى له استقبال الأبطال. والتحيات التى  
كانت تؤدى له تنم عن التقدير. على الباب الخارجى للمستشفى  
ردد لنفسه فى إصرار جراح ماهر هذا ما نبعيه بالضبط.

ترك السيارة وقرر أن يذهب لتناول طعام الغداء سيرا على  
الأقدام بقندق قرطبة. عبر باب شريحة مستقبلا النسائم الخفيفة  
تلسع وجهه. وعندما انتهى من تناول طعامه. أشار له الجرسون بأن  
أحداً يطلبه على تليفون الاستقبال. توقع حالة طوارئ بالمستشفى.  
لكنها أخته عائشة كانت على الطرف الثانى تسأله إن كان يستطيع  
اصطحاب زوجها معه فى طريقه للحامية الشرقية غدا. حاول أن  
يعرف إذا ما كان هناك خطب ما. لكنها قالت إنها لا تعرف على وجه  
اليقين لكن يبدو أنه عيناً لأمر للقاعدة العسكرية. شعر بالاستغراب  
الشديد وهاجمها قائلاً: أينش بيك يا عيشة زوجك لا يزال نقيباً. ترى  
أترقى ولا لا. بدأ أنها مضطربة وتوشك على البكاء. هداها فى محاولة  
للتخفيف عنها: يا ستى مبروك تواد مفتاح يحصل فى رتبة رائد مؤكد.  
قالت إنها ما تبيه لا رائد ولا شىء بَكَل هيا يا أختى بالله عليك تكون  
فى الفجر فدام الحوش ببيش يصير فى القاعدة قبل الفجر.

\* \* \* \*

فى طريق عودته للمستشفى سار الهوينى وسط الشوارع الخالية غير قادر على استيعاب القلق الكامن فى حديث أخته. وبينما الريح تعبت بالمدينة مشكلة لوحة تشكيلية من الانتعاش لمدينة تطل على البحر. لجها تبزغ فجأة من طريق جانبي. لتنعطف باتجاهه. أصيب كلاهما بصدمة. حتى إنه فكر فى العودة دون أن يعرف لماذا. لكنه سار مشلولاً صوبها مباشرة. عندما لجته ارجت وأطرفت للأرض. وعندما رفعت ناظرها كان يتطلع إليها وهو لا يزال متقدماً نحوها.

كانا وحيدين فى طريق ضيقة. عدا بعض الصبية. ودًا لو يختفيا من العالم. وهو يتلقى العيون السوداء مثل مراقب يتلمس أولى تجاربه الرومانسية. وكلاهما يبطن من خطواته. ونظراته تحمل للأحر كل المعانى والأسئلة: مثل أين كنت؟ انتظرتك طويلاً؟.. بحثت عنك فى كل مكان؟..

سالمين النى جفلت مثل طيبة تتشمم الريح ومن خلفه الخطر. أحنى رأسها. وخشى ونيس أن تتجاوزته فتذهب فرصة العمر. استعاد كل ما فكر فيه طويلاً أثناء وجوده فى العاصمة والحاضرة الشرقية فيما لو التقاها. أن يعرفها بنفسه. يقف قبالتها ويناديها.. يا أنسة أعرفك بنفسى.. ونيس بن الحاج مفتاح بوزوى طبيب جراح بالمستشفى العام. أود أن أتعرف عليك فهل تسمحين.

فتقول له اسمها وبأى صف تدرس وقد يتواعدا على لقاء ثان. أو لا يسعه الوقت ولا الناس. لكن كل هذا توقف فى حلقه. وخاف أن يذهب دونها كلمة. ثم يحل الندم وقرص الأنامل. استجمع شجاعته وأسعفته ذاكرته الهاربة. فألقى لها بكلمة تحمل كل المعانى التى يرغب أن ينقلها لها. همس قائلاً وهي تعبته مطرقة الرأس:

« يا عَلمى »

وجأوز كل منهما الآخر وسمعته ورفعت رأسها للسماء.  
وجدتها واسعة رحبية. وشعرت داخلها يبتهج بالحياة وودت لو  
تقفز. تجرى مثل طفلة حصلت مبتغاهما. سعادتها الخاصة التي  
انتظرتها طويلا. وأخذت تردد ما همس به إليها طويلا:

«يا عَلَم»

انثنى للخلف فلمح خيمة من الشعر الخالك السواد تعبر  
رديها. جن وانثنت إليه. لحنه ينظر إليها فتراجعت خجلي  
والابتسامة تغمر وجهها..

قصد البحر. ملأ عينيه من الشريط الضيق للشاطئ الرملي  
المرتكن على الجرف الصخري. وأمامه كانت الأمواج تنرى راسخة  
قوية. شعر بالانسجام الذي نتمناه جيناته البيولوجية مع تاريخه  
الطبيعي المائل أمامه. وبينهما ارتفع خلفه الجرف لحافة السماء.  
وأمامه امتد البحر لحد الأفق اللامتناهي. ركع على ركبتيه  
يسأله:

«يا بحر هل وجدت بغيتي».

\* \* \* \*



# الجزء الثانى



ننھاك ع الغنى يا عين  
نلقاك في سريبة عايلة

لم يكن النقيب مفتاح الشهيبي يتوقع أن الأيام القادمة ستغير مصيره إلى الأبد. فرغم كونه أحد الضباط الذين قادوا عملية طرد الملك والاستيلاء على السلطة بإيمان عروبي وقناعة مطلقة بالجمهورية. كانت مهمته التي استطاع إنجازها بنجاح تأمين قاعدة الشرق العسكرية التي تسيطر على شرق البلاد. والتي كانت مكرسة للجيش البريطاني فصارت إحدى علامات التاريخ العسكري البريطاني.

في تلك الأيام كان مستعداً للموت من أجل استقلال بلاده وطرد الاحتلال. أما اليوم فسيظل يتذكر أن سرعة السيارة البيان فيو الخفيفة التي يقودها شقيق زوجته. والتي تجاوزت أحياناً مؤشر المائتي كم/ساعة في ذلك الهزيع الأخير من ليلة صيفية. كانت أكثر رحمة لو انقلبت به إلى مزالق الموت وهاويات العدم من الجحيم الذي سيعيشه عندما قدر له العيش. ووجوه رفاقه العسكريين نخفت منها علامات الحياة. ورغم ذلك فالواقع لم يكن يكشف عن مقدار الرعب الذي حمله له كهديّة شيطان. أو نقمة ملاك. فالسيارة البيان فيو كانت تتحرك على الطريق مثل فراش وثير ناعم. وهما يتبادلان حديثاً لشخصين ليس على بالهما أن بالمستقبل موطناً لما يمكن أن يكدر صفوهما. فالشباب الذي لم يتعد عمره خمسة



وعشرين عاما. سعيد بحياته وبما حققه وبما يحمله مستقبلا من  
وعود خلافة في كل شيء: العمل، الدراسة، الحب، المال، الصبوة.. هو  
الآن عاشق رومانتيكي في بلاد البادية، معلق بين صحراء البوادي  
التي عاش شبابها في القديم على معاصرة الحمير، بينما بناتها  
ملفوفات في جرد الإخفاء ومعازل التنك، وبين مدن الحضر حيث  
تلاشت الحمير، وحلت محلها أحدث موديلات السيارات السبور..

توأ صار فيه تطور. توأ بركبن السيارات، ينزلن غادي مصر بيث  
ينكحن عاهرات القاهرة والإسكندرية.. أكو فرق!!؟ الله وحده يعلم..  
لكن نشهد الله أنا ونيس بوزوي عثرت بالأمس على الفتاة التي ساموت  
فيها عشقا، وانتحر وجدا بيث تكون شريكة حياتي.

الذقيب الذي لم يتعد عمره الثلاثين كان يرى الطريق الأسفلتية  
الواسعة التي تصل مدينة الأندلسيين بالقاعدة الشرقية. طريق  
يهد احتفائي يحف به صاعدا إلى المجد الذي يكلمه للمحطة  
الأخيرة منه ومن وسع.

أن يتولى قيادة قاعدة الشرق أكبر القواعد العسكرية شرق  
البلاد. وهو بعد نقيب، سيكون فارس الحدود الشرقية وأمير الولاية بلا  
منازع. ورغم ذلك كان شيء يراوده بأن ثمة خطأ لا يدرك كنهه.

الطريقة التي أسندت إليه قيادة القاعدة، حيث ينبغي أن يأتي  
التكليف من قيادة الجيش، وليس من قبل المخابرات العسكرية. الملف  
الضخم الذي حوى الأوامر السرية التي يتعين عليه اتباعها. على أن  
لا يفتحها أو ينفذ تعليماتها الحرفية إلا بعد استلامه قيادة القاعدة.  
ومنها أن يتسلم قيادة القاعدة قبل الفجر بعدها يشرع في تنفيذ  
ما جاء في لائحة الأوامر حرفيا. «حرفيا» هكذا جرى التشديد.  
وعندما تساءل عن طبيعة الأوامر، قال له ضباط المخابرات: القاعدة  
تحتاج للتحكم والانضباط. وأنت مشهور بهاداي أمور. نريد تطبيق  
الانضباط كيف أهنة.

قبل رحيله. انتحى به كبيرهم وهمس «رد بالك المصرين بيوا يديروا لبلادنا مشاكل. لحد نوا أنا ما نقول فيه شيء. لكن الحذر واجب».

لم يهتم بالأمر من هذه الزاوية. فمن هو الضابط الذى يعمل فى جيش البادية الذى يمكن أن يتوقع خطراً من الجيش المصرى. هنا خلق دائما فى سماء العلاقات بين الجانبين عبارة «نحن خوت». من يستطيع أن يتعاضى عن أو ينكر السبب الذى قامت من أجله ثورة البادية. أليست هزيمة المصرين فى 67. ووضعت كل إمكانيتها من أجل تحرير الأراضى المصرية المحتلة. وقد وضعت تسعارات ثورة يوليو «الوحدة والاشتراكية» على راية الثورة. «فنحن خوت» صحيح نوا أكو مشاكل لكن الله غالب شنو نسوى..

أما الحرب.. معقولة.. مسيح وجهه من القلق.. وقال يهدئ من توتره.. أنا بروحى خدمت فى لواء البادية اللى شارك فى الحرب 73 وأمنت نقل النفط اللى يحتاجه الجيش المصرى للحرب. شنو بيى المصرين منا.. فكر كثيرا ثم استقر رأيه على أن هناك خطوطاً حمراء لا يمكن تجاوزها.

الآن تطوى السيارة الطريق إلى الشرق على صوت فيروز المفعم بالحياة. قرر أن يهرب للنوم. وعندما أيقظه ونيس. كانا على بعد دقائق من الحامية. وكان الظلام لا يزال مخيماً والفجر لم يؤذن بعد. عدل من هندامه العسكرى وضبط وضع كابه العسكرى على رأسه. وعلى البوابة الخارجية بين السماح له بالدخول وتأدية التحية العسكرية. كان قد أودع رقيب فى السجن العسكرى. انتشر الخبر بقدوم القائد الجديد للقاعدة. وهناك فى مبنى القيادة وجد مندهشاً القائد ومجموعة الضباط فى انتظاره.

على صوت أذان الفجر. غادر ونيس البوابة الخارجية للقاعدة دون أن يدري أنه سيكون آخر من يفعل. ولو انتظر دقائق لصار حبيسا لزمنا لا يعلمه إلا الله. وبينما كان يتهادى عائداً إلى الطريق العام.

كان النقيب مفتاح الشهيبى يجلس على مكتب قائد المعسكر بعد أن جرى تسليم القيادة له. يقرأ التعليمات السرية.

بعد دقائق كان يصدر أوامره المشددة بمنع الدخول والخروج من القاعدة وإطلاق النار على كل من يخالف الأوامر. وبإرادة حديدية تمكن قائد الحامية الجديد من إلقاء القبض على رئيس أركانه وقادة الكتائب. ثم عقد اجتماعاً مع رؤساء أركان الكتائب. فعرض عليهم قراره إما الإحالة للتقاعد أو الدفاع عن الجمهورية. وفى نصف الساعة كان قد رفع حالة الطوارئ فى الحامية للدرجة القصوى.

\* \* \* \*

فى الوقت الذى جرى فيه استنفار القوات. أديرت محركات مدرعات اللواء التاسع ورفعت درجة استعداداتها القتالى للحالة ج. وتلقيمها بالخبرة الحية. طلب فى اجتماع مصغر من الخبايا العسكرية تقريرا عاجلاً عن موقف القاعدة الجوية. والموقف فى القاعدة البحرية. مع تقرير خاص لكل من قوات البحرية المصرية والروسية خلال ثلاثين دقيقة. على أن يتبع بموقف تفصيلى خلال ساعة زمن. متضمنا أى نشاطات مريبة للضباط المصريين. مع طلب عاجل للاجتماع مع قائد البحرية السوفيتية فى القاعدة.

ثم خرج يشرف بنفسه على تجهيز اللواء التاسع للمهمة التى أوكلت إليه «القيام بضربة استباقية لإجهاض الانقلاب العسكرى الذى يقوده أعضاء من مجلس قيادة الثورة..»

مع أشعة السحر الأولى. شوهدت مدرعات اللواء التاسع من طراز (ستالين-63) تنطلق من حامية الشرق باتجاه القاعدة الجوية. حيث قامت فور وصولها بإحكام الحصار حول القاعدة. وعندما اقتحم طابور من المدرعات أسوار القاعدة وبواباتها. كانت هناك طائرتان طراز سوخوى تقفان على ممرات الإقلاع. وقد أدارت

محركاتها النفاثة. على استعداد للإقلاع. قام النقيب الشهيسى بتوجيه الأوامر للفصيلة الثالثة باحتلال ممرات الإقلاع. ولوقت طويل تابع الجميع طيارون وضباط مدرعات. الصراع الجارى بين محاولة الفصيلة احتلال الممرات ومحاولة الطائرتين الطيران.

عندما تمكنتا من الطيران. صفق ضباط القوات الجوية لنجاح زملائهم فى الإفلات من قيام المدرعات بقطع الطريق عليهما. فى الممرات الجانبية كان هناك سرب كامل يستعد للإقلاع. أدار الشهيسى فوهة ماسورة دبابته ناحية الشرق حيث كان ينتصب برج المراقبة. كان ماهراً فى التصويب. القذيفة الأولى أطاحت باللاسلكى. القذيفة الثانية دمرت البرج. وجعلته يهوى على عروشه.

إحدى الطائرات التى تريض على الممر قامت بإطلاق صاروخ على أول دبابة احتلت المدرج. حولتها إلى كتلة من الفولاذ المحترق لكنها خسرت المدرج. كان هذا هو آخر ما فى جعبة المتمردين فقد أحاطت بهم الكتيبة الثانية التى تولت تأمين الممرات. بينما تولت الكتيبة الأولى والثالثة تطويق مبانى وتكنات القاعدة وميس ضباطها.

شلت فاعلية القوات الجوية المتمردة. وقبض على المتمردين. وأكدت تقارير المخابرات عدم وجود نشاط مشبوه للمصريين فى القاعدة البحرية. ورغم ذلك أصر النقيب على قيام القوات البحرية الروسية فى القاعدة. بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه.

خلال خمس وثلاثين دقيقة كانت إحدى مدمرات البحرية السوفيتية تحتل مدخل الميناء البحرى. بينما احتلت فرقاطة روسية أخرى عنق القاعدة البحرية. ومنع المندنيون من دخول المعسكرات. لقد أعلنت حالة الطوارئ القصوى.

فى البداية تكهن الأهالى بأن صراعاً نشب بين أمر اللواء المدرع وقادة القاعدة الجوية. وعندما جاء المساء سادت إشاعات قوية

بحدوث انقلاب عسكري بمساندة من القاعدة الجوية.

في منتصف الظهيرة وبعد أن أنهى عمليات تمهيط الثكنات العسكرية وميس ضباط القاعدة الجوية. أعلن استسلام الانقلابيين. دخل النقيب مكتب الرائد قائد القاعدة الجوية. نزع سلاحه وأزال رتبه العسكرية. وقام على اعتقاله ونقله تحت الحراسة المشددة إلى القاعدة البرية.

طوال شهرين لم تدع أية أخبار عن الانقلاب. ولإحكام البحث عن الهاربين. وعدم تمكينهم من الفرار منع الوطنيون من السفر إلى الخارج. واتخذت الإجراءات لتقليص القوة المتزايدة التي جعلت برجوازية قصيرة النشأة، تشيخ مبكرا. فصدت قرارات التأمين. وقبض على كبار التجار ومقاولي البناء. وجرى الحديث عن ضرورة تحويل الفئات غير المنتجة كتجار إلى فئات منتجة تعويضا لما قيل عنه «النقص الشديد في الأيدي العاملة». وعمم على جميع الشباب التطوع في أجهزة المقاومة الثورية. خوفا من المؤامرات الخارجية..

وفي احتفالات الثورة. خرجت المظاهرات تندد بالخونة والعملاء وحشدت الجماهير أشهراً متعاقبة بالشوارع. وفي أثناء الاحتفالات حدث انفجاران في ميناء العاصمة والحاضرة الشرقية جاهدتهما الصحف مشيرة إلى أنها مجرد قنابل من مخلفات الحرب العالمية الثانية.

\* \* \* \*

بعد أسابيع قليلة من محاولة الانقلاب الفاشلة قدم عشرات الضباط الذين تتراوح رتبهم بين ملازم أول ورائد للمحاكمة. وبعد مرافعات سريعة أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها بالإعدام على أكثر من عشرين ضابطاً أغلبهم برتبة ملازم أول ونقيب. وعلى البقية بالسجن المؤبد ومدد تتراوح بين خمسة عشر عاما وخمسة أعوام. ضابط وحيد حصل على البراءة وأودع مستشفى الأمراض العقلية.

فى قفص الاتهام سيّدعى قادة الانقلاب وأثار التعذيب بادية عليهم أنهم كانوا قلب الثورة التى أطاحت بالملك. وأنهم تولوا الأدوار الرئيسية للثورة: مسؤولية تأمين المواقع الحيوية فى البوادي والحضر. السيطرة على المطارات الحربية والدولية. تأمين قطعات وألوية الجيش الموالية للملك. تأمين القواعد العسكرية الأجنبية ومحطات الإذاعة ومنشآت الدولة. لهذا لا يمكن اتهامهم بالخيانة.

سيرعمون أن حركتهم خرجت لمواجهة الطغيان والانفراد بالحكم. ومن أجل وقف تبذير ثروات البلاد، ومواجهة واقع الفساد الذى نخر البلاد فى سنوات قليلة. وأنهم على وجه الخصوص متمسكون بمشروع الدستور الذى تخلى عنه الحكم الحالى.

فى أيام قليلة أغلق الملف.

فى صباح أحد الأيام الباردة من شتاء قارس. قام النقيب مفتاح الشهيبى الذى تمكن بفاعلية من إجهاض محاولة الانقلاب الذى قام بها رفاق الأمس وخصوم اليوم. وداخله فناعة بأنه دائما ما يأتى وقت تأكل فيه الثورات أبناءها. وأن الثورة التى شارك فى مجاحها قد انتهت منذ الآن وأن عليه أن يتحول لضابط محترف إذا أراد البقاء والخروج سالما من جحيم العواصف والأعاصير التى تعصف بالرومانسيين والحاليين.. هكذا أكلت المفصلة زهرة مفكرى الثورة الفرنسية من اليعاقبة والجبل. لافايت. دانتون. رويسبير. سان جوست. وقتل البلاشفة تروتسكى وعشرات آخرين من قادة الثورة الروسية. ومن الذى سيضارع سادة الشهداء سيدنا علي رضى الله عنه وأبناءه الحسن والحسين والذين تخلقوا حولهم.. فإذا كان معاوية منتصرا فى أى زمن وأى مكان لا محالة. فالتقىة خير موقف يعقب التغيرات التاريخية الكبرى.

وبناء على الأوامر الصادرة إليه وقف النقيب فى أرض طابور القاعدة الشرقية الذى ضم جنود وضباط فروع القوات البرية

والبحرية والجوية بالمنطقة الشرفية. الذين فوجئوا بالمشهد الجارى أمامهم. وهو لا يدرك ما يتعين عليه فعله بالضبط.

فعلى ساحة جمع الجنود التى شيدها مهندسو الأشغال العسكرية والذين كان أغلبهم من المصريين. من مسطحات هائلة من الخرسانات المسلحة فى كافة معسكرات الجيش كى تصبح هدبة فاسدة للمقاولين القائمين على تنفيذ معسكرات الثورة. وعلى مشهد من الجميع. ركع طايور من الضباط الشبان على ركبهم. معصوبي الأعين. بينما المدعى العسكرى يقوم بتلاوة قرار الاتهام بالخيانة العظمى. والتأمر على الشعب والثورة. أعقب تلاوة الحكم القاضى بالإعدام رميا بالرصاص.

لم تكن هناك فصيحة للإعدام. فالنقيب الذى قاد عملية القضاء على التمرد المعادى للثورة. لم يكن مؤهلا لتنفيذ أحكام بالإعدام على هذه الوجوه الشبابية التى تشعر لوهلة أنها لا تستحق الموت. هذه الوجوه المجهولة لخيرة ضباط القوات الجوية والبرية.

وعندما قام بإطلاق الرصاص من مسدسه طراز برتا المحشوبطلقات عيار 9 م على رؤوسهم واحدا بعد الآخر. كانت مأسورة مسدسه اللتصقة بمؤخرة الرأس ترتعش قبل أن تنطلق الرصاصة التى كانت فى كل مرة تخرق عظمة الجمجمة ليقفز الدم كالنافورة. يسقط الضابط الشاب على مقدمة وجهه. ثم يتلوه آخر.

فى الطلقة الرابعة كانت الدموع تغيم على مآقى عينيه. ثم شرع بيكى. فى الطلقة الثامنة شعر النقيب بأن مفتاح الشهيبيى الذى يعرفه يموت معهم واحدا خلف الآخر. يموتون مرة بينما يموت هو مرة بعد مرة.. لقد تركه ورجل وها هو يشاغله. ولما أدرك أن ملاكا للموت حل داخله قرر أن يتخلص من كل شيء بما فيهم ظله. جفف النقيب دموعه وفى تصرف غير مسدرك. أفرغ خزانة مسدسه فى ظله. وهو يدمدم ساخطا: لنرحل سووية إلى جهنم.

بعد سنوات من هذا النهار الدامى سبترسخ لديه يقين. بأنه كان لهؤلاء الضباط الحق فى الحياة. وأن خلاف التصورات والصراع حول الرؤى كان يمكن أن يجد وسائل سلمية أخرى لحلها. وما كان يجرى ما جرى لو أن الثورة أقرت الدستور والحقوق المقدسة للاختلاف وتداول السلطة. فلماذا وُرط فى تنفيذ الأحكام بواسطة كف يده. لماذا لم يستخدم فصيلة إعدام.

سؤال سيقلب حياته رأساً على عقب. ولئن يجد فى قاموسه العقائدى أو الدينى المبررات الكافية التى يستعين بها ثوار المراحل التاريخية الكبرى عندما يكون التخلص من أعداء الثورة ضرورة لا مناص منها.

وعندما ستتحوّل عملية الإعدام تلك من يقين إلى وحش يطارده. سيسيتيقظ من جسده ذات يوم فى ذات الوقت من صباح أحد أيام الشتاء القارس شخص مكتئب يعنف نفسه على جريمة ارتكبها تحت السلاح تلبية لأوامر القيادة العليا. ودون بحث عن مبررات سيطلق على رأسه الرصاص. انتقاماً بما فعله. عل الله يغفر له خطأ لا يغتفر. فقط لو كان مطلعاً على القانون العسكرى. لشكل فصيلة إعدام.

\* \* \* \*

فى عائلة عمر بوزوى الذى كان إبان الانقلاب بالخارج. ساد التوتر الشديد. وقبل أن يشاع أن اسمه من بين المطلوب القبض عليهم. قام النقيب الشهيبى بتحذير مبطن لزوجته.

فى اليوم التالى اعتذر ونيس عن عمله مع الوفد الألمانى وسافر على عجل إلى حاضرة الشرق. فوجئت به العائلة بندفع من الباب مضطرباً. أخبرهم أن عدداً من كبار المقاولين وأصحاب الأموال أودعوا السجن. وعدد بعضاً من الأسماء الشهيرة. وأضاف أنهم



ينوون القبض على عمر.. ساد الهلع بين الجميع. امرأة أبيه تسأله  
منزعجة: لشنو؟

- يقولون لهم ضلع فى الانقلاب. قال الأب منزعجا: هاذى كذبة.  
حتى هادول أصدقاء عمر. قال ونيس بضجر باتى بقولوا الخبايرت  
سجلت سههرات بلندن أحاديث يسبون النظام. حتى القائد اللواء  
يهزروا عليه..

شنو بيوا من خوك؟

- ما فى واحد يعرف شيننا. ونادى على ثريا يخبرها أن الخوش  
مرافق. وأنهم سيفتنشون الفيلا فى الفجر. فهل هناك ما تخاف  
عليه؟ أجابت بفرع إنها لا تدرى شيننا. قال برزانة: لا تخافى هيا بنا  
لأعلى. نادى إخوته. وصعدت المرأتان خلفهم.

لاحظ مكتب عمر المزدهم بالمخططات والرسومات التنفيذية  
والمواقع العامة لعسكرات الجيش التى يعمل بها. فكر أن وجودها  
بالمكتب غير مستحسن. جمعها ولم يترك شيننا. ملئت الشنطة  
الخلفية لعربة حميدة. ومن الباب الأمامى طلب ونيس من أخوه أن  
يغادر الفيلا المراقبة بهدوء واسترخاء. وألا يندفع بالسيارة كالمجنون  
كعادته كى لا يثير اهتمامهم. ويذهب بالرسومات إلى المؤسسة  
ويعطيها للمهدى جمعة.

عندما غاب حميدة فى منعطف الطريق. صعد ونيس إلى الطابق  
العلى. حيث انتحى بثريا وطلب منها أن يفرغ المكتب والخزنة من  
جميع الأوراق والمستندات المالية. جمعا سويا أوراق معاملاته الخاصة  
فى بنوك لندن وروما. ثم عكف على ترتيب مراسلاته وعقوده الخاصة  
بشركات أوروبية عديدة. فلما انتهى همس: توا الذهب والكميات  
الضخمة من النقود.. حتما ستصادر..

قالت بجزع: وين نخبي فيهم؟

- باتك.

فقاطعته بانفعال. لا.. وعندما سألتها السبب. ترددت ولم تستطع الإجابة. فهم أسبابها. قال مشجعا: بتلاقى مكان معقول..

وهم يجمعونه فى حقيقة يد سألته: كيف عرفت بقدمهم؟  
قال صديق بالخبرات حذره.

الخبرات!.. نسي حكي لعمري.. يمكن يجي..  
خطر وأجد لكن كيف نحذره.. التليفونات مراقبة.. لازم يعرف بالتأكد. نبي ينتظر بالخارج لحين تهدأ الأمور وتتضح..

جمعت الأموال والذهب والحلى وأودعت لدى خال الأسرة. وظيلة الليل أطفئت الأنوار. والجميع غير قادر على النوم مترقبا المصيبة التى ستأتى مع الفجر. وبينما كان القلق يكاد يقتل ثريا. أصر ونيس على أن يبيت حميدة خارج الفيلا خوفا من أن يؤدى ظهوره إلى شهوة الأمن فى القبض عليه.

فى الثالثة صباحا هوجمت الفيلا بنلة من الجنود يقودهم ملازم أول. قلب المكان رأسا على عقب والنسوة تتابعهم من فرجات الأبواب.. دفع ونيس أخته صديقة للدخول بعد أن قامت بالتحرش بهم. ثم صحبهم إلى الطابق العلوى. حيث فتشوه غرفة غرفة. فلم يجدوا سوى ثلاثة آلاف من الدينارات. تركت عن عمد. وبعد أن عادوا إلى أسفل قدمت لهم صينية الشاي. تناوله النقيب هازئا. وبته عمر؟

باليونان.

باهى.. خبره يجي وإلا سنعرف كيف جده.

أجاب ونيس بتحد: باهى.. هذا أمر يخصه هو..

تدخلت أم عمر: يا بنى والله عمر مريض بالكبد.. توا هو يتعالج ويدير فى عملية..

- باهى يا حنا. بلغيه الرسالة هاذي.. لما أن يجي هذا فى

مصلحته. ودليل على حسن نيته..

- بنقول له يا ولدى توال نشوف كيف؟

عندما غادر رجال الأمن المكان، حل الارتياح على الجميع. قال ونيس: توال الأمور صارت على ما برام.. هيا ننام.

منذ تلك الليلة سلمت نساء الأسرة قيادها إلى ونيس. وساد شعور بالاطمئنان في وجوده وغياب عمر المجهول. وكشفت المرأتان رأسيهما تدعوان له بالسلامة وطول العمر. في صباح اليوم التالي قام ونيس بمعونة المهدي عمران مدير الشركة بإرسال رسالة سرية مع أحد المصريين إلى عمر في اليونان. حيث أبلغ بما جرى وما ينتظره لو عاد. وطلبوا منه التريث وعدم المجيء الآن. وبعد شهرين أعيد الذهب والنقود. وخبيء في مكان سرى بالفيلا خوفا من مدهامة أخرى للأمن. عندما اطمئنوا على عمر، قرر ونيس أن يزبل التوتر السائد في العائلة. فدعاهم للسسينما، ورغم أن أمه وزوجة أبيه رفضتا إلا أنه أصر على ذهابهم جميعا. فكان يوما عجيبا. وخف القلق. وعادت ضحكته تملأ وجهه وتوسيع الطمأنينة بين الجميع. وبينما الإشاعات تتحدث عن وجود عمر بوزوى في السجن. كان هو يجوب أوروبا حرا طليقا..

\* \* \* \*

عندما علم عمر بأنه ضمن لائحة المطلوب القبض عليهم. انتقل من اليونان إلى لندن حتى تنجلي الأمور عن وجهها الحقيقي. مؤكدا إشاعة مرضه بالكبد. وأنه في انتظار إجراء عملية جراحية. اعتزم أمرا فكر فيه كثيرا من قبل. فرحل إلى القاهرة حيث نزل ضيفا على أحد أعضاء مجلس الشعب من الإقطاعيين السابقين. وطوال أسبوعين دعى إلى سهرات المجتمع المصري. أثرياء ورجال أعمال جدد وأصحاب توكيلات أجنبية. سياسيون ونواب مجلس الشعب. وضباط كبار ووزراء وفنانات مشهورات بالسيناتما والتليفزيون من الدرجة الأولى والثانية. رجال عمليون لعصر جديد. يسعون بضراوة لجمع المليون الأولى بوسائل غير مشروعة يقينا. بعد أن انقضى عصر التصنيع والتنمية والعدالة الاجتماعية والتعليم المجاني. ونساء متبرجات عاربات الظهر. كشفن عن نحورهن. وسبحن في الأضواء الباهرة والثراء السريع.. وفي قصره الريفي دعى دعوة خاصة من قبل محمود بك مع نخبة من رجال الأعمال والشخصيات المصرية حتى يتمكنوا من مناقشة أمور شتى بعيدا عن العاصمة وضجيجها. حيث كان العمل جاريا على قدم وساق. للاتهاء من تجديد القصر الذي كان ملكا لأبيه راغب باشا واستعادته بحكم من القضاء من هيئة الإصلاح الزراعي التي استولت عليه بحكم قوانين ثورة يوليو.

أحاديث عامة عن السياسة ومناقشات تفصيلية لختلف المشاريع الممكنة: توكيلات أجنبية فى نطاق الصناعات الغذائية والسيارات والسياحة العالمية والعربية. فنادق عالمية، ومكانب استيراد وعقارات وشركات سياحية مختلطة.. عالم واسع من الأعمال. نوقش فيه العقود والحقوق من الواجهة القانونية وحجم الأرباح والنسب المخصصة للمصروفات الجانبية، وكفالة خروج الأرباح بكاملها. وإمكانية عدم الوقوع تحت طائلة الضرائب. وكيفية سحب رأس المال إذا اقتضت الضرورة، أو أثرت القلاقل. كان يبحث كل شيء بوضوح ومباشرة، وفى قاعة الاستقبال تحدث اقتصادى كبير يعمل فى مجلة الأهرام الإقتصادى فى محاضرة صغيرة أن الحكومة المصرية تفتح الباب على مصراعيه لرأس المال العربى - لهذا ودافعه - وهى تؤمن له كافة الضمانات اللازمة. فهم ينظرون إلى الأمور بشكل عميق ومختلف عما مضى. فنحن لا نستطيع أن نتخلى عن دورنا الحضارى بالمنطقة. لبنان مثل واضح. نحن نريد أن نغلق بيروت. ولكننا نبحث عن شيء أعمق. نريد مركزا صناعيا وزراعيا لمنطقة الشرق الأوسط التى تعاني من فراغ سياسى. نريد بؤرة إشعاعية ولنا أسبابنا: الأيدى العاملة الرخيصة. الإمكانيات التقنية والفنية والبشرية، الثروات الطبيعية. ألسنا محقين؟. تعوزنا رؤوس الأموال. وفى المقابل نحن ملزمون بتقديم كافة الضمانات التى تكفل للمستثمر الأمان. فلا تخشوا شيئا..

صمت بوزوى وهو يتفرس فى وجوه الجالسين. حتى تأكد من أن الاقتصادى القدير أنهى حديثه. فابتسم قائلا: اعذرونى إذا قلت أن هذا كلام جميل يفيد استهلاك الجرائد. أنتسم المصرين مجاملون أكثر من اللازم وهذا عيبكم. تحدثوننى عن أدق الأشياء ببعض الألفاظ الرنانة. الجمل الأكاديمية التى تفيد طالبا جامعيا. هذا يجعلنى أخاف. أنا مقتنع بالبواعث التى تدعونى كى أضع أموالى هنا. وهو ما يمكن أن يوفر كثيرا من هذه الأحاديث. ولكن وجهى لا

يحمّر خجلا عندما أأخذت عما يتطلبه مشروعى من رشوة. عن الشخصية القوية التى ستوفر لى الحماية ضد كل شيء بما فى ذلك القدر مقابل نسبة معلومة %20 ؟ %30؟ أو حتى مناصفة. كيف ما يعطينى كيف ما ياخذ. هنا أصير بالنسور. هذا يجعلنى أطمئن. صدقونى إن هذا أكثر شرفا فى سوق المال عما عداه..

بان الانفراج على الأسرار مدمجاً بالإعجاب والتأيد. تحدثوا وتداولوا الأمور كثيرا. وانفض الاجتماع دون الوصول إلى نتائج حاسمة. بعد الغداء خزج هو ومجموعة من الضيوف بصحبة مضيفهم محمود بك إلى حدائق القصر الخارجية ومنها إلى الحقول وبساتين الفاكهة المحيطة به. خلقوا فى جماعات صغيرة. وانزوى رجل يساعد امرأة على إطلاق نيران بندقية صيد. وتعالى ضحكات نساء ورجال موقفوري الصحة. وشعر بوزوى بالحبور. كانت تلك هى المرة الأولى التى يشاهد فيها الريف المصرى..

القصر الشامخ، السقوف الدائرية المزينة بالزخارف تندلى منها التريبات المتلألئة. الشرفات المبنية على شكل عمود وقد ارتفعت عليها النباتات المتسلقة. حظائر الخيل. المساحات الواسعة من الحشائش الخضراء التى أحسن تزيينها. تتخللها الطرقات خيط بها الأنشجار العالية. تبرز من خلفها البساط السندسى للحقول المترامية الأطراف. الشخيل والأشجار الباسقة. قنوات المياه التى تشق الحقول. تكللها عند الأفق القرى الطينية والمآذن العالية وقوافل الدواب والمناشبية يقودها صبية صفار ونساء يعتمرن الشماغ. وفلاحون يكدون عرقا وسط الحقول وقد كشفوا عن أجسادهم المرسومة بالعروق النافرة..

اقترب منه محمود بك يسأله: هل أعجبك ريفنا؟ هز رأسه بالموافقة.

- عمرها الفراعنة. ودمرها عبد الناصر. وعلينا أن نعيد بناء كل

شيء ثانية.. ومضت عيناه بالبريق واستطرد قائلاً: لقد أنتهى توزيع الأراضي بقوانين الإصلاح إلى كارثة. فسدت الأرض بين أيديهم. حشاشون أو تأكلهم البلهارسيا. سأزيل هذه الدور الطينية فهى تقطع الكثير من الأراضي الخصبة. وأبنى دوراً حديثة لن تزيد على عشر المساحة، أما هذا العدد من الفلاحين فسوف أستبدل بقؤوسهم الماكينات الزراعية الحديثة. سأقيم مزرعة حديثة للخيل. لدينا مشاكل وسوف نحلها..

- وشنو تدير فيهم.

يروحو أى مكان.. القاهرة الواحات.. الوادى الجديد.

- بلكى تشحنوا فيهم لينا..

- اكبش وخذ اللى بكفيك..

\* \* \* \*

فى اليوم التالى وصلته بطاقة دعوة من إحدى سيدات المجتمع لحضور سهرة خاصة. استقبلته وزوجها اللواء بالجيش المحال إلى التقاعد لتوه بانتظار منصب حساس. امرأة فى الأربعين من العمر. بسم جمالها الارستقراطية عن أسرة عريقة. ابنة لأحد الباشوات السابقين. جسد مشوق وعيون يشع منها الذكاء. كان المقربون منها يدعونها باللواء. واستقبله زوجها الهرقلى الجثة بترحاب. وقدمه إلى بعض المعارف. بعد أن انتهوا من تناول العشاء. دعته مدام حسين إلى الصالة الكبرى حيث أعلنت أنه احتفاء بالسيد عمر بوزوى فسوف تغنى الفنانة المصرية ليلى صالح أغنيتين لبيتين للمغنى الليبي محمد صدقى. وضحكت بفتنة. والمدعوون يتسابقون لتحينه..

ليس من الحقيقة عدم الإشارة إلى مدى طربه من أن يغنى خصيصاً له. أو المدى الذى أثارته المرأة جنسياً حتى أنه اعتبر أنه سيقضى وطره من القحبة هذه قبل بزوغ الصباح. حتى ولو كان النائم شخيراً هو هذا الذى يتيه فخراً. لكن الشعور الذى سيلزمه

هو حجم الدهشة التي ستلازمه وهو يرى كيف أنه شق المجتمع القاهري كسكين يسير في قطعة من الجبس الناعم. لقد ترسخ لديه يقين بأن القاهرة على عكس ما كان يظنها. وهو بعد مراهق بالقبة قلعة العروبة الحصينة. جبل من البازلت الصلد للمجتمع العربي. هي الآن متمرسة. تفتح فخذيها بسهولة أمام المال والرشوة بسهولة أكثر من بوابة على بابا «افتح يا سمسم»

قطعت أفكاره وتقدمت منه فائلة. اسمح لي السيد بوزوى. قام يتبعها إلى الروف الخارجى حيث انفرد كل منهما بالآخر. وهو ينظر حركة الردفين اللذين يتناوبان في نعومة اهتزاز رقيق. فكر كيف جرى الخيول على أعنتها في القاهرة. مو كيف بلادنا.

أزعجناك.. فهل أثرنا دهشتك؟

كثيرا

- معقول.. عجبتك الأعانى.

- بكل

- هه

- لا

- مش الغناء لبيبي؟

نعم. لكنى ما نحب محمد صدقى هذا.

ندت عنها صيحة غضب: لقد خدعت. قالوا لى إنه مطريكم المفضل.

- مطرينا هذا من عمر صالح عبد الحى. لكن والله أسعدنا

سماع الغنا الليبى.

تركته فى ركن العشرفة المظل على الحديقة. وعادت وخلفها خادم يحمل كأسين من النبيذ. أخرجت عليه سجائر فضية. فقدم لها قداحته واعتصم بالصمت. يتابع زوجها وهو منحن عليها يهمس فى أذنها بعدة كلمات.. هزت رأسها باهتمام. قبل أن يستدير راحلا قال له مبتسما: فتح عينيك فهى ضليعة. نظرت إلى زوجها



باستهجان. وقالت لعمر بصوت عال تسمع زوجها: رغم فارق السن نحن متفقان. ولا تشوب حياتنا شائبة. هز رأسه موافقا. ضحكت وقالت: انت عايز تعرف لماذا دعوتك؟ ألسنت متسرعا. نفي أن يكون كذلك. وقال إنه يحب الوضوح.

سوت من ثوبها وهي تهز رأسها دلالة الافتناع: الوضوح أنا كمان أحب الوضوح.. لقد أعجبت بك.. مرغت بأنوفهم التراب.. كلت لهم بما فيه الكفاية.. بدأ على وجهها نظرات الاحتقار.. البلهاء يتحدثون عن مصر بعفة. وكل منهم يود أن يلتهم نصيبه منها مثل كلب جائع..

كيف عرفت؟

أجابت بنظرة باردة لى أعوانى.

رمش بعينه وحك مؤخرة أذنه بظفره. استطردت: سيد عمر.. معك ثروة قمت على جمعها بيدك، ثروة لم ترثها. وكى لا تفقدها قمت بمشقة على تهريبها للخارج. والآن لا تريد أن تبقى هذه الثروة رهينة البنوك. ولا أن تتسرب قطرة منها فى الرمال.. أليس كذلك؟

أجاب بسخرية اشتمتها: هو كذلك

هزت رأسها ووقفت وانثنى رأسها للخلف وهي تمسح خصلات شعرها بكبرياء. بينما أبقت نظراتها مصوبة نحوه بنشاز. قالت وهي تضغط على مخارج الألفاظ. وتدور بيدها فى الفضاء. فى حين راحت عينها تتسع وتضيق مع الكلمات.

- سأعطيك ما تريد.. ما يدر عليك أرباحا طائلة.. قاع المجتمع وذروته.. ما يهمس به السياسسيون فى مخادع العاهرات.. سأعطيك الطريق إلى رجال مرموقين ونواب البرلمان. دفاتر شيكات أمراء الخليج.. وشيوخ عرب ونساء يملكن رجالا على قدر من الأهمية. سأعطيك أشد المناطق حساسية فى جسد القاهرة..

تراجع بجببسه إلى الخلف وقد عقد ما بين ساقيه بهزهما هزا خفياً. وعندما فهم توريتها. شعر بإنسانه ينتصب. وقد أوشك أن يجد بعينه.

### المقابل؟

قالت وهي تستعيد مظهرها الأنثوي. وتنحنى تقدم له كأساً من النبيذ فيبدو له جلياً نهر نهديها: هذا نبيذ فرنسي. أعلم أنكم لا يؤثر فيكم سوى الويسكي.. قالت بغتة: لا تجعل علاقتنا على هذا القدر من التدنى.. ألسنا أصدقاء؟؟

- أعذرنى.. لست أفهم التوريات. استعادت صوتها البارد: لا تسب لي نقاد الصبر.. كم عمرك؟  
- ثمانية وعشرون عاماً.

بدت على وجهها دهشة ناعمة. والتمعت عيناها بالنور الغامض. وهمست وهي تغير من شخصيتها تماماً فتصبح مثل فتاة في العشرين.

- يا إلهي جلست ترتكن بجذعها على المقعد.. قالت وهي خدق في عيونه مباشرة: أنت وسيم للغاية. لو كنت مصرياً لصنعت منك رئيساً للجمهورية.. لشد ما تشبهه في صلاته:  
- كيف أشبهه؟ أنا نملك ما يجعلني أتطلع للمستقبل. هزت رأسها متفهمة وعقبت: موقف سياسي.  
أنا ندين لثروتى بالدفاع عنها.

شعت عيناها بالومض. ضمت ساقها واحدة فوق الأخرى. وارتكنت برفقها على مسند الكرسي. تازكة باطن فخذيها مكشوفاً للشهوة.

- سأحقق لك ما تريد لقد كنت أشعر وهم ينقلون لي حديثك. أنك تود أن تقول أريد شيئاً محددًا. وما كانوا ليفهموك. ولكنك أخطأت عندما عبرت بوضوح عن أفكارك. هم جشعون.

سوف يحاولون امتصاص عظامك. بعد أن يأثوا على اللحم.

- ما انى سهل.

رددت: لست صيدا سهلا هذا يسعدنى.. واستطردت: يسعدنى  
أن يكون صيدى ليس سهلا..

- المقابل.

أنتأحت بيدها فى رفة: خدمات.. نسبة فى الأرباح.. لقاء الإدارة وحل  
جميع المشاكل المتعلقة بالروتين المصرى. خطبة ود كبار المسئولين.  
كبار ضباط الشرطة.. الخبايا.. وعلى أى حسال نحن نريد صداقتك..  
صداقة عميقة. مدت يدها تسأله: توافقتى.. ضع يدك فى يدي.

أخذته عائدة إلى وسط المدعوين.. وكانوا قد جمعوا حول حلبة  
الرقص. قدمته إلى المطربة التى غنت له يراقصها.

\* \* \* \*

بعد ثلاثة أيام رن التليفون وهو ما زال فى فراشه. كانت على  
السماعة الأخرى تسأله: هل تحب المغامرة؟

- من كل يد.

- لديك ميعاد مع شخصية فى وزارة الأوقاف فى العاشرة من  
صباح الغد.. احذر وكن عمليا فسوف يغادر مكتبه فى خلال شهرين..

وكان لقاء وديا حضره زوجها. وجرى الاتفاق على شراء أراضى  
خلاء بسعر جنيه للمتر وكانت تفوق العشرين. بعد توقيع العقد  
مباشرة أهداها سيارة سيور وشيكا بخمسة آلاف جنيه. عمولة  
لن وقع معه العقد.

استقبلته سعيدة به. قالت له: لم تريح شيئا.

- أبرهن لك على صداقتى.

أنت جيد الأعمال.. لنبدأ بها إذن.

فى خلال ثلاثة أسابيع جرى البحث بينهما على شراء وتجديد

واحد من ملاهى شارع الهرم. ووضعت الخطوط العريضة لبناء أكبر وأحدث ملهى ليلى به. واختيرت لإدارته تلك المطربة التي غنت فى حفل استقباله.

\* \* \* \*

عاد ونيس إلى عمله. ثم عاد بعد أسبوع. لم يجد زوجة أخيه. قالوا له إن أباهما حضر وأصر على رحيلها معه حين عودة عمر من الخارج. استاء وقال: ما كان يجب أن تغادر الفيلا. توأ عمر بغضب.

كان هذا رأى أبيه والمراأتين أيضا. قالت زوجة أبيه: نشهد الله أن ثريا ما كانت تبي تزوج مع بوها. لكنه أصر.. والله أنا بوك يكلم فى الحاج رمضان بيش ما تيجي.

فى المساء رن التليفون. رفع السماعه. كانت ثريا. عندما وجدته. هتفت فى صدق: ونيس

- منو ثريا ! كيف حالك

- قطران.. إمتى وصلت؟

- اليوم بالصبح..

- ليش ما جيت؟

فكرت ننتظر للغد.. تبي ترجعي معاى؟

كيف ما تبي.

- باهى بكرة جى وترجى معاى الحوش.

- باهى يا ونيس.

هتفت به امرأة أبيه تبي التليفون.. ظلت تحدث زوجة ابنها عشر دقائق. فلما انتهت. صاحت به صباح تيبك.

جاءه صوت الطفلة الرقيق: ألو.. ألو.. ونيس. وينك..

كيف حالك يا صباح.. أنا بالحوش.

- توأ جينى.. تعال يا ونيس أنا نريد حوش باتى.. نريد حوش باتى.

بكت الصغيرة وتساعد بكأؤها. أخذت ثريا السماعه.

فى اليوم التالى استقبلته خيرة بتهكم: ما بجى بك لبنا غير  
ثربا.. تفضل.. يستنوا فىك من الفجر.

اندفعت صباح فى أحضانها جذلة، حملها على كتفها. ولم  
تتركه إلا داخل السيارة.. أما ثربا فقد استقبلته بترحاب صامت.

بالطريق عرج على متجر للحلويات، اشترى لصباح. فتناولته  
سعيدة، وهلة واتسخت ثيابها. فضربتها أمها.

من شارع جمال عبد الناصر عبر بسيارته الطريق الرئيسى  
نحو سلسلة البحيرات. حيث تناثرت السيارات بعيدا عن المصايح  
المضاعة تبتعد عن عيون الآخرين، على سورها الحجرى جلست  
مجموعات من العائلات الصغيرة رجالاً ونساءً فى سنن الشباب  
يفقر حولهم أطفالهم الصغار يبغون الترويح. عائلات مصرية  
وسورية وفلسطينية تعودت قضاء مطلع الليالى الحارة على  
شاطئ البحيرة. قال لها: نقف هنا.

أومات برأسها، وفى إحدى المناطق التى يشح فيها الضوء، أوقف  
سيارته، وأطفأ أنوارها، فتح بابها فانطلقت الطفلة إلى الخارج.

ران الصمت، ورغم هدوئها الشديد كان يشعر بها مرهقة  
الأعصاب، تساءل إن كانت تشعر بالقلق على زوجها. لم يجد  
إجابة. كانت تسرح بناظرها إلى مياه البحيرة الساكنة، تتلألأ على  
صفحتها أضواء المصايح. من مبعده لاحت عمارات شارع جمال  
عبد الناصر تتناثر من نوافذها الأضواء، وقد خيم الظلام على الجهة  
الأخرى من البحيرة، وأنبعثت نسائم الخريف تداعب سطح المياه.  
تساءلت فى نفسها وهى تشعر بأنها ولأول مرة تراقب المدينة عن  
بعد.. هذا مكان يؤمه أشخاص تبدو على ملامحهم السعادة.. أين  
أنا منهم؟

لوهلة فهم بؤسها، فجزع. كان صدره يفيض بالشفقة على

تعلمت فضيلة أن يذهبوا جميعها إلى سسينما حفلات الأطفال في صباح الجمعة، أو الخروج مع العجائز إلى شاطئ البحرية، مصطحبة ابتها معها، حيث وجدوا في المكان متنفسا من الكوث طيلة اليوم في الروعة أو داخل الفيلا أو تقوم في الأيام التي لا تخرج فيها العجائز أو يتشغلن بزيارة أحد ما. بتجهيز صباح في ملابس الخروج، لتخرج مع عمها بتجولان في سوق المدينة وأحيانها التجارية، أو بضمين أوقاتهما على شاطئ البحرية إلا أنها بعد أن رحل عائد عمله احتلت مكانه وأصبحت مدمنة الجلوس ليلا وبعد أن ينام الجميع على حمام السباحة، تتهنى لو تتمكن يوما من تزوله والسباحة فيه في ملابس البحر الساخنة.

\* \* \*

ما كان واضحا أن صدرها يتسحق بينة هوة سحيقة لا ترى من الحياة جيدة، لو صرخت في الفضاء تنفس هوة وحيدة في عالم من أنياب تقطر نساب الوحيد الذي لكرهه.. هذا هو

النه.

الأمامسى، دون أن تلمحسه، بدأ له غير تلك التي تخيم فوق منازلنا.. تستشرف روحها، تكسر تلك استوطن داخلها.. زجرت الطفلة تبرى، لكن صباح لم نبال، اندفعت هوة والعصية، اندمست لها ونيس، التي انهالت على وجه الطفلة فخذها بين ذراعيه وقد أرق وجهها حتى استطاع بعد جهد جهيد في حادة طويلة، وسط شبهقات

كل يفكر في داخله، قرأ بنفض بالربيع لو فعل، أمام الفيلا سارعت فها لا يعرف حائرا.

الحديث، عند ظهورها بالهوا كان، ومع الوقت بدأ أنه قد وجد ضالته

عاد ونيس دون أن يتضح موقف عمر بعد، وكانت حالة ثريا تندهور بشكل متواصل دون أن يعرف كيف لامرأة في وضعها أن تعيش حالة الخواء تلك. في المستشفى لاحظ وجود موظفة جديدة في قسم الاستقبال.. امرأة شابة بيضاء صغيرة الجسم دقيقة الملامح. جمعت شعرها إلى الخلف وقد خلا وجهها من المساحيق. كانت تستقبل العالم بعينين كسيرتين. نظرات مستسلمة محملة بالخوف والضعف تطلبان الرحمة. تم تصرفاتها عن خنوع وخضوع ومذلة. وقد جمع حولها الذئاب يناوشونها بعيونهم وكلماتهم المحملة بالمعانى الوحشية.. بعثت فيه الفتاة اليأس. كانت جريرتها أنها لم تكن لديها القدرة على التفريق بين العواطف الجياشة ومتطلبات الجسد. وبين رجل يعرض عليها الحب وغربها. فخرجت من العلاقة بطفل غير شرعي. أحكم عليها قواعد عزل اجتماعي صارت بإزائه عارية لا يستترها شيء يحميها من الأزدراء والرغبة التي تلقاها من الذئاب امرأة لا تملك الحصانة.

في طريقه من المستشفى وأمام حانوت بغداد للعطور. صرخ عليه علي. توقف بسيارته ونزل يتسهم ابتسامته الواسعة.

- يا راجل كك أنت.. نرجى فيك. وبين كنت؟
- شنو فيه؟ الدنيا أتقلبت ولا البوادي يجن الحضر؟

عندى لك مفاجأة.

شئو؟

- رسالة إذا ما اتعرفت على صاحبها ما يصير شئى. وكان  
شئينا ما كان. وكل واحد يصير لحاله.

- تبي تهزري.. ألبغاز هي ولا شئو.

- هكى أقسمت على. وهكى أعطيتها الوعد.

نظر ونيس إليه بتحفظ: خلاص أعطيتنى الرسالة وتوا نشوف.  
فى مظروف أنيق قرأ ورقة تحمل بيتاً من الشعر.

فأقد أيام زهاه العقل يا علم حاييس على<sup>(1)</sup>

فاضت نفسه بشلال من العواطف الجياشة. وتلاطمت بصدرة  
أمواج من المشاعر والأحاسيس المرهفة. التى يخلقها الحب العذرى.  
حدث نفسه أنها نلقت نداءه بالدرب. فهمته وجاءه ردها محملا  
بخوفها العذرى.

جسدت أمامه « كما هتف به قلبه يوم رآها للمرة الأولى وكما  
هى الآن مشرعة فى قلبه علما يمتشق من أجله الجيوش والفرسان  
عدة الحرب ويموت فى سبيله الأبطال. وأميرة يركع أمامها الجميع دون  
أن يجرو على رفع بصره إليها. وإن كانت كذلك. فهى أيضا علم مرفوع  
لديه وسر مجهول لدى الآخرين. أى مجد هو الذى يجعلك رايتى؟

طوال اليوم ظل يطوف المدينة بلا هدف. يصعد هضبة الفتايح.  
وينزل الساحل. يرحل باتجاه رأس هلال ثم يعود المغار. ويطوف المدينة  
على غير هدف. تتضخم صورتها لديه وتكبر حتى تصير محبوبته  
رأية تبلغ أجواز الفضاء ترفرف بين السحب. تميمة مقدسة لا تقدر  
إلا بالوطن ولا يقبض عليها سواه.

(1) قلبى فقد سعادته وهو الآن مهموم مختار لا يدري ماذا يفعل.



مع الشاطئ، الغسول بالأمواج كانت المدينة الصغيرة تسقط أوراقها الذابلة. وقشورها الزائفة وتعطيه جذورها البدوية الأصلية..  
سالمين..

فى اليوم التالى ترك لها رسالة من أغانى «صوب خليل»:  
النار يا عزيز غلاك      تبوق خاطرى فين يرتبى<sup>(2)</sup>  
كيف من تبوقه قوم      وهو معاه مو شايلى وتا<sup>(3)</sup>  
صبا وقال اليوم      هذى مو ساعة نجا<sup>(4)</sup>  
برم وطاح فى مصباه      العقل يا علم وين ما جرح<sup>(5)</sup>  
بعد ثلاثة أيام جاءته رسالتها طائر يريد الحب ويخشى عالمه  
المجهول:

ميدووعة نديروا صوب      تصير فى أعقابه مخادعة<sup>(6)</sup>  
كانت تسأله الصدق ويخط. نسخ جميل ظل يرسمه طوال  
ليله. وكأنه يخط مصير حياته:

على غلاك زين تموت العين      يا علم بات رأيها  
فى ظهيرة اليوم التالى جاءته رسالتها. وكأنها كانت تنتظر  
عهده حتى تعطيه قلبها آمنة مطمئنة.

نرجاك والرجا فى الله      العين يا علم مي ميسه

\* \* \* \*

(2) نار حيك يا حبيبي تفاجى قلبى فلا يعرف كيف بتصرف.

(3) مثل شخص هاجمه قوم وهو لا يحمل سلاحاً

(4) خسر وقال منه ساعة ليست فيها جاة..

(5) داخ القلب وسقط مجروحاً بسهامك.

(6) ستكون بدعة إن أنا أحببت ثم خدعت من أحب.

في صباح اليوم التالي خرجت سالمين مبكرة. من بعيد تحث قامته. وجدها تقرب وهي تبتسم في طفولة وخجل. غمرتهما الألفة وكان الأغاني التي تبادلها جعلت كلاً منهما يعرف الآخر معرفة وثيقة يخيم عليها الود والمحبة.

استجمع شجاعته واقتراب منها. وقفت قبالة في حياء وقد ضمت حقيبتها على صدرها. مالت برأسها ناحية الأرض قال في صوت منخفض. خير.. فأجابته في صوت رخيم: خير.

شعرا بجرأة كل منهما للتحدث في قاعة الطريق القريب من حوشها. وعلى مرأى من الناس. داخله شعور بالزهو والسرور كانت على استعداد لتحدي الجميع. قال: أعرفك بنفسى اسمى ونيس بوزوى طبيب بالمستشفى العام.

أجابته أدري.

لم يعرف ماذا يقول وشعر بالثواني تمر ساعات. خشي أن تطول وقتها فيسبب لها المتاعب. لكنه أراد أن يعرف اسمها وأن يلقاها. ولا يدري كيف يمكن ذلك. قال بوجل: ما يريد أعرف أسمك من حدا غيرك.

- سالمين ردد خلفها: سالمين.. سالمين... أطربها أن يردد اسمها بصوته. شعرت بسعادة أهدأ سعادة. وإبتساماتها المشعة المنشرقة ترقص على الحلقات. وكل منهما يود لو احتضن الآخر في عرض الطريق.

قال: بدى أراك. قالت وهي تتحرك بفارقها. الخامسة في محل العطور. سألتها وقد فقد تركيزه: شنو عطور؟

عند علي حانوت بغداد.

- إيه باهى نلقاك هناك.

سار كل منهما في اتجاه معاكس. عاد لسيارته ورحلت عائدة إلى منزل خالتها. همست نفسها بعذرية.

من يوم ما وطيتي نارهم

قليلة نجا يا عين

\* \* \* \*

الظهيرة. حمام بارد. ملابسه انتقاها الوانا هادئة. تناول القهوة بكثرة دون شهية للطعام. عندما حان الموعد رحل بسيارته ميمما شطر الحانوت البغدادى. وجد علي بانتظاره وعلى وجهه ابتسامة وتعجل.. صفق الباب خلفه وتساءل بلهفة عنها. هز الفتى رأسه بالإيجاب وأشار إلى الجهة الخلفية للمحل. التي يستخدمها مخزن لليضائع. قال: هي توا هنا.. سكر الباب وراك.

اندفع مسرعاً. وجدها تقف فى نهاية الحجرة. ووجهها يتسع بالطمأنينة. ألقى التحية. فمدت يديها فأخدهما واندفع يقبلهما بنهم. كانت أمامه كبيرة وهو جد صغير.. لا يدري لماذا.. خروجها من أجله جعلها كنزاً يخشى ألا يستطيع حمايته.. ركع فانحنى خيط رأسه بساعديها. نام برأسه على خصرها وبقياً برهة حتى كسر صوتها الصمت تسأله أن يريها عينيه. فلما لم يستطع من الانفعالات التي أزدحم بها عقله ووجدانه. أخذت وجهه بين راحتيها برفق ورفعته ناحيتها مثل طفل مذنب يخشى عقاباً. وقالت بصوت رقيق إن عليهما أن يتفقا. سألتها: علام؟ فقالت: على أن لا يلمس أحدهما الآخر.. صمت واستطردت تطلب منه أن يفهمها. فكى تستطيع أن تقاوم نريد أن تشعر بأنها لا نخدعهم.

- متو؟

- عيلتى.. ياتى.. امى.. خوتى..

ليش تقولى هكى؟

- بريد أكون قوية.. بدى اطمئن أسى مو مدنيصة كيف الاخباريات.

قال مندهشنا: أنت مدنيصة.. وضعت إصبعها على فمه. ارجفا لللمس أناملها على شفثيه وأصابتها غصة. تماكنت نفسها. سألته فى رجاء ألا يكمل. تريد أن تكون علاقتهما نقية ظاهرة كما تمت منذ طفولتها. طلبت منه أن يحاول أن يفهمها. فهي تمته منذ كانت طفلة صغيرة.. أسمى فارعا وسيماً جذاباً وجهه المبتسم على سعته.. خصلة شعره الناعمة.. حتى عويناته تماماً كما تخيلته.

قال يرحوها فقط يدك. صمتت لبرهة ثم همست مرتعدة:  
ياهي هكي لا تروى شوى أعطينى انت يدك.  
جلس قبالتها وراحته بين كفيها. نظرت فى عينيه وقالت توا  
أنت نصير ملكى. خبرنى.. ميتينى راتنى أول مرة؟  
- من شهرين.

وين؟

كنت تسيرين بجوار طالبة؟

- منو

- صباح.

- تقول إنك حَبِها.. حاول الإجابة. لكنها قاطعته قائلة: ما فى  
داعى بيشر نتحدث عنها، وما نبى توضيح.. لكن ميتينى حبيت فى؟  
صمت طويلا.. لم يكن يدري بما يجيب.. هل عواطفه الآن تعبير  
عن الحب؟ قال: ما أدري؟

- أنت صريح.. توا حَبِنى؟

- واجد.

- هذا يكفينى

كانت كفه بين يديها قد حُولت حمرتين مشتعلتين بالنار.  
قبض على راحتيها العليا. همست: لا حرك يدك.. أجا ببعوبة  
إنه لا يستطيع.  
حدقت فى عينيه وصدرها يعلو وبهبط. قالت وقد تغير  
صوتها: قاوم.

أجا ب وهو على حافة الهاوية إنه لا يستطيع. ظللا للحظات  
صامتين تاركين للنشوة تأخذهما عاليا. ثم أندفع إليها فاستقبلته فى  
صدرها مرة أخرى وهو يهمس لها.. أحبك.. أحبك بجنون.. ولم تستطع  
النطق. تصلبت وهى تغرق وجهه فى صدرها.. سمعته يقول.. أنت  
نضمينى. أجابت وفى صوتها نبرة ولع وايش أسوى.. أنت لا تساعدى..  
- ياhey المرة الأخيرة. قالت تسترضيه - وقد احتبس صوتها - حتى

يعلم بانى وامى. ضمها بشده ثم تركها.. ما أجمل عطرك.. أيش هو.

- ياسمين.

سأهديه لك. بنقبلى؟

- نعم! استنى شوى. رفعت رأسه لأعلى. تابعها بدهشة وهى تمك أزرار قميصه. برز شعير صدره أسود كثيفاً. تمام كما تخيلت نفسها تفعل من قبل عشرات المرات وانثنت إلى حقيبتها وأخرجت سلسله ذهبية تتدلى منها أول حرف لأسمها. وأخذت تحيط بها عنقه وأحس أنفاسها تلمح وجهه ونطرت إلى صدره وفى عينيها لمح خاطراً فسألها: فيما تفكرين؟ فأعادت النظر إلى صدره وحرزت رأسها تعبر عن فكرتها دون أن تلج على لسانها فقال وقد بلغت الموجة حلقه. افعلنى؟

حرزت رأسها نضياً. قالت وعيناها تلمعان إنها تفعل فى ذهنها. كما فعلته فى اليوم الأول الذى رأته فيه.

- ميتين؟

- 28 فبراير. أجاب مندھشما إنه اليوم الذى نزل فيه المدينة للمرة الأولى. قالت نعم اليوم هادكاهى قلت لخالتي هذا هو. سألتنى شنو. قلت اللي بريده. سألتنى بتعرفيه. قلت ما بعرفه بعد. قالت لى مجنونة.. واختفيت أنت وخضت حد الموت أن تكون غابر سبيل فى المدينة حتى رينك بعدها. قلبى اطمئن شوى. وبعد.

ارتعبت تكون متزوج وقلت هو مؤكد متزوج.. مين اللي تركب معك بالسيارة؟ قال متسبما: أختى عيشة.

بحمد الله ساعتها مت ألف مرة أن تكب. زوجتك. وبالذات لما رأيت الطفلة الصغيرة كرهتها وغميبت أن تكونا غير موفقين. دفعت رأسها للأسفل وطلبت منه أن يعذرها. كانت مستعدة أن تقبل بأى جزء من حيانه.

- حتى ولو كنت متزوجا؟ أجابت بدهشة. ما بتحبنى كيف

ما بحبك.

- يحبك أكثر

تكلم جد

حتى الموت

حتى الموت.. اعطينى عهدك. وأخرجت مصحفاً صغيراً.

لكنها تراجعت. لا أنا اللي بعطيك عهدى.

أخذت للمصحف الصغير بين راحتها وراحتيه. أغمضت عينيها.

وقالت وهي ترخف وهو ينظر لها بذهول: أقسم بكتاب الله العزيز أنى

أكون مخلصه وفيه لك ولا يصير يملك فى روحى وقلبي سواك. كان

يرجع. وعندما فتحت عينيها بإعياء. حاول القسم هو الآخر لكنها

منعته فى صوت واهن وبإصرار: ما بريدك تفعل.

- لشنو؟

أجابت بإصرار ورغبة فى إنهاء الموضوع: خلينى أكمل لك.

واعرورقت عيناها بالدموع وهى تهمس. خلينى أحمّل عنك عهد

الوفاء. وصمتت تسنجم نفسها ثم قالت: لما عرفت أن صباح

تعرفك. ورأيت خبات الصباح بينكما. وسمعت إشاعات أنك مغرم

بيها وتنوى خطوبتها أصريت اتقرب منها ونصير أصدقاء حتى

أعرف الحقيقة.

- شنو تقول؟

- تقول إنك خبها. وما كنت أغار

- ليش؟

- لأنى واثقة.

- واثقة من شنو؟

- من أنك لى وما ح تكون لحدا بَكل

لمح فى عينيها الدموع: بتبكى!

- ما ابكى. مد يديه مسح دموعها. فهزت رأسها

لمس وجنتيها بإصبعه وقال. ليش حزينة؟

- أنا.. أنا بس مش مصدقة... ههفت وقالت انها لا تزال غير مصدقة.

- وتوا؟

- أنت بين يدي.

حاول أن يخفف انفعالاتها. سألها: بتذاكري مليح.

ضحكت ضحكة صغيرة من بين دموعها. قالت بصوت مخنوق. أفتح الكتب وأضعها قدامي أمتي جنى وتصيح بي وتقول حق النبي أنت لا تذاكري ولا شئ. ساعة كاملة ما تغيىرى الصفحة.. وين تشردين يا بنيتي.. كنت خائفة؟

- من شنو؟

- تخدعنى.

- وتوا؟

- ما عاد بهم.

- وهل أفعل؟

أعادت إليه سؤاله: تخدعنى؟ انفصل عنها ووقف وسحب كفه. وشرد ببصره بعيدا. وركزت هى نظرها عليه. قال دون أن ينظر إليها: صار لى سبع سنين فى ألمانيا.

- قالت: أدري؟

من مين عرفت؟

- من علي. سألته أن يعرف كل شئ عنك.

- أنتما متواطئان علي. هزت رأسها علامة الإيجاب. ثم قالت وهى جالسة: صار لك سبع سنين فى ألمانيا. أكمل فوجي. قال إنها ليست أول فتاة فى حياته. سرحت بعيدا. وسألته فهل سأكون الأخيرة؟

استاء أن يخدعها بشيء لم يتأكد منه تماما. لم يكن يشك فى حبه لها. ولكنه لم يتيقن من وجود ذلك الحب الذى يدوم للأبد. حاول أن يوضح لها. هتف بها يستنعيدها من شرورها إذا ما كانت تسمعه؟

هزت رأسها بالإيجاب وعيناها نكشمان عن ولع وحرقة. استطرديوضح أفكاره. قال الحب كلمة عندما يلتقي اثنان.. هل تخبني؟.. أحبك.. وقد يمر وقت طويل أو قصير قبل أن يحل بهما السأم. ويقرر أحدهما الفراق أو كلاهما.. أرجوك أن تفهمي.. لا يتعلق الأمر بخيانة المشاعر.. الأمر متعلق بصدق التعبير عنها.. إنني متيقن الآن من كوني أحبك.. لكنني أريدك أن تخبريني عن اللحظة التي تتضاءل مشاعرك نحوى فنفترق.. وأنا الآخر لا أريد أن أعيش حياة مزبوجة ولا أريد أن أخفى أى لحظة درجة توهج مشاعري.. فصدقك أكثر جمالاً من خيانتك.

تقلص وجهها من الألم ولم تكن بقادرة أن تتحمل حبا غير أبدي مجرد أفكاره الأوروبية الساذجة. استطردهمستجمعا شجاعته: مشاعرنا صنعتها خيالنا.. أحلامنا.. ما أردنا أن يصبغه كل منا على الآخر.

قالت مخرقة: ع ليش نتحدث عن الفراق الآن؟ قال لها: المستقبل.. لقد علمت قدراً كبيراً منه الآن وبقي الذى لا ندره.. لماذا لا نختبر علاقتنا؟ سألتها هل تثق به؟ سألت الدموع من عينيها وشعرت بالحياة نفلت منها وهمست بالإيجاب. سألتها ألا تيكسى. فأنكرت دموعها التى تسيل بغزارة. فقال مؤكداً أنه يستطيع أن يعطيها عهد. لكنه يريد أن يكون واثقاً من نفسه تمام الثقة. ران صمت طويل وأحس بالخرج أمام براءتها ومشاعرها البكر. شعر بأنه خدعها. ولما أطرقت إلى الأرض مخذولة تعبت أناملها بتوتر بين راحتها. مد يده يمسك بهما فسكنت وبقيت مطرقة. همس: سلمى.  
- شنو؟

- أحبك. لم تجب ومرت لحظة طويلة قبل أن تستجمع أشلاءها الممزقة وتهمس بصوت متقطع حزين. وهى تخشى أن تؤذى مشاعره: لكنك قلت لى:

«على غلاك نين تموت العين يا علم بات رأيها»

كأن خنجراً شق صدره. وود لو قطع اليد التى طاوعت انفعالاته



المتسرعة وجعلته في هذا الموقف العصيب. رآته واجما فلامت نفسها. طلب منها أن تسامحه. قالت بعتاب «أغنية العلم فسم لا يعث به». فردد طلبه لها بأن تسامحه. فحسنت. ضمها ودفنت رأسها في صدره. وظلا ساكنين لا يرمان. سألها برجاء أن تسامحه وقال إنه لن يغفر لنفسه لو لم تفعل.

سامحتك.

التمعت عيناه بالسرور وضغط عليها ضعطا خفيما امر له جسدها. وشعرت بنفسها تذوب بين ذراعيه. ولما استجمعت قوتها لتبتعد عنه قليلا. لمحا تائهة في عالمها الجديد. وتيفن أنه لو راودها عن نفسها لاستسلمت. فالتاع.

طرقات خفيفة على الباب أيقظتهما من أحلامهما. أخبرهما علي بأنه مر عليهما أكثر من أربع ساعات. ونبه سالمين أنها تأخرت. اندهشبا للوقت الذي مر سريعا وانخلع قلبه وهو يتابعها تغادر الحانوت راحلة وتغيب في الظلام.

\* \* \* \*

رحلا وقد بدأ أن الوقت يمر كي يلتقيا من جديد. وحتى تلك الحواظر التي تمر سريعا لدى ونيس بأن ما بينهما ليس سوى نروة عابرة. اختفت وتلاشت. أما المقارنة بين ما هو فيه الآن وعلاقاته بألمانيا فقد نحاها جانبا. فمئذ أن حل في أرض الوطن عاد بدويا قحاً كل ما يرجوه عواطف صادقة وعلاقات مجتمع مفتوح. وشعرت بأنها حتوى الدنيا في قبضتها. وأنها حولتها بقدره السحر الذي يحتويه الحب إلى جني أدخلته في قنينة تحفيها بين نهديها. تستدعيها وقتما شاءت وتطلب منه أيضا ما شاءت فيستجيب. وقد أصبح للأشياء رونقها: السحب والمرائشات والزهور.. أحاسيس ومشاعر مرهفة تفيض على ما يحيطها من إخوتها الصغار بالحنان والخلوى. تلقى عليهم بنصائحها حول أتفه الأشياء حتى باتت

أمها تسألها سرّ تغييرها، فتزوّج ضاحكة، إلى الفراش تسنغم  
لتستعيد لحظات اللقاء وكل حلجاتها مستسلمة لحنّ لديد، وهي  
تخفى لحالتها قصة لقائهما مستعدة لحظات نوترها أمام المرآة  
وهي تختار ملابسها.

إزاء النسيب الذين كانوا يلاحقونها بشعرت بالشفقة، وبين  
رميلاتها وأمام قصص الحب وحكاياته، حل بها استعلاء من يملك  
سر الدنيا الذي يتوه من أجله ويموتون دون أن يبلغوه «سر الحب»  
سرّها الحقيقي الذي أخفته في صدرها وحدها.

كان علس ونيس أن يسقط صريع الهوى إن أجلا أو عاجلا، لكن  
ما أوقعه لم يكن فقط جمالها، فنساء البوادي جميعهن جميلات،  
ونساء غرناطة يفن العالم أجمعه جمالا، لكنه صدقها الطفولي،  
مشاعرها البكر، أم هي أهازيح «العلم» التي صنعت لها هالة من  
جمال البداوة العذرى.. لقد أعطته سالمين الجواب.

لذا عاد يمارس علاقاته مع الأخريات بارتياح وأريحية، سميعة التي  
كانت تحضر صديقاتها لشرفتها يطلون عليه جميعا ويتندرون، تقف  
حاملة أخاصا الطفل تضمه وتقبله وترسل مع قبالتها الابتسامات،  
مطلقة في الطريق ضحكاتنا وتعليقاتنا التي تقصده بها، لم تعد  
تثيره، صارت تبعث على الملل منه إلى القضاء عليه، فانتنت غاضبة،  
وبدأت تلقي شتائمها مبرزة وجهاً غاضباً، يفيض بالسخط على  
عالم بأكمه، جاهلها حتى حل بينهما عداا صامت.

نزهوة ابنة الزروق، الحاصلة على ليسانس الحقوق من جامعة  
العاصمة، كانت تنهى جولاتها العصرية في سيارتها الألفا  
روميو السيور ثم تصعد شفتها التي تضع قبالتها والتي تعلوه  
بتر، يتبادلان التحية ويتلقى منها أسئلة عابرة، قبل أن تخرج في  
قميص نومها البيبي دول تنظف الشرفة، تنثني عارضة ساقين  
ملفوفين، يتقافز حولهما كلبان صغيران من نوع دوبرمان، يلقي  
لهما بقطع اللحم الجفف فينظرانه بتريص، ولا يتناولانه إلا بعد

أن تومئ لهما فينفضان بتقاتلان عليها. فتضحك. وهي تبتسم مشجعة إياه على تبادل الحديث. يسألها: كيف حالك؟ تهز كتفيها برعونة وتتحدث بغنج: اليوم ما نديروا شيء بـكُل . أصير وحيدة وما في حدا معاي. يسألها: وبانك؟. وتصدر صوتا ملولاً: باتى في روما. ترى أنت تقول لى شنو نبى نفعل؟.

- التليفزيون.. تأتي بحركة قرف شديدة وتضحك كأنه ألقى بنكتة. أيوه ببش نمضوا الساعات نسمع فى العويلة بصرخون « الثورة مستمرة والخاين يطلع برة»، فيضحكان. ومع الوقت تخلت عن فجورها واستعاضت عنه بصدافته، تأتي في منتصف الليل تجلس بالشرفة في قميص نومها وهي تداعب كليبيها. ويتبادلان الأحاديث..

السيارة الشيفورليه الخاصة بأمر الحامية الجديد تظهر كل ليلة أمام عمارتها، يستاء من أجلها. كان أبوها يعرضها للزواج على أثرياء المدينة، يريد التخلص منها، رجال يتعدون الستين من العمر. ستة من الأبناء والأحفاد، متزوجون بأكثر من واحدة. لا يعرفون موقع ليبيا من خريطة العالم وهي التي تخرجت بتفوق من كلية الحقوق. ولم تعد الثالثة والعشرين من العمر. لكن سيرتها التي تلوكها الأكسنة ألقت بها في النهاية لرجال الجيش. حيث أشيع أنها ستزوج أحدهم.

\* \* \* \*

حل ميعادهمما الثاني واندفع كل منها للأخر بشوق. وقفا برهة صامتين وقد تركت يديها له. ثم عادت تأخذ راحتيه. همس: وحشتينى واجد.

- تقول الجد.

- أكثر ما كنت أتصور. ما كنت أتخيل يصير في هكى. وأنت؟ زاعت من أن جيبه وسألته: كيف تنام؟ قال إنه ينام جيدا فقالت في ابتسامة ساحرة:

ذَنوبُ يا عزيز عليك سَماءُ وأنت في نومك هنى

لاحظت ما وسوف خبه فيه بجنون. جاذبية ضحكته المشرفة  
وتألق العينين الدافئتين. أنا ننام في العاشرة بيئش.. قاطعته  
كى تستثير ضحكته ثانية. وقالت وهى تتمثل بتعابير وجهها  
وساعديها عتاباً ولوما:

رَأَقْدُ وَجَاكُ النَوْمُ كذاب مو غَلانا جازحك

انطلقت ضحكته من جديد مجلجلة. وقد وضعته موقع  
الاتهام. وراح يهدئها ويقول: باهى باهى. لكن أنا ننام من الرضا. أنا  
ننام من السعادة.. أنا نستعجل النوم بيئش نقابل حبيبتى. بعد ما  
ح اتام بَكَل

- بضايقتك؟

هادى أجمل ما فيكى. وبين ما تقولى فيها بصير بدى أضمك  
أكلك ما خلى فيكى شى. تعرفى لما أن تلقيت رسالتك عرفت كيف  
البدو الرجل استطاعوا يخبزنوا كل هادى العواطف فى بيت من  
الشعر. واستطرد فى تروى.

فاقد أيام زهاة العقل يا علم حاديس علي

ارتبكت وانتشرت بوجنتيها حمرة الخجل. من وين حفطت كل  
هادا؟! أجابت فى ارتباك أنها لاحظت منذ طفولتها أن أباهما ما كان  
يغازل أو يداعب أمها إلا بهذه الأغاني. كنت ألمح البهجة تهز أمى  
وهى ترد عليه تمثيلاتنا. وكلما كبرت صرت أفهم أكثر. حتى تمنيت  
أن اللى بحبه يكون يحب «السريب». لكن أنا ينسست. حسبت أن  
الحب صعب وأجد.

كيف؟ قالت إن الفتيات كن يتكلمن عليها. ويتهمونها  
بالبرود والغباء. هن يحصلن فى علاقات مع العُباب. وأنا أقول لهن.  
هذا مو حب. اللى تفعلونه مو حب. يقلن لى سمالين كلك معقدة.  
فكيها شوى.

سألها ما الذى تعتقده عن العلاقة بين اثنين؟ قالت هو الحب

والوفاء واليأس. ربت بعيدا وكأنها همدته. وراى الصمت. وكلمتها  
الآخيرة قريبة منهما. أكثر حقا من الآخريات. ضغط على يديها  
وقال لها «لن تعرفي اليأس معاً» رفرت زهرة عميقة من صدرها  
وعمقت «مين يدري»

قال بثقة «أنا وأنت».. شنو أنت جميله.. تألفت عيناها.. استطرده.  
شنو عيونك أندلسية.. النور اللي يشع من وجهك.. ابتسم يسألها  
إن كانت ترغب فى أن يستكمل؟ قالت بشوق وكأنها تنتظر اللحظة  
هذه. نعم لكن ما تبالغ قال انه عاجز عن الوصف وشفايفك كيف  
الكرز قاطعته بلهفة تسأله ما الكرز قال دم العشاق.  
آه وأيش بعدين.

قال «تحرك» وثبتت عينيه على عنقها العاجس: فارتعدت من  
النشوة وسمعته يستطرده: أعنتقه. شمست نحري.

- نعم. ومد يده يمسد خصلة من شعرها الغزير الحالك السواد.  
يتحسس أمواجه المجددة اقتررب يلثمه بفيه. تشمم عبقها فاهتاجت.  
قال إنه من أجل جدائل شعرها فقط يمكنه أن يعيدها حتى الموت..  
أغمضت عينيك. أطاعت مسحورة. لثم عينيها بشفتيه. كادت  
أن تهوى من حالق. همس أنه يقبلهما مغمضتين حتى لا نقله  
سهاهما.

نادى عليها. فلما فتحت عينيها سألها ألا يلتقيا هنا ثانية.  
أسرعت تتسائل اذا كان هذا آخر لقاء بينهما. قال وهل بمقدورهما  
أن يفعلوا؟ وأضاف أن لقاءهما فى الحبل يطلع الآخرين على أسرارهما.  
ما يعرضها للخطر. تساءلت عما يمكن أن يفعلوا. سألها هل تنق  
به؟ هزت رأسها بالإيجاب. قال لى صديق مصرى متزوج إذا توافقى  
بنتقى هناك. واستطرده. إذا كانت تشك به. وضعت أناملها على  
فمه جزعة وطلبت منه الصمت وقالت له «لا تكمل أرجوك.. شنو  
تبغى.. أنا موافقة».

\* \* \* \*

عندما بدأ واضحا اقتراب عودته. استدعى عمر أخاه ناصر من لندن. لاقاه بالقاهرة حيث عرض عليه مجموعة أعماله التي انخرط في أنشطتها. وكان العمل في الملهى الليلي بدر عائداً خيالياً وطلب منه أن يتابعها. حال عودته الى البلاد. دار بينهما حوار حول الفندق. وكان شركاؤه يسألونه شراء أحد الفنادق بالعاصمة وتجديده بدلا من إنشاء آخر جديد. فطلب مهلة للتفكير. في الظهيرة جاءته بطاقة دعوة من اللواء للعشاء فى التاسعة مساء.

فى العاشرة والنصف وقد انتهى العشاء ورحل زوجها معذرا بأعماله. استقبلته فى مكتبها. ترتدى فستان سهرة من الخمل الأسود. حضر الخادم يدفع أمامه عربة من الزخارف الفضية. وقد صف عليها الحلوى والشاي. وضغط على بار صغير. سألته إذا كان يفضل الوبيسكى أم النبيذ. طلب ويسكى فقدمت كأسا من الوبيسكى الفاخر مصحوبا بسيجار هافانا من الطبايق الكوبى. تشممه متذوقا. قالت إن المرء قد يستخدم مضطرا أشياء لا يحبها. قال لا يوجد شيء لا يمكن الاستغناء عنه. هزت رأسها موافقة وقالت: مؤكد ليس ضروريا. فلماذا لا تحدثنا عن أخبارك؟

وأفكاره لا تزال تدور حول اللحظة التى سبقتقى بها على الفراش وبتطيقها. عندما تلحس كراعيه نرسولا إياه. لكنه لن

يستجيب لها وسيظل يعذبها حتى يكسرها أمها المتعالي وراء غرورها العظلي وشعورها بأهمية ذكائها النافه.

حدثها عن شؤونه وأموره دون أن يأتي على التفاصيل الهامة. وهي تهر رأسها علامة الاستحسان. لم يجز على ذكر الفندق بشيء. فاجأته قائلة: والفندق؟ أجاب يبدو أن الأمور تتعثر. فسألت تستفهم عن السبب. فقال إنهم كانوا منتمين على بناء الفندق من Z to A. لكنهم تراجعوا الآن يقترحون عليه الشراء والتجديد. وهو ما يكرهه بالتحديد في المصريين. إنهم لا يستقرون على شيء ويغيرون آراءهم بين يوم وليلة. وأضاف أنه زهق. سألته عما يتنوى فعله. فأجابها إنه في حاجة للتفكير حذرتة فهو ليس في البداية حتى يغامر في أعمال الساء. هنا سوف يمتصون دمه قبل أن ينتهي العمل. ضغطت على شفتها السفلى بأسنان لؤلؤيه. وهي تلوح بيدها مؤكدة أنها سوف تردد على مسامعه ما يعرفه جيدا في قانون الأعمال «المنص والسريعة» إن هذا العمل يتقاتل عليه رجال أعمال مصريون وأمراء سعوديون ورجال أعمال خليجيون وقد حجرناه لك بصعوبة. فنحن نلعب في حلقة من الوحوش المفترسة. اننا ندخل سوقاً جديدة ونتوقع أن يدر دخل النشاط السياحي أربعة مليارات في العام. والسوق المصرية تستحق في الحد الأدنى اثني عشر مليارا. سترتفع بعد تحسين البنية التحتية التي دمرتها الحرب الي ثلاثة أضعاف التوقعات الحالية

بدا عليه التفكير. فقالت إن عليد أن يمارن بين عائد أرباحه من البناء والسياحة. انها لا تعتقد أن في نيتة أن يتشرف بنفسه على أعمال البناء؟ إيالك أن تفعل

عقد حاجبيه وقال. معاك حق. اللي توه نعرفه مو كاف.

أنت معدور الأعياء لا يصهمون أهمية تفسير الأمور لك. بس أنت تتحمل جزءا سحطاً تراجع سدديسا. أنا.  
- نعم أنت ليه مقلتش لي. مسش انمما تكون أصدقاء. عادت

جلس وهي تضع ساقا على ساق وتقول له إنه يخل بحق الصداقة. وإنها كانت تتوقع أن يذكر لها العقوبات التي تواجهه كي تذللها له. لم أظن أنك لا أقول تخشانا وأفضل القول بأننا لم نحصل على ثقتك.. لا يهم.. تاريخ الشراكة هو الذى يبني الثقة. خذ وقتك من التفكير سنحافظ لك على السعر وقالت بغتة: هل تعلم أن هذا المبنى ملك للقطاع العام؟

استدار مندهشا: هل تبعون القطاع العام؟

قالت: أعلم أنكم لا زلتم تبون القطاع العام. لا زلتم فى بداية الدورة. عندنا دارت كاملة وسنبيعه بأكمله. سنعيده لأصحابه أو لأولاد الأصول. الأهم أن الأغبياء لم يخبروك أن الاقتصاد المصرى بقرة بدأ ذبحها. والساطور مع الجزائر. والجزار جالس على عرش السلطة. ومن يملك السلطة هو الذى سنتعامل معه فى موضوع فندقك. وإذا كسبناه أصبح لنا الحق فى الزيادة على شراء الفخزين والكبد والعمود. وإذا تخلفنا. ربما لن نحصل الفشة والكلاوى. أو طردنا خارج السوق. نعض أصابعنا من الندم. قامت فظن أن المقابلة انتهت. لكنها ذهبت للبار وأحضرت كأسا أخرى من الويسكى. كانت شهوته قد تلاشت. قالت: هل أستدعى لك ليلى؟ عبر عن ازدياد شديد وقال: كفاية عصبيتها على المسرح.

قالت وهي تدير الهاتف: سأستدعى لك امرأة شابة من نوع خاص ستثير إعجابك. قال ساخراً: كيف بلكى مثقفة مثلك.

ضحكت وهي تسأله إن كان هذا إطرأ أم سخرية. رن الهاتف. رفعت السماعة. ودار حديث عن رحلة نيلية إلى القناطر الخيرية. وافقت وعندما أغلقت الهاتف استدارت تسأله بشكل عابر أن الأخبار تقول إنه بنوى تقليص أعماله فى البداية. هل هذا صحيح؟ جهم وجهه بشدة وامتلاً بالغضب. وأجاب وهو يكبح مشاعر الغضب فى صدره: نعم بنيتى أن أفعل

لمحت حالته على الفور وبانزعاج شديد. استدركت معذرة. وقالت



انها لم تقصد أن تدخل في سبؤه الخامسة. ثم صمتت لفترة وفجأة  
هتفت مستنكرة. يا ربي لم أكن أظن أنك مغرور إلى هذه الدرجة. حتى  
انك تريد إحراجي. طست أننى أفعل ما هو فى مصلحتك. وقفت وهى  
تمسك برأسها وقالت. «أرجوك.. إننى متعبة».

\* \* \* \*

فى اليوم التالى. وعلى عكس طنه بأن ملاقتهما سوف يصيبها  
الفتور. دعته ليصطحبهم. فى رحلة نيلية بالقناطر الخيرية. وعلى  
حفل شواء حضره عدد محدود من الرجال والنساء. من بينهن نساء  
فاتنات جعلت من حضورهن العنى المادى للإثابة. وكأنها تقول لو  
اجتهدت وفهمتى. هذه هى الإثابة لما تبذله معى من مجهود.

وعلى العشب الأخضر انتحت به على الشاطئ النهري. سألته  
ماذا قرر بخصوص الفندق. وقبل أن يجيب. قاطعته معذرة على  
تسرعها. وقالت إنها لا تستطيع أن تنسى كونها أنى فتخلص من  
كوبها لحوحة. بانتظار الشواء وضع أمامهما طبقاً مملئاً بالفاكهة..  
تفاح وعنب ومشمش. سألته إذا ما كانوا يررعون الموز؟ أجاب بالنفى.  
قالت إن شجرة الموز تنمو بجوارها شتلات صغيرة. ويقوم الفلاحون  
بإزالة الشتلات الضعيفة ويتركون الأقوى. بعد ثلاث سنوات تشيخ  
الشجرة الأم ويقل إنتاجها. فترال لنحل محلها الشجيرة البديلة.  
مكدا تستمر الحياة ويستمر قطف الثمار هكذا الظلم السياسية.  
عادة يمر وقت طويل وهى مزدهرة قبل أن تعمل بشا عوامل التفكك  
والانحلال. لكن التغيير يتم سريعا فى الدول الصغرى.. هل نفهمتى؟

نظر مستغرقا وقد التمعت عيناه بوميض عاصف لكنها  
جأهله. واستطردت لتتفق أن الأشياء لا تبقى على حالها. وضعت  
ظهر يدها على فمها مستغرقة فى التفكير وقالت: منذ عشر  
سنوات من كان يمكن أن يصدق أن النظام الذى صنعه عيد الناصر  
سي تلاشى مثل سحابة صيف. حتى الذين أكلوا وشربوا ونهبوا

منه وعاشوا من حيره كانوا اول من انقلب عليه: وزراء ورجال حكم وبرلمانيون ورجال دين وفنانون وأدباء جميعهم صوا عليه لعناتهم. لماذا يحدث هذا؟ هناك نموذجان أبو رجيلة وعثمان أحمد عثمان. الأول هرب بأمواله إلى الخارج وهرب وراءها وانتهى مغضلا السلامة على المغامرة. والثاني لم يترك احتفالا بالثورة التي صادرت أمواله إلا وشارك فيه. عيد الثورة. عيد الوحدة. عيد الجلاء. عيد ميلاد عبد الماصر. عيد الأضحى. الجنود الذاهبون إلى الحرب والعائدون منها بعد أن فقدوا أعضاءهم. حتى كرة القدم صنع فريقا حصل على بطولات محلية ودولية... لا بأس... فقد كانت تدعمه وتحدث عنه الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون. فخرجت صورته مع كبار رجال الدولة وحينما مع أعماله التي اتسعت محليا حتى إنه أوحى للناس بأنه من بني السد العالي وليس المساكين الروس. السدى أعنيه أنه يوم وضعوا يديهم على شركته قال على الرحب والسعة واحتفل وصاح ساعتها وهو يرفع يده ويضرب بقدمه للأمام «باسم الشعب» ولا أكون كاذبة لو قلت إنه كان يسب هذا الشعب ويلعن تاريخه.

ارتفع اسم «المقاولون العرب» عاليا. إذا خسرت فبسبب بيروقراطية الدولة وبطء الأداء الحكومى حيث المال سايب والمسئولية والرقابة معدومة. والفساد ينحرف فيها. وإذا كسب فهو عثمان أحمد عثمان. رجل الأعمال الكبير. وانطلقت أعماله إلى أفريقيا وفى المنطقة العربية حتى أصبحت نموذج النهضة المصرية التي صنعتها الثورة. ألم حُل أنت محله فى بعض المنشآت العسكرية لجيش البوادي؟

أجابها وهو مشغول بمعلوماتها الدقيقة. نعم. فاستمرت مباشرة وهو أيضا لم يجد فى تقديم الهدايا والهبات لكبار المسئولين غضاة أسما ليست من ماله وفعليا هى علاقات.

عادت لصمتها وبدأ عليها لفترة أنها تفكر ألقت برأسها جانبا وهو يتابع حديثها بانتباه. عندما قالت: فى لعبة الرجبي ينطلق لاعبو الفريق المهاجم فى شتى الاتجاهات. يتشتت الفريق

المدافع. وتكون الكرة قد أخفيت مع أحد اللاعبين الذي يتفهم للخلف. ثم يتدفع في مناورة واسعة للأمام ليسجل هدفاً. فالذي يجيد التموهيه يجيد المكسب.

الآن لا يعلم أحد ما هي شركة المقاولون العرب. هل هي قطاع عام؟ هل هي قطاع خاص؟ أم قطاع مشترك. رحلت الناصرية وتقدم ليحل محلها. وما هو أصبح صهر رئيس الجمهورية الجديد. بالأمس بنى شركة من عرفه الخاص. معرضة للتناجح أو الفشل. الآن هو يبنى عدداً غير محدود من الشركات والبنوك من اللحم الحى للدولة. الآن هو رجل النخبة الأول.

فتح عمر عينيه على سعتيهما وكأنه يرى العالم للمرة الأولى. أمسكتُ بسيجارة وانتظرت أن يشعلها لكنه لم يكن موجوداً. قالت بنبرة ناعمة: مشح تولع لى؟

قام متثاقلاً وأخرج سيجارة له وأشعل لكليهما بقداحته الذهبية. قالت: هل يرغب فى أن تستكمل حديثها؟ قال إنه مستمتع. لم ترقها الكلمة فعقب أنه مهتم. قالت إن اللواء الركن قائد ثورة البوادي يشبهه. ليس تمام التشبه ولكن لهما أسلوب مميز استطردت وهى تدعو النادل أن يصب لها فنجاناً من القهوة. يتميز اللواء الركن. بأنه أمين تماماً لما يعتنقه. هو فى لحظة ضد الروس لذلك هو مستعد لمطاردتهم حتى آخر الدنيا. أما الأمريكيون فلن يتورع عن مطاردتهم حتى آخر بقاع العالم. هو دون كيشوت نقى. وهو على عكس عيد الناصر الذى كان رصينا فى خالفاته الخارجية. فاللواء يستطيع أن يجد ما يجعله فى حالة حرب مع العالم كله. ويهزم قبل أن يكتشف هذا القانون البسيط الذى برع فيه عبد الناصر والمسمى بالتحالفات. توازنات القوى. وأشاحت بيدها. وهو يعتقد أنه يصنع نهضة حقيقية للبلاد منشآت.. مدن.. مصانع. طرق. مطارات. خدمات.. مدارس معاهد.. لكن هل هذا يكفى؟ هو لا يقبل بأى أشكال المعارضة حتى الطلابية منها ولا يأنف من

قمعها بالسلاح. وأحب الآن أن أحذرك أن أخاك حميدة في خطر شديد ينبغي أن تعطيه قدرا كبيرا من اهتمامك.. ضع عصفورا في قفص من ذهب أو نحاس لن يهتم بالفارق. لقد سلبته حرته.

اعتدل في جلسته ومدد ساقيه باتجاه النيل. لو أن هذه المرأة تعمل لديه كم سيدفع لها. هذا الصنف من النساء.. مر بخاطره أن يقارن بينها وبين ثريا. ما الذي يريده.. مضاجعتها أم معاشرتها. أم أن تكون أما لأطفاله، أم شريكة لأعماله الاقتصادية أو السياسية.. هل تكفيه امرأة واحدة.. لتظل ثريا في مكانها دون أن يستبدلها. ثريا تكون ثريا. ومدام تحسين تظل كما هي مستشارة أعماله. ولكن ما اسمها الحقيقي.

شاهدها تبسسم وهي تنادى عليهم. إذا ما كانت رائحة الشواء تعنى أن الطعام جاهز أم لا. وعادت تسأله أين سرح بأفكاره. هل تفكر في قصر الرئاسة. ضحك بتلقائية ومودة وقال بجديّة: أفكر في أن تكوني لي زوجة.

ضحكت هي الأخرى بجذل. كانت سعيدة وطرقت بأصابعها. لقد انتصرت على الزمن. وقالت بغنج: وماذا أفعل بزوجي. قال: نطخه. ضحكت وقالت: سهل قوي. أنت تستهتر به.

My man is strong man

أضافت بشكل أرضى غروره: ولكن مثلك لا يعوض. قلت لي كم عمرك؟

لم تنتظر الإجابة ووقفت. ودعته للوقوف. ثم وضعت ساعدها على مرفقه وتحركت باتجاه الجماعة وهي لا تزال تضحك ونقول: كم سيقى اللواء الركن؟! خمس سنوات عشر سنوات. ألسنت أنت الأطول عمرا.. هيا نأكل لقد جعت.

\* \* \* \*

فى اليهودى كانت تتنظرهم امرأة شابة فى منتصف العقد الثالث. ترتدى فستاناً بنى اللون غامقاً طراز شائيل. على جسد بض قامة منوسطة فمحببة اللون. شعرها قصير كالغلمان. من أسفل فستانها الذى تعدى الركبة كانت ترتدى جوارب سوداء طويلة من النايلون وحذاء جلدياً يصل إلى منتصف الساق. تقدمت نحوها بوجه مورودود. ووجنتين برققتين شابتهما حمرة طبيعية.

سألته منذ متى تنتظر. فقالت وهى تهز كتفها تعبيراً عن عدم الأهمية انها هنا منذ ساعة. قالت معلش اعذره فقد كان مشغولاً معى قليلاً. نظرت إليها بود وقالت أوامرك.

حجزت لكم مقصورة فى مسرح الجمهورية. سوف تعزف الفرقة السيمفونية مقطوعات لموزارت وبيتهوفن. البرنامج معك. انثنت لعمر تسألته اذا ما كان يرغب فى سماع الموسيقى الكلاسيك. فقال بسخرية إنها لم تترك له الخيار.

فاطعته صافى وقالت له إن لها شرطاً. سوف نأخذ سيارتى فأنأ أحب القيادة. قالت مدام تحسين لعمر أن يقبل شروطها. وأنها ستقوم على إرسال سيارته إلى الفندق وقبل أن يتحركاً أمسكت كفه وسألته متى ينوى السفر؟ قال قريباً. وإن كان لم يحدد بعد. قالت. لنا لقاء قبل سفرك.

\* \* \* \*

ركبا سيارتها الفوردي. قادتها باعتزاز. وظلا صامتين فترة قبل أن تشعر بظطرته المركزة على تلك المساحة الصغيرة المكشوفة من ساقبها والتي تراجع عنها ذيل فستانها من جراء القيادة والمثيرة على الدوام لكل امرأة حميلة. مدت يديها تعيد رداها إلى أسفل وهى تسألته كما يسأل الطفل أمه: أنت بدوى؟

نعم.

وبدهشة الأطفال الخالية من الحسد. عنى؟

وكمن يكتشف حيل الكبار ويبقى معتزلاً بذكائه. غلقت وهى  
تثنى رأسها ناحيته. إن مدام تحسبن لا تعرف سوى الأثرياء. ولكنك شاب  
وأضافت إنها حضرت البارحة. ولكنك كنت رحلت هل كنت مشغولاً؟  
هز رأسه بالإيجاب. تربنت فترة قبل أن تعبر عن سؤال جال بذهنها ثم  
غامرت وسألته إذا ما كان يحب الموسيقى الكلاسيك.

لم يجب فاستطردت تسألته إذا كان سبق له أن استمع إلى  
موسيقى كلاسيك. أجاب بالنفى. رآها تنتهد فسألها مغتاطاً عما  
بها. قالت لا يوجد شيء مهم. لكن من الصعب على الأذن تعود عليها  
من المرة الأولى. سيكون مثيراً للملل. سألها وماذا ترى هى. قالت إنها  
متيمة بها فهى عازفة بيانو وأحياناً تعزف على الكمان. شرعت تعزف  
له قطعة من الموسيقى لموزارت بفمها ما جعله يتنسم. فضحكت  
وباعته بسؤال عما إذا كانوا يضرين المصريين؟. أجاب يغيظها: بالطبع  
نحن نضرب المصريين وخاصة الثرثارين منهم.

ند عنها صوت تعجب وقالت إنها هى المحطنة وتستحق ذلك..  
زامت بفمها ووقفت أمام المسرح. وشرعت تصف سيارتها بحذر  
شديد وعندما انتهت نزلت تعابنها. حتى لا تصاب بسبب منها.  
دارت حولها بطريقة جعلته يشعر بالضيق. وجدتها تبعد قدمين  
عن الموقع المناسب فابتسمت وهى نهز كتفها وتقول له بعينها  
إنه ليس فى اليد حيلة. صعدت ثانية وأدارتها لتضعها فى موقع  
صحيح حتى رضيت.

فى الكافتيريا طلبت له القهوة وهى تقول إن القهوة مشروب  
رجال الأعمال. أما الويسكى فللسهرات. سألته إذا كان ما تقوله  
صحيحاً فهى غير متأكدة. فأجابها أن القهوة مشروب العجائز  
وأنت عجوز.

خدمت كطاملة. وقالت معك حق. الكثيرون يقولون لى ذلك.  
أحياناً أشعر بأنى غبية ولكنى أحاول.. عندما تقول لى المدام اذهبي

مع الأستاذ عمر لحضور حفل سيمفونى فهى تفعل ذلك عن قصد. وعلى أن أكمل الباقى. وقد أخطئ فهى لا تشير على بعمل شيء محدد. فما الذى يجبرك على سماع شرح مفصل لسيمفونية. لا أعلم لكنى أفعل ما أتصوره صحيحا.. أما السيارة فهى لزوجى وأنا أعتز بها كثيرا.

- شنوو.. ومتزوجة كمان.

- كنت متزوجة. أظلم وجهها. ولكنها عادت لتستعيد حيويتها وتقول باهتمام إنه كان طياراً حصل على رتبة رائد وهو فى التاسعة والعشرين من عمره وقاد سرب مقاتلات. تعرف المقاتلات المنقضة. وأشارت بيدها إشارة الانقضاض من أعلى للأسفل. وهى تزوم بغمها. فوووووووووو. حصل على جمة الشرف فى حرب الاستنزاف. اشترينا السيارة فى 72. وأكدت بيدها. بالدين. كان يقودها كأنه يقود طائرته ميج 21.. يعيش السرعة وصرير العجلات وأنا اتعلق بكتفه مذعورة. وهو يضحك ويضحك من القرح. وهو يرق مثل سهم بين سيارات القاهرة. والسيارة تنثنى معه كقطعة صلصال. كنا نعتز بها ولم تصبنا الحوادث حتى تمكنا من تسديد ديونها. وفى الحرب أسقط صاروخ إسرائيلى طائرته.

أصببت بالانفعال لكنها سيطرت على نفسها. لم يصل جثمانه حتى الآن. لهذا كثيرا ما انتظر عودته. كثيرا ما أتوقع لنا أن نعود نقود السيارة معا بسرعته الخيفة.

جاء النادل بالقهوة. سألته إن كان سيشربها؟ أجب سافعل

وأضاف: لأجل خاطرک. فشكرته ممتنة.

سألها إذا ما كانت تعمل؟

قالت إنها لم تكن تعمل. فقد تخرجت من الكونسرفتوار وهى متزوجة. وحظينا بطفلة صغيرة ولم يرغب فى أن أعمل. لكن المدام أشارت عليّ بالعمل فى إحدى الشركات السياحية وأوجدت لى مكتبا كاملا أنا مديرتة. أشارت لنفسها وكان المركز

أكبر منها. استنطردت وهي تقسم بالله العظيم أنها أخبرتها بأنه ليس لديها خبرة فقالت. لا تهتمى هذه الوظيفة فى حاجة إلى بورسونالتي. لباقة فى التعامل. لغات ولى أربع لغات إنها جيد الفرنسية والإجليزية والألمانية والإسبانية والآن أدرس الإيطالية. أحياناً أقوم بدور دليل سياحى لوفود فى حدود عشرين شخصاً. وأحياناً دليل سياحى خاص لضيوفها الأثريين. هذا يرهقنى كثيراً. جميعهم يتميزون برغبات متعددة متنافرة حتى إن التعامل مع وفد عدده مائة أقل إرهاقاً. على فكرة عندما ندخل الصالة: أولاً ممنوع التدخين. ثانياً ممنوع تبادل الحديث لهذا أتصت جيداً. ثالثاً تذكر مأساتك.. أسفة لا أظن أن لديك مأساة. تذكر مأساة أى إنسان آخر ولتكن مأساتي. وعقبت ضاحكة ليست لى مأساة وإنما أنا فقط تنهمر دموعى وأنا أستمع للموسيقى. المأساة والملهاة ستساعدك على الاستماع والفهم. دقت أجراس القاعة فهمسست أن الوقت قد حان.

\* \* \* \*

فى آخر حوار دار بينهما فى القاهرة قبل عودته إلى العاصمة. عرضت عليه مدام تحسين ما ظنه لحظتها طوق النجاة. وفى الحقيقة كانت قد جعلت منه دون أن يدرك عميلاً مزدوجاً. لقد حملته بحزمته من الأخبار الخطيرة. وبدلاً من النزول فى مطار الحاضرة الشرقية. رحل مباشرة إلى العاصمة.

\* \* \* \*



في الواحدة ظهراً، سمعت فاطمة طرقت خفيفاً على الباب الخارجى للشقة وعندما فتحت الباب وجدت أمامها فتاة متشحة بجرم أخفت جسدها كله. ولا يبيغ من وجهها سوى عين واحدة. سألتها عما تريد؟ تلعثت سالمين ولم تدري ماذا تقول وقد نسيت اسم صديق ونيس. أغرقها العرق البارد خوفاً من أن تكون أخطأت المكان. فهمست وقد احتقن وجهها من صعوبة الموقف: الدكتور ونيس موجود؟ من؟

دكتور ونيس!

قالت فاطمة وقد شعرت باضطراب الفتاة لا. هذا منزل الدكتور رفعت. ارتعدت في اللحظة التي خرج فيها شباب في التاسعة والعشرين على الحديث مسرعاً وهو ينادى من الداخل. مين.. مين يا فاطمة؟

فاستدارت تقول فتاه تسأل عن دكتور يدعى ونيس. ولحين جاء رفعت كان دم سالمين قد جف في عروقها. واستراحت أعصابها وقد غمرها الخجل عندما أقبل شباب مرحاً: أهلاً.. أهلاً.. اتفضلتي دكتور ونيس جي حالاً.. عندما دخلت إلى غرفة الاستقبال كتشفت عن وجهها والدموع تكاد تطفر من عينيها: سالمين مش كده؟

- نعم

- هذه زوجتي.. فاطمة وأنا الدكتور رفعت صديق ونيس أهلاً بك.  
وتقدمت زوجته إليها مرحبة: أسفة معتمدش إنك نقصدي

الدكتور ونيسر. اعديرتني رفعت ما فليش حاجة أهلا وسهلا  
تفضلي طارق انسي نعال سلم علي طنط. تقدم منها طفل  
صغير لم يتعد السنين من عمره وهو ينقل بصره بيها وبين أبويه  
ياستغراب وحيرة فأخذته بين يديها لتداري اضطرابها.

ونيس كلمني عنك كثيرا. ولا يكفيه الوقت لينحدث عنك.  
واستدار لامرأته بتواطؤ ضاحك.. عاشقان... أقصد الكلمة. ثم  
استدار إليها قائلا: كنت كده أنا وزوجتي قبل أن نتزوج وما زلنا..  
مش كده؟ ضحكت زوجته ونظرت إليه بوجه مليء بالطيبة  
وقالت: هو كده لا يجد إنسانا الا ويحدثه عنا.  
- الله! مش بقول الحقيقة ولا أنت بطلت حبيني.

فألت وقد اتسعت ابتسامتها تعبيرا عن عدم التصديق  
وضمت كفيها إلى صدرها: أنا مفدرش أبطل أحبك.  
- خلاص يبقى عندي حق أن أحكي لأي بني آدم. واستدار لسالمين  
يسألها: مش كده؟ همست طبعاً.

فهز كتفيه وهو خارج دلالة علي أنه وجد من يؤيده في صحة  
آرائه. ثم عاد يحمل سجائره وقال إنه ما دام الإنسان يحوي في جوانبه  
حياً. فليس له أن يخفيه وعليه أن يعلنه علي الملأ الكراهية بس  
يكن نخفيها في منطقة محايدة. بلا تعبير وبلا نفاق.

قالت فاطمة هو كده متقدرش تأخذي معاه حق ولا باطل..  
بتشتغلي؟

- طالبة

- في أي سنة

في الصف الثاني الثانوي

هو ده كان عمري لما اتعرفت علي رفعت. تشرى الشاي  
فجاءها صوت رفعت من الداخل: هو يعني مفيش غير الشاي  
قدمي لها عصير موز ولبن. قامت وهي تنظر لسالمين وعلي وجهها  
تعبير الامتعاض السعيد: حاضر.. حاضر.. ده بيتك وأنا أختك ورفعت

أخوك.. عندك أخوات أكبر منك؟

لا أنا أكبر أخوتي

كوبس ادى أخوك الكبير وأنا أحتك الصغيرة. ميميش داعى

للتكلف.. تعال تعال يا طارق

عندما وجدت نفسها وحيدة تطلعت إلى ساعتها. بقي علي  
مجيئه نصف ساعة. تفقدت الغرفة.. حجرة مكتب واسعة ملحقة  
علي صالة استقبال. أناث ينم عن ذوق وطابع شرقي دافئ. خلفها  
مكتبة تضم كتباً في مجال الاقتصاد والسياسة والطب. في أحد  
الأركان وضع هاي فاي استريويضم بيك أب. وعلي الجدران صور لأشخاص  
لا تعرفهم من أجناس شتى أحدهم ملتح وآخر يقف خطيباً وسط  
مجموعات من الناس تستمع إليه في اهتمام بالغ

قطع عليها تأملها دخول رفعت ومعه أشرطة تسجيل.  
وخلفه زوجته حمل أكواب العصير: تسمعن فيروز.. ده شريط  
الموشحات الأندلسية.. لما ونيس يكون هنا بيطره.. نظر لها  
وابتسم: دلوقت عرفت السبب. ونظر لزوجته وقال صراحة.. عنده  
حق. شعرت بالحجل. أدار المسجل. وهو يسألها إذا ما كان يكتب  
لها شعراً؟ نفت بابتسامة خافتة. فقال مقراً «غلطان» وأضاف  
مستشهداً بزوجته إنه أرسل إليها عشرات القصائد قبل الزواج.  
وأضاف بتأكيد وحتى بعد الزواج؟

أجابت في عناء: قصائد إيه يا عم. ح تعمل فيها شاعر.  
واستدارت تحدث سالمين: خدعنى كان بياكل بعقلى حلاوة.

أنا!!!

أقول ولا نسكت أحسن.

لا قولى. ابتسمت وقالت: زى ما حب أنا ح أقول الحقيقة.  
اسمعي يا سالمين: أيام المراهقة جالته إسهاال شعري - وضحكت  
ولم تمنع سالمين نفسها من الابتسام - وراح يعرض قصائده علي  
أصدقائه. طبعاً فيه اللي يطيب خاطره. وفيه اللي يقول له  
الحقيقة. لحد ما عثر علي. كنت الغيبة الوحيدة التي صدقته.

بعد كده عندما قرأت الشعر الحقيقى اكتشفت أن شعره من أردأ الأشعار اللي قرأتها في حياتي. ونظرت إليه تتمنى عليه أن لا يغضب لصراحتها. قاطعها منفعلًا: بعد ما علمت قراءة الشعر والنقد... دلوقت شعري بقى من أردأ الأشعار.. مش ده الشعر اللي كان يبسهرك وما يخلكيش تنامي؟

هزت رأسها وعيناها تتسعان بالضحك وقالت تريد غيظه: كنت عيله مراهقة.

حاولت سالمين أن تكتفم الضحك. وبان على وجهها السرور وهي تتابع شجارهما. واستطرد «مراهقة! رينا أمر بالستر. لازم جرحيني قدام سالمين؟»

- أنا بانقدهما من اللي ح تعمله فيها بعد شويه. لما يقوم ويجيب لك قسايد. وطبعًا مش ح تقدرى إلا إنك جاملية. انخرط رفعت في ضحك صاخب. وسالمين علي ابتسامتها لا تدري ماذا تقول أو تفعل. وقد ذهب عنها الخشية والاضطراب.

- أوكى ممكن تسكتي شوية ونسمع فيروز. نظرت إليه مصعوفة: وهو أنا منعك تسمع اللي عايزه.  
- بتكلمى كتير.

- أنا أنا مبتكلمش كتير. هي الحقيقة اللي تضايقت.  
- أسف. أسف.. وابتسم لها عشان خاطر سالمين. فقالت لها وما زال تعبير الدهشة علي وجهها: مش قلت لك.. مفيش فائدة. طرق الباب فهتف رفعت: «ونيس» وقام يفتح الباب. دخل ونيس وهو يحيى فاطمة بحرارة فهمست: صديقتك جميلة..  
- عجبتك؟

جدا من فين وجدتها ؟  
- من أمام مدرسة البنات الثانوية. وعندما واجه سالمين ضحك من أعماقه. سلم عليها وهو يسألها: كيف حصلت علي الفراشة؟

. همست: من خالتي

- بتعرف؟

أبوة.

- باهى أخلعبيه.. تأخرت عليك؟

نظرت إليه ونظر الزوجان كل منهما إلى الآخر وانسحبيا خارجين.  
فصاح ونيس بهما أن ينتظرا. وبين رايعين. قال رفعت ولماذا يبقيان؟

- مو بالسرعة هادى.

- هو فيه وقت عندكم. لما كنت عاشق ما سبتش دقيقة تفوتنى.

طلب ونيس وهو يضحك أن يتمهل عليهما. وأن عليه أن يعرف أن البدوين ليسوا كيف المصريين. وأضاف أنه ربما يكون الأمر مجاملة ليس أكثر. فأجساب رفعت وهما لهذا سسيذهبان قبل أن تقول من فضلك اخرج.

عندما اختليا بالغرفة مد يده يقبض أناملها. فسحبت كرها بلطف وهي تهمس برجاء: لا لا نفعل.

- لن نفعل ماذا؟

- ونيس.. حاول تفهمنى

- باهى.. باهى.. لا بأس كيف حالك؟

- ما بشوف النوم بـكَل أبـتسم: لـشـنـو؟

- بسببك أنت وانت تنام ملء جفونك.

- أنا لما ننام جى أنت. أطبق عليك جفونى وانام.

- جفونك

- ما فى أمن عليك منهم. وأنت أعز من عيني.

ضغطت بصف لؤلؤى من أسنانها على شفتها السفلي وهي تميل برأسها طريا: أنت تنام ولا تعود تشعر بشيء.. نومك ثقيل.

- لكنك آخر مشهد ينطبع على عيني.

- وبیسعونى؟

لم يجيبها. وضعت قلما في فمها وأخذت تعبت به. واستندت برفقها على مسند المقعد. حدقت بعينيه وهي تهمس: حبنى؟

تعلقت عيونه بها للحظات طوال. وما لبث أن ارتسم علي وجهه وجد شديد. وخرج صوته في عمق وروية: توا أقدر أجيبك.. إحنا هنا أبناء العزل الاجتماعي. في أوروبا تعلمت أن الحب مو شحونات من الانفعالات والعواطف. تتكسر علي أرض واقع مجهول أو غامض.. تعرفين كيف؟ اختلاف الطبائع. تعارض الميول والأمزجة. الأشياء الدقيقة السرية التي نخفيها عن الآخرين. وأحياناً عن أنفسنا. أو أن تكون عواطفنا أهواء وانفعالات.. الحب هو الأشياء الملموسة. اللي ينضحها التعارف والمعرفة المتبادلة. بدنا نتأكد من أصالة موقفنا. باهي تذكري أول رسالة الأن..

- نعم

باهي تذكري. كنت قد ارتبطت بفتاه الألمانية. قاطعته: كنت حبيها؟ أجب في حسم: نعم. احتقن وجهها فأستطرد: علي أن أظهر نفسي أمامك. يمكن هذا تاريخ خاص بي. لكن أفضل تعرفيه.

تراخت ونظرت في عفو فاستطرد بقول إنه سأل نفسه وهو علي وشك الارتباط النهائي بها. هل يستطيع أن يقدم لها حياة سعيدة في ليبيا. كانت الإجابة بالنفي. وأضاف أنه عجز عن إقناع نفسه بأن هذا يمكن. لم تكن الأمنيات الطيبة كافية مهما كانت قوة العواطف بينهما لهذا افترقا. وعندما عاد وجد أغلب الفتيات مسوخاً مشوهة. سواء اللاتي يتشبهن بالتطور أو القاعات في الدور خلف أسوار الماضي السحيق.. بنات العائلات ثرية والمسكينات المغلوبات علي أمرهن يتلصصن النظر. يحترقن في ظلام الانتظار الدامس.. من السهل العبث بهن. لكنه لا يدري كيف أراد شيئاً خيالياً.

أمسك بيدها وقال. أما أنت فقد أوقعتن في شباكك بذكاء.. أشعارك ورسائلك التي حكى أغاني العلم.. علمتني كيف أجد فتاة لم تنقطع عن ماضيها عن جذورها. وهي في نفس الوقت متحضرة.

حل بها السسكون والانتباه والرغبة في أن لا ينتهي حديثه وهي تراه يحلق بها الأعالي. وعادها صوته يحبرها أنها فضلاً عن كونها

ذات حسن رائق. كانت كنتك البدوية التي تعشق لمرّة وحيدة. مثلما يلتقي الفتية والفتيات من الرعاة الرحل عند عيون الماء. يحلّ العشق بهما ويرحل كل في طريقه عبر الصحراء الجافة بحنا عن الكلا وعبون الماء فيلتقيان أو لا يلتقيان. والموت بونها العشق لمرّة ثم انتظار الموت أو حمل جبال اليأس في شجاعة وصبر فهل كنت بالجبان الذي يمكن أن يبرهن أنه لا يوجد في وقتنا الحاضر جذورنا الأصيلة؟.. صمت وصمتت قبل أن يمسك بيديها مستطردها: تسأليني.. بحبك.. بأمرى مو بس بحبك. صار بيننا عهد مقدسة. هي أغاني العلم. تعاهدنا بها على عيون الماء. وبلكى ما تقدر أى صحراء تفرق بيننا.

تألفت عيناها بالفرح والبشر وودت لو يمتزجان. وأرخّ عليها القول. ها قد حلّ بها الأمان. ولم يخذلها الفتى الذي عشقته. ولما لاح الاطمئنان علي وجهها. أشرق بابتسامته المتشرقة الواسعة. وتألق عينيه الضاحكتين. ولم ينقذهما من أرجاح القول والاضطراب سوى مجيء فاطمة تدعوها إلى الغداء. استعادا رشدهما وقاما خلفها.

\* \* \* \*

صفت المائدة بالمأكولات المصرية. وجلس الدكتور رفعت بجانب زوجته وجلس أمامهما ونيس وسالمين التي جلست بجانبه. ممتلئة بفرح مكنوم لعلاقاتها السرية. التي اعترفت بها المائدة. والتي ظهرت في ترتيب جلوسها. وفاطمة تخصها بعناية معهودة تجاه العشاق الجدد. تشرح لها ألوان الطعام وتركيب كل منها. مضافاً لذلك عناية رفعت. فضلاً عن عناية ونيس التي كانت حميمية دافئة. فكانت المدللة بينهم. وكان المائدة صفت علي بشرفها. وبين الخجل من الزوجة الصغيرة والاهتمام بونيس. انتبهت علي سؤال رده عليها رفعت مرتين. ولم تنتبه فضجوا بالضحك. أوضح رفعت بأنه ليس ثمة مشكلة. وأن معها الحق.

استفسرت عن أسؤاله بعينيها غير فادرة علي الحديث فأعاد

سؤاله مستمسرا عن الكيمية التي تعلمت منها أغاني العلم»  
وصوب خليل؟

أنا!

قال ونيس مؤكداً «نعم أنت» وأضاف أن الدكتور رفعت قرأ أغانيك  
ومعجب بها بكل همست أنها سبق وأن أخبرته فهل نسي سريعاً.  
ثم قالت «من باني». أصيب رفعت بالدهشة مكرراً ما قالت: والدك؟  
أجابت مؤكدة نعم فهو يقول الشعر. هتف رفعت «لا»  
هو كاتب مسرحي.

صرخ رفعت: كاتب مسرحي. وقاعدة ساكنة. اسمه إيه؟  
قالت سالم الفيتوري. فكر ثم قال كمن يكتشف لغزاً: عرضت  
له مسرحية «الدار الكبيرة». أجابت: نعم. فاستدار رفعت لونيس  
مهلاً: دلوقت معندكش مشكلة. أبوها راجل مثقف. سألها: انتم  
متفاهمين.

- نعم.

- أعني كيف يعاملكن.. علي علاقة طيبة معكم قريب  
منكم؟

- واجد.

- رائع... رائع. قال ونيس: والعجوز.

فقالت في دلغ. أمي صيبة.

باهية مثلك.

أجمل مني. وهي وأبي متفاهمان وبينهما ساعات الصفاء  
كثيرة.

قال رفعت: أه.. كشفنا سر.. أجابت في دهشة: شنو؟

كنت أتساءل.. مش كده يا دكتور ونيس. إيه اللي يخليكي  
عندك الحساسية العالية لتذوق أغاني العلم. وقاطعه ونيس:  
خاصة ما في حد يعرفها نوا. فقال رفعت بانفعال مثقف: هذا  
شيء عظيم... رائع.. لم أجد باللغة العربية تعبيراً بكل هذا الإيجاز  
والبلاغة عن الحبيب الفتي يكنى حبيته بهذه الكلمة «عَلْم».



فيها كل آيات التقديس والبلاغة. اذا أخذت الكلمة مجازاً للرياسة فهي الوطن. قدس الأقداس. يفتديها المرسار بحياتهم. وهي الشخص المعلوم والمعروف بين القوم. فهو العلم من أعلام الأدب أو أبطال الأمة فهي لا تقل جمالاً عن التعبير الأول. لكنه في نفس محبوب سر عن العشييرة. مجهول لا يعلمه إلا العاشق. والنتيجة جمع بين نقيضين لقد اكتشف بين القوم عظيم هو معشوقه المعلوم والمعروف لديه والمجهول من الجميع. فهو الوحيد الذي يملكه. صفقوا له جميعاً. فانحنى يرد التحية.

ضمت سالمين جسدها وانكشمت خت علمها. ورنبت إليه تذكر أول كلمة نادها بها في الطريق « يا علم ». وعاجلها ونيس. وكأنه يقرأ أفكارها «إنها أول كلمة ناديتك بها» هزت رأسها سعيدة بالاجاب. قال رفعت مبتسماً: أنتما كل للآخر «عسلّم». ضحكت سعيدة وأعدت رأسها إلى الخلف ببطء وقالت فاطمة: هي فعلا كذلك حقاً. فنظرت إليها سالمين بلطف وود.

قال ونيس: أنا لما أستمع لأغاني العلم أو للسرب تتجاوب أحاسيسي رغم أنها بيت واحد من الشعر. لكنها قريبة معبأة بالعواطف. سيحملها الرعاة لعام حين يلتقى الأحبة. وقد لا يراه ثانية. وإلى أن يلتقى فعلى أغنية العلم القصيرة أن تكون زاد وعهد الحبة وقسم الوفاء. واستدار لسالمين «صح». ضمت ساعده برفق ونظرت إليه. كانت تهيم وجداً. قال رفعت. إن أجمل ما فيها أنها فن بكر لم تلوثه الحضارة. ووقف يدعو ونيس لقول الشعر من صوب خليل.

قال ونيس هناك مواقف محددة للصوب وهي السلام وشرب الماء. وعليها تتوقف العلاقة بين الفتى والفتاة في السلام بقول العتي.

السلام عليكم،

ترد الفتاة

سلام غالبية الكلام من ضيم يا علمُ نار الغلا ، .

وهذا يعني أنها قبلت بحبه. والماء رمز الحب والفتاة التي تعطي طاستها لشاب مملئة بالماء فهي أحبته. يقول الفتى

«عطيني نشرب»

فتجيبه الفتاة:

«شرايناً توت واللي يذوقه يموت»

فيرد الفتى:

«سوا توت وإلا أموت نذوقه بشهاوات خاطري»

اسمعوا هذه الأبيات وقال رفعت لزوجته.. لا تقفي على رأسي كالخارس واتركي لي حريتي بالحديث فضحكوا قالت فاطمة من ح يقول لك مش عايزين نسمعك. فيادروا للضحك ولكنه استمر قائلاً: اسمعوا

غلاك لا تخاف عليه ستين تأمجة بارقات به (6)

وكل تأمجه ميتين وفيما ثلاثين طبجي

وكل طبجي بأمرأيات يعاين على قيس العدو

ضحكوا ستين موقع حري وفي كل موقع ثلاثون مدفعاً ومنتا جنديا. صاح ونيس مبتهجاً موجهها حديثه إلى سائلين. باهي باهي اسمعوا الأغاني هادي.

«العقل يا بعد الدار يمس معاي وبيات عندكم»

وقف رفعت يسأله أن يعيد القول مرة ثانية. قوم. قوم قول لها.

وقف ونيس ثم مرت ثوان. لكنه ركع أمامها. صعقت فاطمة.

(7) سلامي لا أستطيع التعبير عنه بالكلام بما يتأجج بين جوانحي من ظلم ونار الحب

(8) لا تحشى على حيك محبولة سنين موقع حريباً بكل موقع ثلاثون مدفعاً وكل مدفعي أملم منظاره يرصد به العدو.

وصمت رفعت. والتجمل بكاد بيك بحمرته من وجنتي سالمين. قال.

«العقل يا بعد الدار يمس معاني وبيات عندكم.

لم يتحرك ونيس من مكانه. رنا رفعت بعينيه إلى سالمين. وحدثها بعينيه وهز رأسه يطلب ردها.. بعد لاي طويل نطقت بصوت هامس:

«قليلة نجا يا عين من يوم ما وطيتي نارهم»

شهفت فاطمة. فأمسك بها رفعت ودلها الى الخارج.

\* \* \* \*

انتقلوا إلى غرفة الاستقبال وتابع ونيس عينها إلى الصور المعلقة فقال بابتسامته المعهودة يشير إلى إحدى الصور في خبث: هذا عبد الناصر تعرفينه؟ أجابت بالإيجاب فاستمر يقول في خبث وهذا العم ماو. وذو اللحية والسيجار جيفارا. أرنستو تشي جيفارا كلهم شيوعيون. حتى الدكتور رفعت يساري.

استفهمت بعينيهما فالكلمة قريبة لديها من شيء يشير الرعب وجاءهم صوت رفعت يصيح من الداخل: لا يا دكتور ونيس. منى كده.. أنا ناصري قلبا وقالبا.. إنت بتشوهني قدامها. وجاء مسرعا وضحكة فاطمة تتابعه وهي تقول تناكفه متسائلة لماذا ينكر الحقيقة. استدار نحو زوجته في حنق وهو يقول ضاحكاً إنه سوف يحنقها يوماً. أظريها حنقه وضحكت. قال لزوجته والذهول يحل بسالمين لما يجري حولها. وحضرتك يمينية قوي.. لم نستطع الرد وطفرت الدموع من عينها ضحكاً فاستنظره يطلب منهم عدم التعجل. وأن يتركوه يشرح لسالمين الأمر وسألها لماذا أصيبت بالوجوم.. وإذا ما كانت تراه من أكلة لحوم البشر ابتسمت وعيناها الواسعتان تسألان ولا تنفي أنها تشك في حقيقة كونه قد يفعل.

ياهي أنا أومن أن الله قوة قادرة مهيمنة مطلقة تتصف

بصفة لازمة ليست في محل نفسي وهي العدل. مشكلتي أن البؤس والخراب والجوع والظلم والاضطهاد والاستغلال والبشر الذي يؤثر في أجيال يكاملها على هامش الحياة التعيسة ويرحلون دون أن يتركوا أثراً. أراه أمراً لا أستطيع فهمه ولهذا أعتقد أن على واجباً هو العمل من أجل إقرار العدل بين الفقراء قالت سالمين إن انعدام العدالة في الحياة هي حكمة.

هكذا يقولون. وهي حكمة لا أؤمن بها. فالإنسان أجمل بكثير من أن يأتي ويرحل هدراً

لم تشأ أن تكون في محل جدل فيما تؤمن به. ولم نسع لأن تعيده الى جادة الإيمان. ولكنها نظرت إلى ونيس في غضب طفولي وهتفت: وأنت ؟.

ضح الثلاثة بالضحك حتى هي ضحكت وقد اختلطت حولها الأمور خاطب ونيس صديقه معلنا أن صداقته سوف تضعه في محل الشبهات. فنسى رفعت الأمر. وسألها ألا تخشى شيئاً. هو مؤمن بالقطع لكن مصيئته التفكير

دافع ونيس عن نفسه بأن عدم مواظبته على الصلاة لا ينفي إيمانه. وطلب من رفعت برجاء ألا يستخدم حيثه في إثارتها ضده. فتساءل كيف يثيرها وهي لا تعرف غير الله سدواك.

عادوا إلى الضحك. وونيس يستحلفهم بالله معترفاً بخطئه. أن يتعدوا عن هذا الموضوع. وافق رفعت وقال له ما دمت قد اعترفت فعد عمونا عنك. وعلى العموم سنخرج وبغفركم من رذائنا وترككم وحدكم. لكن قبل ما نخرج اسمعوا ده.

أن كان فيك دمح يسيل يا عين ها ذي دارهم

هذا البيت استعاض عن قصيدة كاملة كالأطلال لناجي.

قال ونيس: الحبيب لا يكني بالعلم فقط. هناك كسيات كثير مثل

(العزير الغلا ولولاف ) وإذا كان الحبيب متزوجاً أو يحب آخر فيكنى عنه  
(المرهون والغني) وفي هذه الحالة تكون أغاني الياس مثلاً:

لولا فزاع الصبرم الياس رلك يا عين ضايعة

قالت سالمين بعذوبة مفاجأة. وصوتها يتداعى رخيماً كأوتار  
البيانو:

نرجاهم أتناشر عام بحساب يوم في شأن الوفاء

وحل بنظراتها الخوف. كأنها تفقده في ذات اللحظة. بهت ونيس  
وامتلاً حلقه بغصة. ونظر إلى عينيها فلمح الخوف من قسوة حمل  
الوفاء وتصميمها عليه حتى لو جاء المستقبل بالفراق. لمس أناملها  
غارتعشاً. وحل صمت بالمائدة ونظر رفعت إلى الفتاة بإعجاب وطلب  
منهما الانتقال إلى غرفة الجلوس. وسألتهما إذا كانا برغبان في شرب  
الشاي فغت سالمين بعبارة الشكر. لكنه أصر أن تشرب. فعقب ونيس  
إنهما سيشربان أي شيء يقدمه من أجل خاطرهم.

اضطرت سالمين وأرخ عليها القول. ارتاحت لفكرة أن تبقى معه  
وحيدة. وخافت من وحدثهما معا أيضاً. لكن المزيج كان خشيتها  
من فهم رفعت ورجته للأمر. لكن صوت رفعت جاءها لينتشلها  
من مشاعرهما وهو يخبرها أن ونيس بالنسبة له أكثر من أخ. وابتسم  
متفكها مستطرداً ورغم أنه ليس ناصرياً فإننا نحترمه ونقدره تقديراً  
فائقاً. كلانا أنا وروجتي نعتبرك أختنا. ونحن سعداء بك وبقبولك  
منزلنا مكاناً للفانكوما. وإنني أرجو أن تثقي تماماً في أنني كنت  
سأوفر لثقيقتي مكاناً لأن تلتقي بمن أحب. بشرط أن تكون واثقة من  
مشاعرهما. واثقة من الشخص الذي اختارته. وقبل هذا وذاك واثقة من  
نفسها. وهو ما أثبت عليه حقيقة وأنا وزوجتي وكذلك الدكتور ونيس  
نعرف ذلك. وإذا كان في استطاعتني شيء فدعيني أنصحك النصيحة  
التي سأقدمها لأختي تصرفي كما يتصرف الشرف نفسه. وما يجعل  
رأسك مرفوعة علي الدوام. وتمسكي بعواطفك ومشاعرك واجعلي

عقلك حكماً. وإذا استلزم الأمر أن تقفي ضد تيار بكامله ففي دفاعاً عن نفسك طالما أنت لا تضرى الآخرين. استدار إلى ونيس فأنلا. هل صرت واعظاً؟ أجابة أنه صار أكثر من واعظ... أصبحت قسيساً.

هر رأسه وقال «ماشى يا عم» واستنظرده أنهم سينتظرونها دائماً. شد علي يدها مشجعاً وقبلتها فاطمة. وحملاً طفليهما ورحلا في سيارتهما الصغيرة إلى البحر.

\* \* \* \*

بقيا لفترة والكلمات معلقة على فم كل منهما. خطر لسالمين أن تصنع شيئاً. فهمست سأحضر لك شيئاً. هل تشرب الشاي؟.. أرى لا يشرب الشاي إلا من يدي أجابها بكل حواسه «منك».

سارعت كي تعد أحلي شاي بحياتها. شسابها هي وانتظر كي يتذوق ما صنعه له فتاته. ذهب خلفها إلى المطبخ يبحثان معا عن السكر والشاي والملاعق وأكواب الشاي. ولما أنتهيا حملت صينية الشاي. وعليها كوبان وعند غرفة النوم تمهلت ووقفت علي عتبتها. ولحق بها. ومتعه روحية تسرى في جسده. تلمسا الغرفة بعينهما. وخيالها يدور حول الأشياء الغامضة التي تحويها هذه الغرفة وفراشها. وتربو بأحلامها إلى غرفة نومها الخاصة.

أما ونيس فقد خطرت في ذهنه عشرات المداعبات الجنسية التي أتقنها علي أيدي الأوروبيسات. وخطر له أنها جهلها. وأنها قد تخشى الصراحة الجنسية. وفكر أن قليلاً من المتابعة منه والحب منها. قادران على أن يكسرا غلائل الخجل المترسب الذي أسماه الجهل.. ولفترة طويلة لم يخطر بباله أي مشاعر جنسية مبتدلة. فقط حذر ورعشات كأمواج البحر المنعشة. ونار هادئة تركها كي تنضج علي مهل. وحتى يحين زواجهما. همس: سنشترى غرفة نومنا من إيطاليا. لي صديق يحضرها لي من دور ربح التجار.

نظرت اليه دون أن تتحدث. مردان قلبها بالسعادة. لقد بدأ الحديث حول مملكتها الخاصة. فأخذت كفه في يدها. ودفعته إلى الخارج. وهي تبتسم وقد حل في نظرتها هدوء كثيف. يبرق من تحتها وهج ناعس يرنو إلى المستقبل. خدنا كثيرا وعندما سمعنا الأخان الشعبية. نظر إليها ونظرت نحوه والتمعت عيناها. قال لها: هيا.

- شنو؟

- ارقصى. ضمت بأسنانها شميتها السفلي وهي تستمع

بالمكرة

تبي نرقص؟

- نعم.. هيا

- لكن.. قامت مضطربة.. عندما ضمت ساعديها مستقيمين بمستوى كتفها وجسدها يتشبع الايقاع وبدأت تحرك قدميها الصغيرتين حافية. وأردافها تهتز في تناسق. رأى أصابع قدميها رفيقة جميلة. وقدميها الدقيقتين يتنقلان دون أن يتركا الأرض. وتماهى جسدها بخفة مع الموسيقى. وانطلقت نرقص جذلة. وكلما لمح حركة نهديها الصغيرين الصلبين أحس بالدنيا تنبض بالحياة. سرعان ما نسيت اضطرابها. ساعتها طيرت جدائلها خيمة واسعة تظله من فيض الهجير والصحراء.

عندما حلقت جدائل شعرها تغطي وجهها ورأسها يهتز يمنة ويسرى. وهي تنظر له ضاحكة. وهو مشدوه كصياد أسرته حورية البحر. وكلما لمحت دهشته تماهت نرقص وترقص سعيدة حتى انتبه على دقات الساعة. نادها: سلمى سلمى نظرت له وهي نرقص وقد بلغت نشوتها العنان

- تová تبي نرقص

شنو؟

- تأخرت واجد. تأخرت. توقفت عن النرقص. وقد انتهت للوقت.

قالت وهي تلهث. يا ربي ترى أنا نسيت نفسي.

خطفت العباءة. تاعها وهي تلف نفسها. وقيل أن تغادر الشفة توقفت تنظر إليه قبل أن تقترب منه بجواره تقبل وجنتيه. تماما كما قدرت أنها ستفعل. اندفعت تنهب السلالم نهباً. تاركة إياه في غيمة من فردوسها السماوي.

\* \* \* \*

حل الخريف وراحت الأوراق تتساقط عن أغصانها وبدأ السهل الساحلي يموج برياح خفيفة. مودعا الصيف بعذوبة لسماء صافية مظلمة بسحب الشتاء القادم. وأخذت الأيام تأتي بزخات المطر المتقطع إيدانا بقرب قدوم الشتاء. انساب الأم فلق الأمهات. تتطلع لزهرتها البكر وهي تفتح. تراها ساهمة واجمة. تقضي لياليها تلمح البوادر الغامضة لسلوك ابنتها وتصرفاتها التي تطبعها أحاسيس حب بكري.

أصبح ونيس صديق إخوتها الصغار. يعطيهم الحلوى. ويتبادل معهم الحديث. وعندما يقبل قرب دارهم. يشيرون إليه. ويندفعون يخبرون أختهم الكبرى. فتتابعه من فرجة في النافذة. غاضبة سعيدة تهوره. وقد أصبح الدرب الضيق اللتوي الذي يبدأ مواجهها لثانوية البنات. طريقاً مألوفاً لسيارته. يعبره يومياً دون ملل.

نعوداً أن يلتقيا كل ثلاثة أسابيع. وفي كل مرة تتركه وفي صدرها نشوة عارمة. ولم تتجاوز علاقتهما الحسية الأرجاف الذي يحل عقب تلامس الأنامل. والدفع الذي يشع عندما يقبض بكفه على يديها الصغيرة. مرات كثيرة كانت تعد له الطعام في منزل صديقه: حُضر في الحادية عشرة. وتشمر من ذراعيها وتروح تصنع لهم أطباق ليبية وفاطمة تساعدها. ومرات أخرى عديدة كانت تأتي محملة بأنواع الطعام التي ستقوم على صنعها. وقد زادها



بدت المدينة أكثر جمالا واتساعا وصفاء. رغم أنها تبدو في عبور الآخرين طاقة مكتومة تدفعهم إلى اللهاث دون شفقة. المعمار والأضواء الكهربائية تنتشر في أرجائها بسرعة البرق والأحياء السكنية القديمة خل محلها أحياء جديدة. ومحل اللون الترابي الكابي المغربي رجل الأسمنت الناصع. علامات الطرق العاكسة ومكان الحدائق والعرائش والدور والأحواش ذات الطابع الأندلسي القديم كانت ترتفع العمارات العصرية ذات الغرف السكنية الضيقة. وتتكدس الحسابات والأرصدة السرية للتجار ومقاولي البناء في البنوك. وخارجها. كان الضحايا من الشباب الذين وقعوا فرائس التطور الانفجاري.

«راقبها وهي تسقط»

كانت المدينة تستيقظ بين عشية وضحاها على ضحايا من فتيات وقعت بين رحا التطور المادي السريع. وقسوة القيم القديمة. لاحظ ونيس أقسام الاستقبال وغرف الجراحة وهي تستقبل حوادث الاغتصاب. وحالات الانتحار بعنف مكنوم. دون أن يحاول أحد مواجهتها. ويوم جاءته تلك الزوجة الشابة البائسة. مهلهلة جسديا مدمرة نفسيا. بعد معاناة دامية عقب قيام أربعة ذئاب بشرية باختطافها. بينما كانت تنتزه مع زوجها بالجبل الأخضر والولوج بها إلى مغارات الجبل والقيام بانتهاكها واغتصابها ثلاثة أيام متواصلة. دون أن يجروا زوجها على الإبلاغ عن الحادث. حماية لسمعته. كان ونيس يحاول مع الدكتور حميد البرغثي مدير عام المستشفى إنشاء قسم خاص للعلاج النفسي يتولى تهينة ضحايا الانتحار والاغتصاب لتقبل العالم وتقبل المجتمع لهن ومساندتهن. وقد جعل من هذه السيدة نموذجه الأول.

هذا الصباح جاء مغبرا. فالصرخة التي أطلقتهن الممرضة

كانت تنم عن الكارثة. فالسيدة التي كانت قد بدأت تستجيب للتجربة وجدت منتحرة وبجوارها ورقة طلاق تركها زوجها على وسادتها في المرة الوحيدة التي قام فيها بزيارتها

بعد غروب اليوم السابق. لُحِت الغتاة التي تقود السيارة الفيات الحمراء تصف سيارتها في أحد الشوارع الجانبية. بعد أن قامت بتوصيل والديها التي عزاء أحد الأقارب. وتنتقل خلسة إلى إحدى السيارات المرسيديس الفاخرة. لابن أحد كبار تجار المدينة. حيث أخذها إلى إحدى شققه الخاصة.

لم يشفع لها رجاؤها للفتى حياة طبيعية. مزقها ولم يكن ليقيها من ذلتها أحد.

نزهة المتعبة في سفورها. جلس طويلا في شرفتها تستعير منه سجنائه التي يحتفظ بها لديه. تدخنها بشراسة حتى تظهر سيارة أمر الحامية فتدخل وعلى وجهها تعبير ماكر موجه لونيس يقول سوف أقتنصه زوجا شاء أم أسي.

كن جميعا يملكن المؤهلات الضرورية لزيجات وارتباطات صالحة. الجمال والحسن البدوي والمستوى اللائق من التعليم. والرغبة المفعمة بالحب في الحياة. فلماذا لا تستوي رغباتهم. لماذا ترتدي كل منهن حذاء ليس لها؟

كلما تلمس قاع المدينة. انشد تمسكه بسالمين. التي أعلنت عن حبها له بجلاء. وعندما اعترضها في أحد الأيام مهندس شاب عند إحدى صديقاتها فسي دعوة لم تدرك العرض الكامن وراءها. تقدم يعرفها بنفسه: اسمح لي بأن أقدم لك نفسي مهندس عبد الله المصمودي. بي أسألك قبل أن أتصرف من نفسي. تقبلين الاقتران بي. كانت إجابتها له واضحة بجلاء: أسفة أنا مخطوبة للدكتور ونيس بوزوي.

أمام دهشة ونيس قالت انه ليس لديها ما تخفيه. أنت الأول والأخير في حياتي.

شعر بالخوف. فتشبيثها به وهي تفرن اسمها باسمه في مجتمع يدوي سيزيد من أعبائها. لكنه أستعاد الشعور بالاطمئنان عندما أبلغته أن خالتها تريد مقابله.

في محل العطور التقى بسالمين وامرأة صغيرة لم تتعدى الثالثة والعشرين. خدنا طويلا. كشف ونيس بسرعة عن نفاء سريرته. ووجهه المشرق وضحكته المتألقة وسلوكه المهذب المتحضر الذي يترك لدى من حوله أثرا بالغا. سألها إذا ما كان نجح في الاختبار. أجابته بمرح «قالت لي تشبثي بيه «بايديك وكراعيك» وأعقبت وهي تمثل التأفف: هكي ترى الجميع يوافقون على القول بأنى لم أسن الاختبار.

\* \* \* \*

وفي نهاية الأسبوع الثالث من شهر سبتمبر رحل ونيس إلى الحضر بعد أن استدعاه عمير لمقابلته على وجه السرعة. استقبلته فاطمة التي أصبحت سكرتيرة رئيس مجلس إدارة المؤسسة باحترام. وأدخلته إلى أخيه. وجده جالسا مع مجموعة من الفنانين والمهتمين بالفن والأدب والموسيقى. خليط من الشباب والموسيقيين ورجال المسرح ومصورين بالتليفزيون. وهو يتحدث معهم حول أهمية سماع الموسيقى الكلاسيك. وتكوين النوادي الفنية لمثذوقي الموسيقى ومحبي المسرح. والدور الثقافي الذي يمكن أن يلعبه الفن في أوساط المتعلمين من الشباب.

أصابته الدهشة لاهتمامات أخيه الجديدة. فلما انتهى استدار إليه وأخبره أن عليه أن يجهز نفسه للسفر بعد خمسة عشر يوما إلى لندن. ليلتقي وأخاه ناصر الذي سيعرفه على أحد أساتذة الطب المصري. ليفوما معا بإتمام التعاقد على شراء المعدات والتجهيزات الطبية الخاصة بالسبتشفى المرع إنشاؤها بمصر. فتح ونيس فمه

مندهمئسا. حاول أن يوضح أن الأيام المتبقية لا تكفى للحصول على إجازة. أو إجازة أوراق السفر والتأشيرات اللازمة. لكن عمر أخيره أنه سيأخذ المسألة على عاتقه وطلب من فاطمة أن تتولاها شخصيا. وفي صباح اليوم التالي حضر ونيس إلى المكتب. وحده التليفونات تجري على قدم وساق لتذليل عقبات السفر. ترك ونيس جواز سفره لدى فاطمة ورحل عائدا إلى مقر عمله لإتمام إجراءات الإجازة. لم يجد صعوبة تذكر فقد سبقته التوصيات اللازمة. وقبل ميعاد السفر اتفق مع صديقه رفعت أن يذهبوا في رحلة إلى ساحل الجبل الأخضر. وكي تذهب معهم سألين فعملت المستحيل من عشرات الحيل ترجو خالتها حتى تغطي ذهابها. وأخيرا وافقت وقلبها يرجف من انكتشاف أمرهما.

في صباح الجمعة خرجت سألين من منزلها باكرا. والسماء مليدة بغيوم خفيفة. وذهبت إلى خالتها حيث أخضت نفسها جيدا داخل الجرد. وخرجتا كل إلى جهة: حيث ذهبت الخالة إلى البوادي ترور كنتها. أما سألين فقد يممت شطرن منزل الدكتور رفعت.

استقبلت بالتهليل. وأندفع طارق إلى حضنها مرحبا. كانت فاطمة قد أعدت كل أدوات الرحلة. موقد غازي صغير وثلاجة رحلات. وكراسي بحر. وأدوات طعام وشاي وقهوة وفخذ ضان للشواء. وأنواع السلاطة والخللات. قام الثلاثة على نقلها للسيارة الفولفو التي أحضرها ونيس خوفا من أن يتعرف عابر على سيارته البيان فيو. في حين بقيت سلمى تلاعب طارق وتستكمل له ثيابه. وفي الساعة والنصف صياحا تسلمت السيارة من أمام منزل الدكتور رفعت. وقد انزوت سألين في المؤخرة بجانب فاطمة. مستتره داخل الجرد. وبينهما جلس طارق يغرد لأمه. كان ونيس قد ترك لرفعت قيادة السيارة. وهو يمني نفسه بأن يستطيع إخفاء وجهه خلف إحدى المجالات. حتى لا يسأله أحد عن تلك المتخفية بالكرسي الخلفي في العربة التي يقودها. بينما رفعت يسب ويلعن اضطراره قيادة

سيارة فخمة. لكنه ما إن أخذت تعب الطرقات الداخلية للمدينة التي غسلتها ميساه الأمطار ليلاً حتى أخذ يستنطيط قيادتها. وبعد عشرين دقائق أصبحوا خارج المدينة. اتخذ وجهة البحر. وكان المطرف بدأ في الهطول. وعلى الطريق الساحلي سلكايم العرب. انعطفت رفعت يمينا عبر الكوبرى الحديدي القديم. وأصبح بالطريق الساحلية القديمة وأخذ يسير باتجاه رأس هلال.

\* \* \* \*

عندما انعطفت إلى الطريق القديم تخلت سالمين عن انكماشها. ونفضت عنها الجرد الملتفة به. وفاطمة بجانبها تضحك بطيبة بالغة لموقفها. قالت في عصبية. شنو أسوي؟ النساء عبيد ببلادى مش كيف مصر.

ضحك الثلاثة لعصبيتها وابتسسم الصغير وضحك هو الآخر. وكان كلما رأى أمه تضحك غرق في الضحك. لانت ملامح سالمين وابتسمت وعادت تسوى شعرها. بوغنت بصغير رفعت وهو يطل عليها من المرآة العاكسة للسيارة. وهو ينم عن إعجابه. وصاح «يا لطيف». وكاد ينحرف بالسيارة وهو يحدق بها هتف به ونيس: باهت قدامك. كنتك تموتنا. أجابه بأن الموت لن يكون بسببه ولكن بسبب الجمال الكائن خلفه.

نظر ونيس إلى الخلف وكأنه يراها لأول مرة. بهرته فنتتها: عنقود كروم تتفتح عن حبيبانه الخضراء. كانت سالمين ترتدي بتطلاا وقميصا قصيرا أيقا كاوبوي. التضا حول جسدها بدقة وضم القميص نهدين متكورتين برفق. وقد تركت الرزاز العلوي مفتوحاً يجذب الخيال لما يخفيه. برز ساعداها وعنقها العاجي. واختفت أطرافها تحت شلال من الجدائل الناعمة السوداء لشعرها الأجد الطويل. الذي أطلقته من عقاله. فغطى ظهرها وساعديها كالعباءة فبدت بوجهها الخالي من المساحيق وردانها الأنيق غصنا يانعا للثياب بخطو السابعة عشرة برفق وارتخاء.

والتقت عيناها بندلره إعجاب من ونيس الذي استند بذقنه علي مسند كرسية يحدق بها فاستنامت بنظرنها إليه. معمضه العينين في كسل وسرور خفي. كانت تخطط لإثارة بفتنتها وقد تجحت. ولأول مره يود ونيس لو يهصر خصرها بين ساعديه. استفاقت علي خواطره ونظراته النماذة. ابتسم ولم ترحل بعيدا عنه. كان ردها افعل لو استطعت.

أخذت السيارة تخب الطريق الأسفلتية الوعرة في ثبات والطريق تيل جهة الجبل. ولا تلبث أن تعود إلى جهة البحر لتصبح في موازاة الساحل مرة أخرى. ومن الخلف أخذت سيارة مرسيديس بيضاء تسرع خلفهم حتي تجاوزتهم وكانت تحمل عائلة أوروبية. فاعناظ رفعت وراح يطاردها. وبلحقها بنفير السيارة حتى أخلوا له الطريق الضيق وعندما تجاوزهم. تبادلوا عبر النوافذ التحيات والتلويح بالأيدي. عندما بدأ زاد المطر في السقوط.

\* \* \* \*

يمتد شاطئ البحر المتوسط لولاية الشرقية مئات الكيلومترات حيث يطل الجبل مباشرة على البحر. تاركا شاطئاً رملياً. وطريقاً ضيقة للسيارات تدور وتلف في انحناءات حادة محملة بالخطر والجمال. قال رفعت إلى مدينة الشحات أولاً. فوافق الجميع. أدار مسجل السيارة بصوت فيروز فراح كل منهم يحدق إلى الطبيعة. التي أخذت تكشف عن نفسها كلما توغلوا في اتجاه رأس هلال. والسيارة السويدية القوية تلف الطريق المنوية في قوة وقسوة. عبر هضاب واطنة. لا تلبث أن يسقط بها الطريق سريعاً في انحناءات رأسية وأفقية حادة وشديدة الانحدار غير آمنة. حتي تلامس مؤخرة بطن الطريق. وكلما لامس الطريق البحر بزغت خلجان صغيرة امتلأت بحصى أبيض ضخم. يبدو مثل بيض طيور خرافية قدمت من شواطئ بعيدة. ورحلت لتعود على مواعيد. تعالت صيحات الإعجاب بالطبيعة. وتأوهات الخوف عند الانحناءات المماجنة الضيقة الخطرة.

عبروا قرية صغيرة وما لبث أن انحرف الطريق ثانية جهة الجبل وأحد بالصعود إليه عبر انحناءات حلزونية متوالية يرتفع الطريق عندها بشدة. وهو يستند علي كتف الجبل من جهة. وخف به هاوية عميقة من جهة أخرى ومن الخلف. حل بماطمة وسالمين الرعب. وتصاعدت صيحات الفزع. كان الطريق في حاجة إلى معاودة تبديل سرعات السيارة باستمرار وفي إحدى الانحناءات الخطرة الصاعدة. لم يتمكن رفعت من ملاحقة تبديل السرعات في الوقت المناسب. فارتجت السيارة بشدة وانطفأ محركها. ووقفت عند بداية المنحني الصاعد. وبدا أنها سوف تعود إلى الخلف. نظرت الاثنان خلفهما كانت الهاوية عميقة. حل بهما شعور بالكارثة. ضغط رفعت علي مكبح السيارة بشدة. وقد ارتج عليه الفعل كان غير قادر علي رفع قدمه من فوق المكبح كي ينقلها إلى دواسرة البنزين خوفا من أن تنزلق السيارة إلى الخلف. نظر ونيس وضحك برعونة. يراه لا يدري ماذا يفعل. مد يده وجذب فرامل اليد بشدة. فتوقفت السيارة ثابتة في مكانها.

- باهى أرفع قدمك عن (الفرينو)<sup>19</sup> ففعل. علق السرعة الأول..  
توا اضغط علي البنزين ببطء. نزل فرامل اليد في نفس الوقت.  
فعل لكن داس بقوة علي دواسرة البنزين. صرت العجلات بشدة. عندما أخذت السيارة تبدأ في الصعود مرة أخرى. ولما خلفوا الهاوية عادوا إلى الهدوء والابتسامة القلقة. وسط شعور بالمغامرة يكسر الرتبة. سأل رفعت ونيس أن يقود السيارة بدلا منه. فرفض «هادي سهلة يا راجل. توا أنت تكمل بينا وأنا نسوق لما نعود».

هبطوا إلى سفح الجبل ثانية. والبحر أمامهم متد رحيب. وعادت الخلجان للظهور. وبدأت القيادة وهم يعبرون الانحناءات الشديدة للجبل والتي تكررت كلما التقست مصبات الوديان التي نصب بالبحر مع الخلجان متعة لا تقدر. وراح رفعت بمسك بقوة مقود السيارة. وقدماه تمثلت حساسية الطريق.

عبروا رأس هلال إلى سوسوسة. وفي سوسوسة ضاع الطريق إلى شحات. وما لبثوا أن استدلوا عليه من سكان القرية. وعندما تركوا سوسوسة خلفهم انقضت السماء عن شمس صافية. يدفئها السهل. وانتشر هواء معشّ عليل. وسحابات صغيرة تتناثر كحبات عقد من اللؤلؤ علي وجه الشمس. وتحسن الطريق رغم خطورته. ومن بعيد شوهد المشهد الأسطوري للكهوف والمقابر الرومانية المنحوتة في صفوف مترابطة على متواليات من الأقواس الساكنة في باطن الجبل وسفحه.

تقدم رفعت وزوجته وبينهما صغيرهما. خلفهم سارت سالمين بجواره. كتفها يلامس ذراعه. ثمّة لهب ساخن على امتداد حدود التلامس.

وقفوا في صمت في البهو الكبير للمعبد الروماني يتأملون تماثيل عارية لرجال ونساء. تعبر عن مقاييس الجمال الروماني. خل الدهشة في الخفاء وإعجاب لا يعبر عن نفسه. ولوح رخامية لزمن قبل الميلاد. وأسماء رومانية وقطع لتماثيل مكسورة وضعت أجزاءها في أماكن متناثرة من البهو. وعندما بلغوا نهايته. عبر سالمين وونيس العائلة المصرية باباً صغيراً يفضى إلى مسبح حجري عند خلفه الجبل منبسطة في نتوءات مزدانة بالتماثيل. وبقايا معد مهدم. تنتشر في أرجائه أشجار باسقة وبعض الشجيرات. وامتد الفراغ بالعشب الكثيف.

تابعوا مجارى المياه الجارية في القنوات الحجرية. قال رفعت إن أجمل ساء روما من الحفريات كن يستحمن هنا عراباً. يا الله.. أحب الإنسان جسده منذ قديم الزمان. ونحن نزرع تحت أطنان من الملابس.

في نهاية الساحة انتصب بناء ضخم لمسرح روماني كبير. وعلي الأرض كان هناك خط سكة حديدية ضيقة. راحوا يتناقشون إذا ما كانت تنتمي لعهد الرومان أم لعهد الطليان. قال ونيس الطليان هم الرومان والرومان هم الطليان فسيان. وإن كانت



تستخدم في نقل التماثيل وقطع الأحجار. كان المكان خالياً إلا من أفراد فلانل أغلبهم أوروبيون يعملون مع شركاتهم. التقوا بالعائلة التي عبرتهم بالسيارة المرسيديس البيضاء. فحيا كل منهم الآخر. رحلوا باتجاه المسرح الروماني كان مشبداً علي حافة الجبل. صاح طارق خلف أمه. مد ونيس يأخذ بيد سالمين. يعنون درجات المسرح إلى أعلي في حين تخلف عنهم رفعت كانت مدرجات المسرح الحجرية علي شكل نصف دائرة تتسع بأعلى وتضيق تنتهي بمنصة المسرح الحجرية التي أحيطت من الخلف بمدخل وممرات عديدة. جعلت منها كواليس له.

فجأة خرج عليهم رفعت من وراء الكواليس الحجرية وقد خلع الجاكت. متلفحاً بملاءة كانوا قد جلبوها من أجل افتراش العشب. صفق بيده وهتف بشكل مسرحي.

أيها السادة من أشرف وأحرار روما، ها هو البطل الذي فتح العالم وجلس الأرض تحت قدميه. حية للقائد المظفر من شعب روما المعظم.. يوليوس قيصر في مشهد مصرعه.

عاد رفعت إلى الكواليس وقد ارتدي فوق فانيته الصوفية الجرد الذي جاءت فيه سالمين. وقد لف جسده. بدأ مثل العباءات التي يرتديها شيوخ روما.. تقدم إلى المسرح يمثل شخصوها جميعاً.

قيصر قيصر... أعف عن أخي.

إن أخاك قد أخطأ.

كاسيا ولكنك العظيم الذي يجب أن يعفو.

قيصر: كاسيا العدالة عمياء. وكل من أخطأ يعاقب.

كاسيوس قيصر اعف عن أخيه.

قيصر. كاسيوس..

كاسيوس: خذها مني طعنة جلاء.

قيصر: أي. ينحني رفعت علي بطنه وأخذ يعدد أربعة عشرة

طعنة. حتي الطعنة الأخيرة. التفت إلى الخلف وهتف: حتي أنت

يا بروتس ثم سقط على الأرض. ضحكوا ثم قام قائلاً الآن أقدم لكم مشهد أنطونيو

فجاءته صيحة من فاطمة من أعلى المسرح وهي تصيح:

- خطأ

أي خطأ

كل الذي تفعله خطأ

حسنا أخبريني أين هو الخطأ.

حتى أنت يا بروتس إذن فيصير يجب أن يسقط...

- ولكن التعبير صار مجازاً في كل العالم عن طعنه بروتس.

أجابت في حمية وهي تشبر بيدها: ولهذا فهو خطأ أن تكون طعنة بروتس مجازاً للديمقراطية. وليست المجاز المتبذل عن الصدقة. يصبح المعنى مختلفاً ويصبح القول «حتى أنت أيتها الديمقراطية إذن يجب أن يسقط قيصر» هذا ما يعنيه شكسبير

فصاح بها رفعت أن لا تتعجل فالمشهد القادم سوف يجيب عليها ويفحّمها. فينبغي عليها أن تعلم أنه لا يوجد ديمقراطية من أجل الديمقراطية. سألتته عن المشهد القادم. كانا يتصاحبان بصوت جهوري ويتعاركان بجدية وكأنهما في حلبة نقاش ثقافي أو سياسي. هو يقف في منتصف المسرح وهي تقف في نصفه الأخير تشيح له بيدها. وونيس وسلمى يتابعانها ويضحكان.

قال رفعت المشهد القادم لأنطونيو عن قيصر رب الفقراء. الذي سيسنتطع به شنن حرب على مؤامرة الديمقراطية لبروتس. كي تطيح بها نهائياً معلنة صعود الإمبراطورية والديكتاتورية.

صاح به ونيس وهو يترك يد سالميّن. عشان هكي صارت فاطمة علي حق وتفسيرها صحيح. استدار إليه ساخطا في مشهد تمثيلي يحدث ونيس ممسكا بقلبه: حتى أنت يا ونيس.

انفجروا بالضحك. لكن ونيس وقف وقال بجدية بصوته الجهوري ودون أن يلتفت إلى مداعبته. وسالميّن تنظر متطلعة لما ينوي قوله. «حب الفقراء دون ديمقراطية يولد الديكتاتورية»

فهتمت فاطمة موافقة وراحت تصفق. وهي تهبط الى زوجها  
وصرخت سالين «صح.. صح.. صح برافو ونيس». واستطرد ونيس «وكيرا  
ما يكون الادعاء بحب الفقراء الغطاء الذهبي لصعود الطعنة»  
فالمشهد المغرم به حضرتك. لا يعبر لا عن حب قيصر الى الفقراء.  
ولا عن حب أنطونيو لقيصر. قدر ما يعبر عن انتهازه أنطونيو  
وتلاعبه بمشاعر الفقراء. والذي برهن به سكسبير على قيام  
الديكتاتورية بعد عام من موت قيصر. صاح رفعت. صح صح  
موافق برافو فاطمة.

وصفق الجميع وسمعت سلمى خبي بلهائة مساندها لانه  
جنسها. فاطعهم رفعت وقال «خلاص.. خلاص أنا علطان اسمعوا  
المشهد الانتهازي». وأمست فاطمة بين مسانديه. ثم رفعها بين  
ذراعيه. قال وطارق يتبعها بصعوبة شديدة. ويهبط من أعلى  
المرح بصعوبة.

« ويلاه قتلتك جولبيت». وضعها على طاولة حجرية وصى  
مغمضة العينين. ومال يبكي فوقها ويسأل برودة الموت الشاهقة  
أن تتوقف قليلا قبل أن ترحل بحبيته التي لم يروها بعد الشباب  
بدمائه الحارة.. كان عدد من الأوروبيين يراقبون المشهد من أعلى.  
وقد انهمك رفعت بالمشهد حتى انه مال يقبل عنقها ووجها ويلثم  
الموت في جبينها. ثم عاد إلى الوراء قليلا وهدق فسر. نغرها  
يعلن أن السم الذي جرعه سوف يتجرعه من فمها.  
بها إلى السماء.

كان الصمت يرم على المسرح وسلمى خمدت

أمامها الذي بدا حقيقته وبينما

وهو يسأل القدر خيائته لهما

عينيهما

لنهما الصمت

الى سمعته قبل أن تجديه نحوها وتلقه.

يعبت في ديلهما.

تعالى الصيحات والصفير. وصفقوا

طويل دون أن يأبه بأحد.

أثار المشهد عواطف العاشقين. التفت كل منهما للآخر بينما فاطمة تأخذ انهما ويضم ثلاثتهم الآخر في صخب ومرح. هرب رفعت نظمله. وأمّه حاول خطفه من بين ذراعي أبيه. وهي تهددهما فأخذا بالجرى وراح العاشقان يتسلمان فاطمة تجري خلفهما عندما انثني روجها فأخا ذراعيه فجأة فسقطت في أحضانها لاهته.

همسبت: مدهشين.

هز رأسه وضغط علي كمها وقال. عيا نرحل.

توعلا الأشجار القليلة بالحديقة إلى سور حجري عتيق فوق عمال المسارع روماني فاستندت بظهرها إلى قاعدته. ووقف قبالتها على بعد خطوتين وأضعها كعبه في جيوب بظالمه. يحرك قدميه في قلبي. لم يجدا ما يفولانه. فصمنا قبل أن يسألها كيف استطعت الحجيء. أجابت في صوت رخيخ وكأنها وجدت ما تتعلق به. الفضل في ذلك يرجع إلى خالتها التي فعلت المستحيل. ولولاها ما استطاعت الحجيء. كان يود لو يشكر خالتها. إلا أن هذا لم يكن مهمًا للتعبير عنه في هذه اللحظات. وارتفعت عواطفه وانفعالاته بكلمات متورة تسد حلقه. لو لم تجيى لو لم تجيى..

سُبو كنت تسبوى؟

سبوات حركة رأسه. وهمس بأنه لا يدري. همسبت تخفف اضطرابه بأنها قد أنت كاتا يندفعان دون إرادة نحو الشلالات. أمسكت بتلابيبهما تبا. المسارع والاشلالات. لم يعودا بعد سبها. أنت أجمل من عرغت» واقترت مسها بشارة. جديدة. حياتيئيمها كأخذت تلهث. وعانده. فخرج وبه رنة اضطراب وبه العشوة.

سبها المتهدلة في جيبها فقالت... نسبوسو أوقعك الله في طريقي

انا « وتوقفت عن الكلام، وأنامله علي وجنتها المشتعلة كالجمر. مسده بكفه العريض. نامت بوجهها عليه. وهي تحرك رأسها كقطعة نداء كف سيدها. ثم ما لبثت أن ضمت كفه بكفها إلى وجهها. وبعته أخذت تلثم راحة يده.

نظر مصعوقا والدموع تترقرق في مقلتيها. راح يقبل جبينها ويهبط بنغره الي عينيها مفلا دموعها. أغمضتهما. ولحظة حط ميسمه علي فمها تهدل ذراعها إلى جانبيها من فوره.

\* \* \* \*

صعد الحمامات وهي خلفه ومنها عبرا إلى الكهوف المحفورة في باطن الجبل. كانت المياه ترشح في جوانبها من مياه المطر. والبحر متدا يتجاوز الأفق تحلف ونيس متعمدا. وخرجت سالمين ثم ما لبثت أن اضطرت لانتظاره. كانا وحيدين. جذبها إلى صدره فاستسلمت. مد يده إلى ظهرها يملأه بكفه. استكانت بينما بقي نغرها المزموم بشده عصياً على الانفراج. حتي قبض علي شفتها السفلى. ضغط برفسق فتراحت للحظة. حتي تمكن منها. فأخذ بعصره. اختلط رضابهما فدارت بها الدنيا. وأحسست بالأرض تميد من تحت قدميها. وصدرها ينسحق علي صدره. لقد دأصمتها الذروة ميكرة طازجة منعشة.

خاملت علي نفسها. جذبت جسدها بصعوبة إلى الخلف وفي عينيها غشاوة. همست بعصية. شنو نسوي؟ أجاب بالصمت. سارت خلفه تائهة

\* \* \* \*

أنشاء عودتهم باتجاه رأس هلال تبادلوا الأماكن. جلس رفعت وزوجته وطفلها بالخلف. وبعيت سالمين إلى جواره بالمقعد الأمامي ومذاق قبنته يلسعها برارة العلقم. تاركة جسدها لخدرة وأشياته

وضع حزام الأمان. وساعدها في وضعه ثم اندفع بسرعة شديدة عبر الطريق المتعرجة الخطرة بقود السيارة في مهارة واقتدار. أخرجها من صمتها مشهد الأعشاب والأشجار الممتدة على جانب الطريق. وعلامات مسجياته تنابع في سرعة. والسيارة تميل وتئن من قوة الدوران عند المنحنيات. هتفت باسمه. وصرخت فاطمة وبفي رفعت صيامتنا. أجابها « ما تخافى من شىء.. معاي ما تخافى من شىء » قالت فاطمة «أيوه معه ما تخافى من شىء. ولما تحصل الكارثة مش ح تلاقية» قاطعها روجها يسأله عن الحد الأقصى لعداد السرعة.

- مائتان.

إذا كان دي سرعة السيارة فكل تقليل من سرعتها إهدار لها.  
صرخت سالمين. هكى يا دكتور.  
هكى الحركة والفعل.

قالت فاطمة: بالله عليك يا ونيس ماتسمه علوش.. بهموى ضحك.  
قالت سالمين: وشسنو ورانا بيش تجازف أجابها رفعت إذا كان  
وينيس متمكناً من القيادة. والسيارة قوية زي المولمو. والطريق  
خالية. يبقى للمحازفة معني.. المشكلة في حاجة وأحدة بس.  
قالت سالمين. شسو؟

أن الدكتور بسلامته ينسسى الطريق. وينتبه للقمر اللي  
ساكن جنبه.

أنا

نعم أنت سمعت بالله عليك تنيه لطريفات.  
أجابه ونيس مازحاً: ما أقدر. أسداسا مش بايدي.  
قال رفعت مؤيداً: طبعا ما تقدرش. هذه اهابة للقمر اللي قاعد  
جنبك.

ابتسمت سالمين بغضب. وانكمشتت بسبكة بمسند الباب

تتشبث به عند ميل السيارة بالمحبات. ملصقة وجهها بجرّاح  
النافذة تراقبه بمتعة من طرف خفي كان وسبما عارعا كفارس  
من الزمن القديم. وعندما استتوي الطريق بعد سوسنة سألته مـي  
ستعود. قال بعد شهر ونصف.

كتمت اختلاجة في صدرها فقال عندما يعود بسوى يتقدم  
خطبتها.

هلل الجالسون بالخلف. وفتحت عينيها وانثنت برأسها للأمام.  
وقد خمها الفرخ والحجل معا. وهتفت بشنو. أجاب بتأكيد أروح  
أقابل باتك.

هزت كتفها في سرعة وسرور وسألته: لشنو؟  
كانت تسعى إلى أن تطيل استمتاعها بأحلى لحظات العمر  
بيش أخطبك.  
أنا؟!

- لا تحب في بنت اسمها سلمى.
- ولشنو تخطب سلمى!
- بيش أتزوجها
- ولشنو تتزوجها

كبح السيارة بعنف إلى جانب الطريق فاهتزت واهتز الجميع  
لكنها انثنت إليه في ثقة وقالت: جاوب.

استدار إلى الخلف وسأل صديقه: لشنو يتزوج الناس يا دكتور  
رفعت. أجابه أن هذا امتحان غير مسموح فيه بالغش. انظر أمامك  
وأجب علي الأسئلة التي توجه إليك ولا تهرب. استدار إليها وفتح  
عينيها مبتسما وراح يسأل نفسه في صوت مسموع: لشنو أتزوجك  
لشنو أتزوجك لأنني أحبك أو لأنني في حاجة إليك. وراح يستطرده  
في تودة أو لأنني لا أستطيع الاستغناء عنك ها .. لا أستطيع الحياة  
من دوك.. شنو رأيك دكتور رفعت؟





بعد فراق طويل التقى ونيسس بأخيه في لندن لقاء حميما.  
وكان ناصر يعيش مع سيدة إنجليزية. متنقلا بين القاهرة و لندن  
وأثينا يتابع أعمال عمر بالخارج. حدثا في شؤون ستنى وعن أخباره  
الشخصية وألح عليه أن يعود إلى الوطن. أبلغه أن أمه تلح  
بضرورة عودته. وعندما طرقا موضوع رواجه قال ونيسس انه تصرف  
كما الرجال.

أجاب ناصر باعتداه وهو يدخل في عصبية انه لا يدين لأحد  
بشيء.. وإذا أردت العجوز أن ترانى فلتحضر. ولكن لماذا أعود  
صدقنى أنا هنا طليق النساء لسن مشكلة. إذا أردت صداقة  
بإرات اليوب تزدهم بهن. وإذا أردت هكى فهذا ملقى على الأرضة.  
وإذا أردت علاقات محترمة فكن محترما. لا توجد مشكلة. أخرج  
لتحمر كما أشاء في برد لندن ينبعث الدفء بالجسد. وعلى العموم  
سأعود ولكن ليس الآن.

ستحضر زواجي. ابنسسم ناصر في صدق وضرب بكفء وعال.  
وجدتها وتبى تتزوج؟ هز ونيسس رأسه: نعم وستحضر؟ هذا وعد.  
- وعد.

\* \* \* \*

وأثناء تسكعها في لندن ومرآعصها الليلية. وجد ويس اجابة للسؤال الغامض الذي ظل يراوده طويلا. كيف حل عمر مشكلته مع المجازير؟ كيف أفلت من نهمة المشاركة في الانقلاب؟ وعاد يدير أعماله مطمئن البال لا يساوره القلق. أخبره ناصر وعو في حالة سكرين. أن أخاه تصرف بوطنية حالصة جعلت الثورة تقدره حق قدره. وعو عندما عاد الى البادية توجه من فورهِ لمقابلة أصدقائه. حيث أطلعهم على نوايا المصريين وحفظهم الكاملة في الاعتداء على الوطن. وتحريص الوضع الداخلي. بدأ لوئيس أن هذه واحدة من مفاجآت عمر الباردة؛ أن يكون وطنياً! وعندما تساءل عن الأسباب التي تدعو المصريين لهر الاستمرار الوطني. قال ناصر ما هو جلي ومقنع: رغبة السادات في تقديم خدماته الخاصة للولايات المتحدة.

خلال عشرين يوماً قام بدراسة وافية للعروض المقدمة. يستمع باهتمام لشروح الدكتور المصري. ولم يكف بل قام على الاتصال بأساتذته الألمان الذين سهلوا مهمته. بعدها استقر على عرضين لألمانيا الغربية والثالث إنجليزي. وبقي مع أخيه المدة الباقية له من الإجازة. بعدها عاد للوطن.

\* \* \* \*

عاد ونيس وبه شوق لسالمين. وعند صديقه الدكتور رفعت علم بأن ابني عمومته الاثنين قدما لخطبتها. سارع إلى لقائها وكانت مضطربة. قالت إن ابن عمي الأكبر تقدم طالبا الزواج منها. وسألها والدها. فرفضت. فعاد عمي بطليبي لابنه الأصغر. وسألني أبي مرة ثانية فرفضت. سألتها عما قالت له لأبيها. قالت إنها ما تتحدث بكَل هو ما يواجهني مباشرة أُمي يحدثها وتجيء تسألني. قلت لها أنا ما نستطيع الزواج نوا. سدى أكمل دراستي. أخبر أبي عمي بذلك. ولا أدري شنو يحصل بعد؟

قال إنه طالما فتح الباب فسينهال عليك العرسان. سيتقدم  
لطلب يدها. فقالت إن هذا هو الصحيح. وأنت وحظك.

- مكي!

- تشك بي.

أرجل بنغازي وأعود بأمي تقايل والدتك.. شنو قولك.  
الله يعلم الغيب.

\* \* \* \*

اختار ونيس منزلاً من طابقين يطل على البحر في حي الساحل.  
وأرسل سمالين لرؤيته. لما أعجبها بدأ يفكر في تجهيزه. دفع ثمن  
غرفة نوم. تعاقد لشراؤها من إيطاليا. وكانت سمالين تدور في  
الأسواق تنظر المعروضات. من الأدوات المنزلية والمفروشات والسجاد  
والأثاث سعيدة جذلة. وتدله على ما تشتهي. فيذهب مع صديقه  
وزوجته ينظرونها. كانت ذات ذوق رفيع. بعد شهرا رحل ونيس إلى  
بنغازي. وعندما أخبرهم بعزمه على الزواج من غريبة. ووجه برفض  
صارم من العائلة. أمه امتلات بالفرح لعزمه على الزواج. إنه البكرى  
لها. لكنها تريده لابنة أختها. قالت: ونيس يا بني روح آخر العالم  
لكن مو بنات غرناطة. بناتها ماكرات وخبيثات يسرقن الثياب من  
أمهاتهن والرجال من زوجاتهن.

قاطعها ضاحكاً وهو يضمها قائلاً أماى انتهى الأمر. أفضل ما  
تفعله تجهزي نفسك ببش تسافري معي يوم السبت. إذا تخافى  
أكون بعيد عنك. تعالى معي هذه بسيطة. أشاحت عنه بوجهها  
غاضبة.

أما أبوه وكان جالساً باسترخاء على أحد مقاعد الصالون فقد  
سأله على الفور عن عائلتها فقال عائلة الفيتوري.

ابنة من؟

- سالم علي الفيتوري.

صمب مكشئرا، وعقد ونيس حاجبيه في انتظار إجابة أبيه. الذي طرق باطن قدمه بكفه. وقال وهو يدير وجهه إلى الجهة الأخرى بعناد المسنين: باهي ما يمكن أساعدك على الزواج توا. سأل ونيس في عصبية: لشنو، فقرأ إحناء؟ قال متصنعا الطيبة إن الأعمال مو باهية بتأجل سنة أو اثنين. أنت صغير بعد. قال ونيس غاضبا كيف صغير؟ وسأل أباه امتى تزوجت أنت؟ أجابه الشايب غي برود إن بانه زوجه وهو في السادسة عشرة كان هذا زمنا أما تو الدنيا تغيرت.

- في شنو؟

ربع قدميه على الكنية وقال: صار يختلف.

كيف؟

لن تزوج.

ومنو بمنعني؟

عاد الأب يصفع باطن قدمه بيده مرات متعددة: لا أحد.

تمالت ونيس نفسه. الشايب يعلم أنه لا يستطيع الذهاب لأسرة سالمين وحيداً. قال وفي صوته سيماء التعقل والهدوء إنه لا يستطيع الزواج من غير موافقته. انبسطت أسارير الأب تعبر عن سذاجته وخبثه وانثنى إليه. وعلى ملامحه فرح ماكر بقوة سلطانه وقال: تظن نفسك فقيه.. عالم في الدنيا والدين.. «أيوواااااااااا».. سار على فمك شارب وأصبحت تقود «الكهرباء»<sup>(10)</sup> زعمك ركبت فرس صرت خيال.. «أيووااااااااا».. أما أنا فقد أكلت مقعد اللوطنطة»<sup>(11)</sup> من جلد مؤخرتي. نام أمام الليناء بيش أكون أول من يدخل الليناء. ونرحل باكراً للصحراء والعجاج بيش نقدر نحصل في مرة ثانية... تظن أنك عدت لأوروبا باهي.. باهي «أيووااااا».. أنا طردتسي امرأة أبي وعمري اتناشر عام. ورغم ذلك لما عقدت

(10) السيارذ

(11) الشاحنة

أول صفقة مع اليوناني. رجعت لبائس أستشيريه. امرأته أيقنتني بالطريق حتى جاء بالمساء. وأنا نفعد قدام عتسة الحوش أنتظره.. وعندما جاء ما قال لي ادخل اتعشى معنا.. اليوم عندنا عصيدة أو بازم أو معكرونه. ادخل ما ريتك من خمس سنين. قولي يا ولدي عن همومك وأحوالك. بتخسر.. بتكسب.. بآتي ما فعل شي من هذا.. سد الباب بظهره وقال شنو تبي؟ عدي غادي وافعل ما تشاء. ما لي بك دخل.. هكي.. ما لي بيك دخل بـكُل... «أيواااا».. تو تيجي وتقولي نبي نتزوج بنت سالم على الفيتوري من هو الفيتوري هذا حتى تتزوج ابنته.. «أيواااا».

قال ونيس في سخط: مو فاهم شي..

أيواااا.. ما يطير السمك في الفضاء، وما يحط الصقر بأعشاش البوم. وما يتزوج الذئب كلبية؟ استشاط ونيس وقال انه سيتزوج أحسن بنات غرناطة مو كلبية.

- بتعرفها.

- نعم

- «أيواااا» تعرف بانها؟ نفى ونيس. قال الأب إن ابنه غبي. بصر على أن أباهم وكل أهلها لا يعرفون. وأتهم ينصبون له مصيدة. ضحك ونيس بسخرية موضحا أن رائبه لا يستحق مصائد.

لماذا وهل اسمك ونيس ابن مفتاح بوزوي. خليني نشوف جواز سفرك. ترى تكون غيرت اسمك.

- اسمي هو ونيس ابن مفتاح بوزوي.

- باهي.. فهمتها لوحدك.

- تقصد أنت.

أقصد نحن أنا وأخوك وعمك وعائلتك هذا ما أقصده.

- ولكن هذا ما يحل شي هل أذهب على أبيها وحدي.

ما نخشى شي ح يقول لك على الرحب والسعة

لن يقبلني دون أسرتي.

أجاب ساعتهما بثبت أنه رجل يعلم الأصول. اهتاج رئيس وصاح:

شئوا استفاد أنا. أجاب: ساعتها أقوم أنا على زواجك. نبي الزواج «باهي»  
أثرياء بنغازي معدودين وأنت أيضاً كذلك، سنختار لك الصنارة المناسبة.  
- هه زواج هو ولا شراء. ثق إنني لن أعتمد عليكم في شيء حتى  
الذهب سأدفعه أنا

أدار العجوز وجهه بنهي المسألة. وبقي ونيس صامتاً في غل  
مكتوم ونهض وكأنه كان يحاول اختراق حائط مسدود. رد فعل  
حميدة هو حب الاستطلاع. حوّل فيما بعد إلى خميس شديد عندما  
عرف أن الزواج يخفي وراءه قصة حب. صديقة كانت ترى أن أخاها  
يجب أن يتزوج بفتاة على مستوى ثرائهم. وعندما بلغ الأمر أخاه  
الأكبر عمر قال: عظيم إذا كان يريد الزواج فلنزوجّه. ولما أخبروه  
أنه يريد التزوج من درناوية لم يهتم بالأمر وقال الزواج هو الزواج.  
ليست له فتاة بعيدها. أما إذا كان يريد الحب. فليأت وأنا أدله على  
عشرين بنية إذا ما تكفيه واحدة. في مساءً أخبره عمر من مكتبه  
بواسطة الهاتف أن ينتظره صباحاً.

\* \* \* \*

في الصباح الباكر لليوم التالي قاد عمر بوزوي سيارته المرسيديس  
طرراز 480S.L. وبجواره أخوه الأصغر ونيس وراح بجوب مواقع العمل.  
ورغم الفارق الضئيل كان كلاهما صنواً من ذات الشكيمة القامة  
المديدة والأكتاف العريضة وخصلات الوجه المهرولفة والحركة المملوءة  
بالثقة. وجه ونيس كان أكثر استدارة وبشرفته أكثر سمرة. حوى عينين  
تتألقان بالسعادة لإنسان مكتفٍ وابتسامته مشرقة لم ليست لديه  
رغبة في إحلال الأذى بالآخرين. أما أخوه الأكبر فمذ كان وجهه مأخوذاً  
من سلاله الصقور. حاد التفاضل ينم عن شكيمة صلبة المراس. وأنفاً  
قويّاً صلداً. وعينين أمرتين تملكان نفوساً لم يعرف أحد نهاياتها بعد.

في موقع معسكرات الذخيرة بالرجمة سار ونيس خلف أخيه  
وهو يحدث مقاولي الباطن والملاحظين بخشونة. ويداعب مهندسيه

والمقربين منه بلهجة من لا ينتظر رداً يلاحظ ويس الجبناء ويروع الأقوياء. يتابع الرجال وهم يهرولون جهة أخيه. أو يختصون من أمامه. وقد امتدت الأعمال التي تقارب نصف مليون من الدينارات. محنوبة معدات وخلاطات متحركة وأوناش ومئات الأمتار المكعبة من مواد البناء والأسمنت وأطنان الحديد. كلها ملك يمين أخيه.

في معسكر المدفعية في الفتاح. انبهر أنيس وقد شيد المعسكر ما يقارب الخمسة عشر مليوناً من الدينارات على مساحة تبلغ اثنين من الكيلومترات المربعة. ضم العشرات من المنشآت العسكرية. وخزانات وشبكات المياه والصرف والطرق. وخلصت حوله الرافعات الضخمة العالية وعربات الخلط المرسيديس والأوناش المتحركة ومحطة الخلط المركزية والعديد من البلدوزرات المنجزرة والحفارات الميكانيكية المنجزرة الحديثة والمحملة على عجلات والرافعات المتوسطة والخفيفة وعشرات المعدات الثقيلة التي تتجاوز مئات الألوف من الدينارات. تديرهم ماكينة بشرية ضخمة تركز على مئات من العمالة المصرية المسكينة وعشرات من مفاولي الباطن السوريين والفلسطينيين.

توقفت تعابير وجهه. وعقله ينفث من الهزة. وفي الثانية عشرة انطلق إلى الغنایم بدونه وبقي نصف ساعة. وحرك بعدها إلى الصحراء. فبلغها سويلاً في الخامسة مساءً.

\* \* \* \*

نزلوا بفندق مسقر فريش. على جمعة وروج أختهما عائدة السقيب مفتاح الندهيسی أمر حامية الشرق. الذي دهش لوجوده ونيس. في تلك الليلة أمضوا سهرة عامرة أعدها على جمعة. حضرها عدد من كبار المقاولین والشخصيات الهامة. تناولوا فيها الشراب والجنسيس. ودارت الأحاديث في موضوعات شتى.

في الصباح الباكر رحلت فاعلة تتألف من تسع سيارات راكح ووفر

تتضمن عددا من كبار رجال الجيش والخبراء وأصدقاء عمر وسيارتين  
شيفروليه نصف نفل لحمل الأمتعة وأدوات الطعام في رحله لصيد  
العزلان بالوديان الجنوبية للمصحراء.

ما واجه ونيس لم يكن يخطر علي باله. وبدأ أنها بدأت من شعور  
تسبيل من الضيق يتخلل مسامحه. تحول إلى حائط صلد. يصعب  
خترافه. لن يستطيع الزواج دور موافقة أسرته. لن يستطيع الزواج  
بسائلين. براكين من السخريه والسسخط يتعذر معها الاختيار بين  
البكاء والضحك. فدور أي مستكلمة مادية وبعبدا عن نظرة خاصة  
يحملها كل من يمت إلى برلمان العائلة بصلة تبقى مشكلمة بسيطة.  
وهي اعتبار كل منهم لنتمسسه محور العالم. تنبلد العقول. يتحول  
كل ما هو نافع إلى جوهرى وحيوى إلى ما لا يجت التفريط فيه. ودونه  
الموت. الآن أنا فى مشكلمة.. بأي نوع من الأقمشة تكفن الخمسة عشر  
مليوناً من الدينارات. قضيتك في يد عمر. وعمر دفع زوجة أخيه ناصر  
إلى الانتحار ليلة عرسها. نسي أن يجد نفسه وحيدا. عمله يكفى رغبتة  
من الضحك ثلاثة أيام متواصلة..

عبرت السيارات حقول الألقام التي خلفتها معارك الحرب  
العالمية الثانية. تمرقوا شرقا عبر الأراضي الوعرة. في صحراء  
مترامية الأطراف. تبرز من بعيد الغبار الذي تثيره إحدى الشاحنات  
ة التي مساطق جزانات المياه بموقع التسعية. ولم يلبثوا أن  
صبتهم حيث بلقوا خمرانات المياه التي أصبح  
يتم عبها باسم علي جمعة مياشرة. وهناك خلق الجميع  
النار!

سار علي جمعة إلى نقيب ندا مهيباً من الجميع. حتى أولئك  
الذين  
نقيب  
مؤخر الخراف  
أشدها عمر سسيارة بيان غيو 700 سبور  
..بهما غصدا احد عشر الهب ديسار. ونوا نينسى فيلا. قال ونيس



بدهشة: فيلا وسيارة بيان فيو 700 سبور. أجاب علي جمعة: نعم  
وإذا أراد أكثر بنعطيه.

وعندما انتهوا من تناول الشاي رحلوا في اتجاه الوديان الجنوبية.  
هناك امتدت الصحراء أمام السيارات التي أخذت تسير علي أرض  
مستوية من الصخور تتخللها أعشاب شوكية خضراء. تقترب  
من الجفاف. تعالت الصيحات من السيارات. وبين حين وآخر كانت  
إحدى السيارات تقف وينزل منها مقاول أو ضابط ليصوب علي طير  
بالسما فخطئه أو بصيه.

وكلما توغل الرمن أحس ونيس بينهم بالغرية. وما لبث أن داهمه  
شعور بالضياح. ذهب بحياله إلى سالمين. يقبم جنة منفردة. لكنه  
يعود فيقبض عليه إحساس شديد بالعجز والضالة.. كان يكتشف  
أن العالم يمكن أن يدور بدونه. وأن الرجال الذين يحيطون به يقبضون  
علي مركز الحركة بالحياة. وقد صمموا علي أن تكون دائرة الحدود  
التي تقف عند سقف تفكيرهم. بغض النظر عما ترينه لهم رغبات  
قاصرة عن أن تتسع لجميع الناس. خرياتهم العامة والشخصية.

كلما اقترب منهم واستمع إلى أحاديثهم. يشعر بأن المجتمع  
ينكمش فجاءة لدائرة نفث عدهم. ويصبح هو خارجها حتى لو  
أراد أن يصير حرا. صفقات مالية هائلة ترفي سهولة ويسر. ومبالغ  
هائلة تنفق بالقاهرة علي الخمر. وأسماء لفنانات مصريات شبكة  
هلامية من العلاقات الوطيدة الراسخة القوة من السلطة.. من  
المال.. علاقات مشبوهة وأحاديث خطيرة. ونكات وأحاديث جنسية عن  
نساء وقتيات يظنهن محصنات. لا يوجد أحد بعيدا عن سلطتهم  
الناقدة. والناس حولهم مثل قطع الشطرنج.

للمرة الأولى يلمس عمر عن قرب. المقاولون يحترمونه بشدة.  
وبقدمونه عليهم ويعتبرونه الأكبر قدرا. وكبار الضباط وصغارهم  
يلعنه في ظهره. ويعرضون عليه صداقاتهم وودهم. حتى أولئك

القلائل الذين كان عمرهم يقدم لهم احتراماً خاصاً. بدا له بعد فترة من الوقت أنه ليس أقل منهم قط.

احتدم بالغضب وألم به ألم شديد. عندما سمع عمر يتعرض له بالحديث عندما جاء ذكره. وقال « تعلمون أن الدكتور ونيس بعشوق الحب الأفلاطوسي وترى وين بمدينة النساء». هكذا عمر منذ الطفولة كان يعرض به دون اعتبار لأي شيء ولو كان كرامته.

انطوي علي نفسه كأسد جريح. رغم أن الرجال والشباب الذين يحيطون به كانوا ودودين صريحين. يمتلكون تحت جلودهم قلوباً واسعة وأيدي مدودة بالصدقة. والكرم البدوي لأهل الصحراء. رغم ذلك شعر أن الصفات الأخلاقية التي يتمتعون بها تنتهي لمجتمع قبلي. لم تحطه بعد علاقات برجوازية ناضجة. وكل منهم لا يعوزه الشرف في اللحظة التي يتعامل بسهولة داخل قوانين رأس المال التي راحت تشب عن الطوق. وتلقي بظلالها علي الجميع.

انفجرت الصحراء عن أحد الأودية الخضراء. وأبطأت السيارات من سيرها. حنى وفتت علي فم الوادي. حيث أقاموا معسكراً صغيراً للنوم. ورحلوا جميعاً إلى الداخل. وقد حمل كل منهم بيده بندقية صيد. أو بندقية عسكرية. ومن بعيد لمح ونيس قطعان الغزلان تفر هاربة. لبتيفسي الضحايا: غزالة صغيرة وقفت تنظر بدهشة إلى الغرياء الجدد الذين افتحموا عالمها.

اختلي ونيس بنفسه وحيداً وعاد القهقري إلى فتاته ينشد لديها الصحية. وأخذ يستعيد رانحتها وعبق التصاق جسديهما وارتشاش ثغرها. بحثا عن دفء يقيه شر البرد. في حين رحل الآخرون تجاه القطعان. في المرة الأخيرة تعثرت سالمين من اضطرابها. وقعت إلى الأرض. ولما انحنى كانت دموع الخوف همس وعيناها لا تبرحاً فمه. تستمع إليه يسألها سبب بكائها. وإذا ما كانت تخشى شيئاً.

سألته وهي منزعجة مترددة وأمامها المصير الجهول إذا ما

كان مصيرهما الفشل. فهل سيقترن بغيرها؟ ضحك وقال. لماذا  
تسبِقين الأحداث؟ لماذا نفسل؟

- أجبني.. شنو تفعل؟

أجاب بحكمة المطلق. يتسبم في ثقة إنه سوف يسعى بكل  
جهده كي يتروجا. أما إذا فشلنا فقد ألتقي بأخرى. وأضاف بفسوة لم  
يدركها حينها أن العالم لن يتوقف عند افتراقهما.

بكت وهي تدفعه عنها برقة. دهش ساعتها. لم يكن يتبين سببا  
لبكائها. كان يجلس علي جبل من الثقة.. أما الآن فقد وجد أن العالم  
يستطيع أن يدمر مدناً كاملة دون أن يشعر بضحاياه.

أمسك بذقنها ورفع وجهها المليء بالدموع وهمس. هل تعتقد  
أنه قادر على العيش مع فتاة غيرها. فأجابته: «لم يلمسني أحد قبلك  
ولن يلمسني سواك».

اقترب بشفتيه من ثغرها بلثمها. وقد صارت تستطيب النهامه  
لذقنها والجانب الأيمن لعنقها. وهناك عندما يرفع خصلات شعورها  
الأسود الكثيف ويحط بثغره. كانت تترك شففتها السفلي بين شغتيه.  
لحظات طوال وقد اكتنفها خدر عام لذيذ. يستعيد رأسها لتنام فوق  
كتفه. وذراعها تلفان عنقه. ونهدها الممتلى الصغير ينام على صدره..

اندفع الرصاص ملاماً الجو فسقطت سائلين من مخيلته. وسقطت  
الغزلان. استعادها فأسقطها الرصاص مرة أخرى. وأسقط المزيد من  
الغزلان. فاستعادها هذه المرة بصعوبة. لكن الرصاص راح بها بعيداً وراء  
الغزلان التي هربت إلى جوف الوادي أفلق على أصوات القادمين الجمهورية.  
وخطى أقدامهم ووطء الأحذية العسكرية على الصخور واندفعت  
إليه عبر القادمين رياح ثقيلة. هيبطت على صدره فكادت تخمده. واقترب  
الرجال المنتشون بالسطوة. وعلى وجوههم الثقة.. ثقة السلطة وثقة  
رأس المال فدحمه مرة ثانية إحساس بالعجز وشعور بالضالفة.

تحلف ونيس بعمله غير قادر على مواجهة سالمين. وأخذ يعد العدة لمواجهة جديدة في سبيل الحصول على موافقة أسرته. وبعد لقاء عاصف مع أخته عائشة استطاع الحصول على قبولها بالذهاب لأسرة سالمين على مضض. وفي إحدى المرات وكان يقود السيارة بأخته في شوارع المدينة عندما صاح بها مشيراً إلى فتاة تعبر الطريق. هاهي

منو؟

- سالمين.

لحظتها مال قلبها إلى الفتاة التي تسير باستقامة خجولة على الطريق. فقال لأخته الكبرى: عليك بأمي أجابته: والله هذه مشكلة.. تورطني معهم في مشاكل.

وبعد أيام جاءت رسالة من أخيه عمر يطلب فيها منه الاستعداد للسفر إلى القاهرة فرفض أن يذهب إلى أي مكان دون الحصول على الموافقة بزواجه. فطلب يستدعيه على وجه السرعة.

حل بينه وبين أسرته سنار كثيف من الريبة والتوجس ولوهنة انعكست بظلال باهتة حول صحة اختياره. وانتابته الهواجس السوداء حول ارتباطه بفتاة توصف بكونها أقل شأنًا. فكان يعيد ترتيب أفكاره ويعيد تمديد الأسباب والدوافع التي تؤكد اختياره فيجدها جميعاً تقف بجانبها. فرحل عائداً إلى الحضر كي يبدأ معركة جديدة وهناك وجد في استقباله ثريا وحيدة. كانت الأسرة تقضى يوم عطلتهم بغابة القورارشة.

المشاعر التي أحاطت بالمرأة الصغيرة إزاء الأحاديث المتناثرة والمتكررة التي تميزت بالانفعال والتوتر عن زواج ونيس بدأت لديها بالامبالاة. وشعور مبهم بالضيق لاحتمال انفصاله عنهم.

واستفلاله بأسرة جديدة. على أن تعابير السخرية من جانب الكبار والحماسة التي يبديها حميدة. والتي نمت عن قصة حب بين ونيس والفتاة التي يريد الزواج بها ملاتها بالحد والغيرة تجاه الاثنين معاً.

وللمرة الأولى أخذت تنوق للشباب تستدرجه بين خيالات الليل الحُرمة. وصباحها المشنوم وكما حُمِلَ الريح البذار إلى كؤوس الزهور حسب قانون العشوائية. بدأت تهزها لسعة الانتشاء عندما استند كتفها بكتفه للحظات وهي تستعيد ابنتها التي ترفض أن تترك عمها.

اشتاقته إليه حتى العصاب. وفي طريق عودتهم حُثقت رغبتها فقد جلست زوجة أبيه في المقعد الأمامي بجوار حميدة. وجلست أمه وأخته وثريا بالخلف. وجاء متأخراً وهن على عجلة من أمرهن. جلس بالجانب الأيسر بجوار أمه. ولعنته ثريا لو فعل. مقبض الباب الذي امتنع عن الحركة جعلهم يطالبونه ساخطين أن يركب من الجانب الآخر. بجانبها تماماً. حركت صديقة للأمام وانزاح الاثنان إلى الخلف. تاركة نهدهما بنام على كتفه وبقيّة جسدها يلتصق به. حلت على عينيه غشاوة ونعاس. فلما أفاقته لابنتها تداعبها أزاحتها برفق فراحت إلى عمها تقبله. استنثرت ثريا ودفعته بخشونة إلى جدتها وهي تدمدم.. الفاجرة الصغيرة.

في المساء خلقوا حوله عدا عمر وأباه. وأفتريشت المرأتان الأرض. وجلست حميدة قبالتها وبحواره أخته. أما ثريا فقد جلست جوار العجوز صامته عدا أوامرهما لابنتها بالهدوء. وكلمات عابرة تتبادلها مع كنتها.

سألته امرأة أبيه هل يحبها؟ فأجاب كمتهم لا ينفي نهمه. قالت أمه إن هذا ربيع خادع. وسألته صديقة مستفزة ما الذي يجعله وثقاً لهذا الحد؟ فأجاب لأنه أنا وليس أحد آخر. استطرده حميدة مؤيداً أحياه أن ويس مو عبيط بريالة حتى يسبي اختيار

شريكة سيرتبط بها طيلة حياته.

قال «لا أريد أطفالاً مشوهين. أريدهم يعرفون طعم السعادة. وهذا يعتمد عليّ أهمهم لا أريد أن أعود النساء لأجد حشية في انتظارى أو صحباً من التأوهات المقتعلة. انزعجت أمه لكلمات لم تسمع عنها من قبل. ماذا يعنى إنه يبحث عن مشاركة حسية. أو جمال الحياة. أو حديثه عن نساء عندما ينتهون من أكل أنفسهم. يأكلون أطفالهن. ربما فهمت ما يقصده بالزوجة التى خيا جارية لا تشغلها سوى الثرثرة مع النساء وصنع أرناك المكرونة والبازيم»..

سمعتة وهو يقول «هكى يكون الجحيم» فقالت باستياء إنها ما عرفت فناة تقابل شباباً خارج حوش باتها وتكون باهية الأخلاق. احتد عليها متسانلاً « وكيف تقدر الأخلاق. بالتلصص خلف النوافذ وأعتاب الأبواب المسكرة؟ بأقفال يضع الرجل مفتاح حوشه في قاع جيبه. فيكون مطمئناً مرتاح البال. وقال لها «يا أمى كل واحد فينا يشك فى الآخر».

قالت بغضب إن البنت اللى نخرج مع شباب. تخرج مع عشرة. فوجئت به يعترف بإنها قابلته بالفعل. وأنه كان أول شباب قابلته فى حياتها. وأنها لو قابلت العشرات ما يغير الأمر. وكيف لفتاة فى بلادنا تختار شريك حياتها؟ صاحبت به زوجة أبيه: هكى تزوجنا. وهكى رينا باتى وأمى وأجدادنا يتزوجون.

لكل حصاده. قالت أمه برجاء لئسنو العندىا ولدى؟ لم لا يترك باته أو أخوه عمر يحصلوا له على أحسن بنات الحضر. أجابها بنفس الحدة: على شنو تبنى تختارى؟ أنا ونيس نختار بنفسى الزوجة التى تعيش معاى أنا مو باتى ولا عمر. وقال مدفعاً خلى عمر يهتم بزوجته الأول وبعدين يهتم بزوجاننا؟ أجابت أمه: البنية ما يعيبها إلا أخلاقها.

قال بحنق: شنو أخلاق؟ تبوا تكون طيبة ولا تبوا تكون ساذجة. منافقة ولا تحب النميمة. يا عالم أنا اخترت إنسانة صادقة. شنو تبوا أتم؟

تدخلت صديقة في عصبية. شنسو أخلاق.. أخلاق.. ما فى شي علي لسانك غير الأخلاق. حذق فيها بغضب. وقال فى استهزاء: وكيف نظني الدنيا؟ وراح يجمع بيده مال. وأخذ يهز يده كمن يجمع شيئا واستطرد ثروة.. جاه.. سلطنة.. قولى لى يا من تركعي الليل سجدا.

تدخل أبوه وهو يتشبح بيده: ما تظن أنك تخوفنا بتهويشاتك كنتك تعبط بأوهامك المثالية. وهر رأسه برفض مستطرد «كل اللي تعبط عليه ما له علاقة بالواقع. كنا نظن إن تعلمت شي فى أوروبا؟

- ليست له علاقة بالواقع.. باهى.. باهى. قول لى يا باتي شنو هو الواقع؟ قال وعلي وجهه غضب شديد «تبي تعرف الواقع ضرب المتضدة بيده - الواقع هنا فى هذه الأسرة.. فى الشايب والعجوز- وكشر وجهه كذئب عجوز» إذا تبي تدخل الأسرة هاذى إنسان جديد لازم يكون بموافقة الجميع. حتى صديقة هاذى بدأ توافق.

تدخل حميدة بصوت خافت للمرة الأولى وقال هاذا مو صح. ماذا خطأ.. هذا اللي تقوله مو صحيح. نظر الأب لأبنة شئرا وطلب منه الصمت. ساد السكون قليلا. أصبحت أثناءه ثريا اذانا صاغية لما يدور حولها. وخاصة بعد تعريضه بعلاقتها مع زوجها. وقد تنازعتها عواطف متضاربة بين ميل لنجاح ونيس. ورغبة في رؤية الفتاة التي يقاتل من أجلها كل هذا الحشود. وبين أمنيتهما في أن تعود هي مجرد فتاة مراهقة يرغب فيها آخرون.

توجه ونيس لأبيه قائلا إنه يبحث عن السعادة ورضا النفس. المال ما بطنى رغبانا. شنو يعني الشرف والصدق والوفاء تحت سلطان المال. كل ما هو قيمة إنسانية يصير بدعه حقيرة.. بلاهة وسذاجة. وكيف ما قالت صديقة المثالية الحمقاء. لكن بدى أفهم كيف لما يسيطر الزروق علي ثلاثة ملايين دينار فى ثلاث سنوات ونصف وهو لا

يستطيع القراءة والكتابة. شنو معناه؟ إن الشيباب علي درجة عالية من الكفاءة بالثقافة والعلوم. لا هذا معناه الانهيار.. الفقر الداخلي.. الجرب.. أنا عارف الواقع اللي يعيشه تماما.

\* \* \* \*

كانت ثريا عكس الجميع. أبدت به اهتماما كبيرا طوال اليوم. أعدت له القهوة والشاي. ودعته إلى غرفتها تربه ملابس ابنتها الجديدة. مطلقة شعرها ينسدل طويلا خلفها. وكلما انتشعل عنها مع إخوته أو العجائز. جلست قبائنه تعبت بجذائنها.

وعندما عاد متأخرا قامت علي تحصيل طعام عدائه. ولم تكن قد تناولته. دعاها ألا تتركه يأكل وحيدا. داهمتها دموع الوحدة. هي التي تعيش وحيدة. شاركته الطعام بعد أن أخفت ما ظل جائئا على صدرها طويلا. هي الآن تدرك ما كانت لا تدركه.

كان عمر قد طلب منها أن تجعل ونيس ينتظره بالثامنة مساء. فلما جاء العصر نادت صباح. ألبستها ملابس الخروج وأردت هي الأخرى بنظا لا جينز وفانلة قتيمة. وجلست تنتظر أن يدعوها للخروج كما كان يفعل سابقا. كان نائها في مشاكله. أرسلت الصغيرة التي راحت تمسح به مثل قطه أليفة. فلما لم ينتبه راحت تجذبه برفق. أفاق علي أناملها الدقيقة تبيض علي ساعده تدعوه للخروج: هيا.. يا ونيس.. هيا نخرج إلى السمك. سألها مندهشا: شنو سمك؟

- السمك الصيادين.

- شنو تبى يا صباح؟

أجابت ثريا: تسألك أن تذهب بها للبحر منذ ساعة وأنت منشغل با مسكين في همومك. انتسم وقال: باهي هيا بنا.

جذب الطفلة خارجا. وقفت حائرة بينه وبين أمها. سألته



أن تأتي أمها معها. وافق بلا اهتمام. فقالت وهي تتمنى أن يلح عليها أن يكتفى بصباح. لكنه قال باهي كيف ما نبي. واستدار خارجا. وللمرة الأولى استجمعت كل شجاعتها لتعلن عن رغبتها في المجيء معهم.

مرت فترة طويلة قبل أن يلاحظ أن هناك شيئا غريبا لا يعرفه حتى فطن فجأة إليه. كانت ثريا تلاعب طفلتها. تمس شعرها وتأخذها إلى نافذة السيارة وقد التصقت وجنتا الأم والطفلة بالزجاج. تحدثها في صبر وأناة عما يشاهدونه بالطريق. وتضمها بحنان. تلعبها مثل قطة تلعب وليدها.. هذه سيارة بيجو.. فتصبح صباح وهذه فيات.. وهذا شرطي المرور الذي يخاف منه عمك ونيس. تصبح صباح. قطة.. هذه قطة.. وتتابع النظر في أجهات المحلات سعيدة فلما التفتت إلى عمها تداعبه قالت ثريا: عمك مشغول عنك بفتاة أخرى يا خايبة..

قالت لها ثريا أسأليه. جذبت بكفها الرقيق وجهه نحوها. وهو يقود وسألته عنها. قالت ثريا أسأليه سنو اسمها. ففعلت. أجاب: سالمين.

عادت إلى أمها مسرعة وهي تصبح: سالمين اسمها سالمين.

قالت ثريا: مو قلت لك. يحبها أكثر منك. نظر إليها ونيس مغتاظا. وقالت ثريا لصباح أن تسأله عن من يحب أكثر أنت ولا سالمين ففعلت الطفلة. أجابها إنها هي التي يحبها أكثر. فضحكت سعيدة. وعادت تلقي بنفسها إلى أحضان أمها مزهوة. وتلفتها ثريا بسعادة وبصدق شديد ضمت ابنتها المشتاقة إلى كل هذا الحب. ولكن ثريا استمرت بالعبث وقد أعجبت بها اللعبة وظلّت منها أن تسأله عن من هي الأجل أنت أم سالمين. فلما سألتها الطفلة أجابها بأنها جميلة وسالمين جميلة. قالت ثريا لابنتها ألا تصدقه فهو يتهرب منها وظلّت منها أن تسأله شعر من الأطول أنت أم سالمين. كاد أن يقول سالمين لكن الطفلة قالت في فرح وقد بدا أنها

بدأت تفهم اللعبة الحفيه التي تدور حولها «شعير ماما الأطول»  
احمر وجه ثريا خجلا والطفلة تعبر عن ما تود الإعلان عنه حقيقة  
فلما ضمت امننها أرادت التحقيق فقالت: لا شعيري ليس الأطول  
ياهي اسألينه إذن. فلما سألته كان مندهشًا وقال سنو؟

أعادت الطفلة السؤال نظر إلى جدائل ثريا الكثيفة محققا  
في تفكير عميق ثم ما لبث أن قال: شعرك جميل.

فقالت وكأنها مجروحة فعلا وبسخرية: لا أنت في حل من  
الجملة. فقال لها بدهشة، ما في جملة، أنت جميلة وعاد بنتبه إلى  
الطريق وهو يردد بطريقة جوفاء.. هذا واضح ما يحتاج نقاش بكل

تصلبت نظرتها ومرت علي عينيها سحابتان من الضسوة وحل  
الصمت ثانية فعادت لابنتها تلاطفها

هبط رذاذ من المطر علي شاطئ الخليج الصغير بجوار الميناء.  
وقد تناثر عدد قليل من الناس. وصيادان يقومان علي الصيد  
بالصنارة داخل البحر لثلاثين مترا فأسرعت الطفلة لتشاهدهم.

وما لبثت أن عادت مسرعة إلى أمها التي كانت تتحرك في  
حيوية جديدة. جرى خلف ابنتها وتنادى عليها لتعود ثم لا تلبث أن  
جرى عنها بعيدا. وونيس يتابعهما في دهشة حتى أحس في لحظة  
أن تصرفاتها بها رعونة واستخفاف. شعري باستياء. كانت جذلة لا تني  
تحاول أن تشركه في عيئها مع طفلتها. جذبت يده مرات تدعوه إلى  
ترك السيارة. فلما لم تستطع أن تخرجه من دائرة تكبيره كانت تدفع  
إليه ابنتها قائلة: «عمك عقله مشغول عنك». تذهب الطفلة إلى  
أحضانها تقبله وتحذثه تطلب منه أن يحضر لها الحلوى من الكشك  
المجاور. والمطر ينقطع ليعود فيتساقط خفيفا فوق شمس ساطعة.

وعندما عاد وحدها جلس علي مقعد القيادة فأثنى إلى الباب  
الأيمن وجلس بجوارها وصباح بين يديه وذهب الى الجانب الآخر من  
البحيرة الخالية من المارة وهناك كانت ثريا أكثر حركة. أثار انتباهه

كونها جد مختلفة عما هي عليه بالفيلأ أو مع الآخرين. كانت  
لدهشته أكثر رقة.. أكثر بساطة.. أكثر قدرة علي الفضفضة في  
المحدث معه. نامت الطفلة بين ذراعها فجاءته بعبارة أحسن به  
غريبا: إنن ستزوج.

همس لنمسه قائلا أي عبار هذا وأجابها: نعم سأفعل.  
قالت وهي تحاول التعبير عن أشياء بنفسها دون جدوى.  
لشنو؟

كيف يفعل الناس؟

- باهية

أجابها وقد شعر بأنها سألته هذا السؤال عشرات المرات:

نعم

استطردت قائلة، أنا مو هكي؟

قال متعجبا وقد تخلى عن أسلوبه الناعم الذي كان يحادثها  
به من قبل: لشنو تقولني هكي. كنتك مو مشوهة ولا ناقصك كراع.  
عندك قوام متناسق وبشرة ناصعة ووجه بدري.

قاطعته: وشعري؟

أجاب دون حماس «وشعرك». صمتت وحل بها توتر داخلي.

نظمت غير قادرة علي التعبير: ولكن الرجال ما يهتمون.

تقلص وجهه واتسعت حدقاته ونظر إليها مستطلعا. محاولا  
تركيز تفكيره. لمح علي وجهها تساؤلا لدهشته. قال. ولشنو تبي  
إعجاب الرجال؟ لكنه تيقن لحظتها من سداجة سؤالها وعجزها  
عن التعبير فاستطرد موضحا بدقة. صدقيني أنت جميلة. يمكن  
أن تكوني أجمل نساء الحضر وكل الحضر تعلم أن لعمر زوجة من  
أجمل نساءها. نظرت بعدم تصديق فاستطرد قائلا نسيت في  
حاجة إلى الإطراء. فلم تفهم مقصده وقالت فسي إصرار... أنا مو  
جميلة. سألها مستطلعا عن السبب. فنظرت نظرات مفعمة  
بالقلق والمعاني والمشاعر تعصف بها. فجأة هبط عليها ما تريد

قوله بالضبط فسألت في سرعة وعصبية لمن جمالها إذن؟ أجابها  
بنفس السرعة لعمر

التعبير الذي حل علي وجهها كان أعنف من القسوة والبغض.  
جعله يكتشف أكذوبته بسرعة. وعندما كادت أن تكي ضحكت  
في هysteria شديدة حتى استيقظت الطفلة. سحقتها بيدها  
وهي تقبض علي ساعدها الصغير بعصبية. حاولت أن تجذبها منه  
لكنه أمسك بها بقوة. حتى شعرت بالألم استكانت وعادت إلى  
هدوئها. وبها ألم عميق. كان بجوارها إنسان يتعذب. بينما هي  
كتلة من الشقاء.

أرخي يده مبتسما. وحدثها ببراءة أن لها أن تفعل ما تشاء. أن  
تنتقم من تريد. تحرق العالم لو أرادت.. ولكن الطفلة هذه ليس لها  
ذنب. سألته: ذنب من هو؟

صمت لحظات طويلة.. كيف يمكن أن يجيب سؤالاً كهذا؟..  
قال إن عليها ألا تظن أنها الوحيدة التي تتعذب.. هو الآخر يعاني  
من غباء الآخرين. قالت وهي تضحك بوجهها منه «لكنك رجل».

قال مؤبداً وهو على وشك أن يفقد صقاهه إلى الأبد:

«معك حق.. لكنني رجل».

\* \* \* \*



# الجزء الثالث



هذا مساء اليهيات  
فلتركضى يا جيا د الدماء  
فما كل من يقتلوته سيغدو ترايا  
وما كل من تاكل النار سيغدو رمادا  
فإن شئت أن تعرفى سرُّ هذا التفجر  
قومى إلى البحر كى نستحم  
ونساله السرُّ  
فذاكرة البحر صافية لا تخون



في طقس ملبدة سماؤه بالغيوم ذهب الى مكتب أخيه عمر . وفي نيته أن يصل هذا اليوم الى حل قاطع ونهائي . وقد بات مقتنعا أن كل ما يدور بينه وبين الأسرة لا طائل منه . وأن أغلب الخيوط تتجمع عند أخيه الذي يكبره بثلاثة أعوام . لا يعتقد أنها كافية كي تمكنه من التحكم في حياته .

غادرا سويا مبنى المؤسسة وأجّها إلى إحدى الفيلات التي استأجرها عمر لرجل لبناني في الأربعين من عمره . كان على صلة وثيقة به أيام ملاهى بيروت وسهراتها الحمراء . حيث كان يتولى عمليات الإعداد لإقامته وسفره . وحجز الفنادق والطائرات . فلما اشتعلت بيروت بالحرب الأهلية . انتقل هو وامرأته إلى الحاضرة الشرقية حيث تولى الأعمال التجارية الخاصة بالمؤسسة . التي تستلزم السفر إلى الخارج . وجعل من منزله مكانا أكثر خصوصية لسهرات صاحب عمله . تاركا لامرأته إدارة المكان

هناك وجد ونيس على جمعة جالسا بجوار الباب الصغير يداعب امرأة . وعلى الأرائك جلست في الملابس القصيرة امرأتان شابتان مغربتان . وفتاة لبنانية صغيرة . وبينهن جلس ضابطان بملايس مدنية . ثم جاءت فاطمة سكرتيرة عمر الشخصية تسبقه حيث انضمت لمجموع المجالسين .

كانوا يدخنون بشراهة. وينجرون الويسكي وسط أنواع فاخرة من المشهيات واللحوم المشوية التي أجادت صنعها المرأة اللبنانية. ولم تمر نصف ساعة حتى انتحي عمر إحدى الغرف الجانبية. ودعى على جمعة ونيس للتعرف على الفتاة اللبنانية. مراحنا على أنها ستنال إعجابه وقدمها قائلاً: جان. أجمل الحاضرات. تتكلم الألمانية كيف أهلها.. دكتور ونيس.

كانت تعرف أو ربما كانت بانتظاره. حياها ونيس بإماعة من رأسه. وكفتاة تعودت المجتمعات وحفلات الاستقبال. مدت له أناملها وأخذته إلى ركن فصي. جلست أمامه ترتدى جوباً قصيراً جداً وبلوز تلتئم عند الرقبة. تاركة ظهرها وكتفها عارين وصدراً لا يرضه مشد. سألته بالألمانية: هل جيد الألمانية. فأجاب بطلاقة أنه درس الطب بألمانيا.

كم سنه قضيت؟

- سبع سنوات.

دعنا نتحدث الألمانية. بلكي ما أحدا هون يتحدثها سوانا.

ضحك بابتسامته المعهودة لفكرة التخلص من عالم يحقته أحكم عليه دائرة الحصار. أجابها بالموافقة. حلت على وجهها معالم الارتياح. قالت وقد جمعت على وجهها نظرات الاحتقار إنها لا تفهم ( وذكرت تعبيراً ينم عن كونهم غير متحضرين أو متوحشين) وقالت بعصبية إنها درست بالجامعة الأمريكية في بيروت. لم أكن أظن أن العالم يضم أكلة لحوم بعد. ورجالاً جاهلين بأصول معاملة سيدة.. هل تقرأ الأدب؟

أجاب بالإيجاب. قالت تصور إنهم لا يعلمون أن هناك شيئاً مثل هذا. فكيف بالفرن أو الثقافة وإذا تحدث أحدهم - وأمسكت برأسها تعبر عن الصداغ فكان أنه يقول مسلمات.. وهو على خطأ.. خطأ من حيث ابتدأ. وخطأ من حيث انتهى. كدت أجن. أه أسفة. قد

يكون لأحدهم صلة قرابة أو صديق لك. أجب منسهما بالإيجاب.  
زامت وضمت شففتيها وارثعش جفتها وهي تسأل. من؟

عمر عمر يوزوي

- صديقك؟

أخي.

صاحبت بلاء فمها: أوه. أوه. اعذروني أنا أسفة - أخذت نهز  
رأسها وهي تصيح بنفسها تؤنها كم أنت حمقاء يا جان..  
أوه.. قالتها لي أمي من قبل - ادفاعك وصراحتك يؤديان بك إلى  
المهالك.

ولماذا؟

لا تظن أنني أسيء للهر عمر.

لا لا تهتمي.. قلت أنت خبير الأدب؟

فأجابت وهي تؤكد حديثها بلامح وجهها: إنني أعشقه..  
قرأت ديكنز وشكسبير وتورجينييف وأوه - ديستوفيسكي.. كامي..  
سارتر.. هل قرأتهم.. هل قرأت كولن ويلسن؟  
- نعم

كنت سأموت لو لم تكن قرأته. إنه كاتب المفضل والشعر  
الشعر إنه ببهرني. رحلت عينها للفراغ وهي تردد « على رمال  
ماركيت أستطيع أن أربط اللاشيء  
وقاطعها ونيس قائلا « الأظافر المحطمة للأيدي القذرة»  
قفزت تعانقه وهي تهتف: إليوت.  
إليوت.

- أه تعرفه.. أنا سعيدة كثير مند جنت هنا. سنة أشهر  
لم ألتق بإنسار أستطيع أن أأخذت معه كما أريد أنا. وليس كما  
يريدون هم - ساد الصمت طويلا قبل أن يلح سحابات الدموع في  
عينها. مسحت دموعها بخجل وقالت «تعرف حالي مثل حال  
العظيم رامبو. يوم قصي ليلة في ثكنات الجيش. استمتع وغالت

بِعَم حرين.

إن قلبي الحزين يتدفق على مؤخره السمينه..

..قلبي الذي بغير

قوطعت في هذه اللحظة. وبارنياك شديد ظهر على جميع الحاضرين. كان عراب عمر اللواء (م) يعبر القاعة مرتديا ملابس المدينة. وخلفه حارسان مدنيان. عرفه ونيس على الفور. صافح الحاضرين من الرجال بابتسامة بشوشة نعلو وجهه. في مظهر ينم عن التواضع. كادوا جميعا من فيهم المدنيون ان يؤدوا التحية العسكرية. ثلاثت تحت السطوة البدوية قواعد الإتيكيت. فتواترت السسوة خلف الرجال. لا يابه بهن أحد. ولما لمح على جمعة ونيس واقفا بعيدا في مكانه. صاح عليه أن يحضر فجاء حيث قدمه للواء على أنه أخو عمر. ولمظ وسط ذلك كلمة ردد صداها في أذن ونيس كتاب «عريس» فشعر بعلى يسخر منه. فابتسم وشدد على يده وهو يقول «نوا نشوف». تركهم إلى الداخل ومعه عمر الذي جاء مسرعا من الغرفة التي كان بها.

عاد ونيس إلى الفتاة اللبنانية التي حل بها الفزع بسبب الرعب الذي حل بالأخرين. والذي تخلفه بالجوار رائحة رجال يملكون سلطات لا حد لها. وترحل لتبقى رائحة الزخم البارد للزنزانات الرطبة. قالت بعينين كسبرتين بعد أن عاد إليها يلعن العالم. وقد استشفت ألامه الروحية «رامبو الوحيد الذي كتب حالتنا هذه» عادت تقول شعره.

قلبي الحزين يتدفق على مؤخرة السفينة..

قلبي الذي يفيض بدخان التبغ..

يتفتون فيه الحساء..

..بين سخيرة البحارة.. يصحكون جميعا..

..إن قلبي الحزين يتدفق على مؤخرة السمينه..

..قلبي الذي يبيض بدخان التبغ !..

أفسدته نكاتهم..

..نكات الثكنات الرامزة إلى الجنس..

..أما على الدفة فما يرى المرء غير صور الثكنات الجنسية..

نفثت الدخان بقوة وقالت كيف كان رامبو يحكى قصة تلوثة وسط الجنود.. صمتت وأضافت أنها أيضا ملوثة وسط الجنود.

سألها وهو يستجمع الكلمات وهو يستكشف حالها. مستفسرا عن أسباب وجودها وهي بعد شابة صغيرة ومثقفة. أجابت بجدية وهي تهز كتفيها، وتبتلع دخان سيجارتها. ثم تنفثه حلقات متوالية من الضباب. إنه لا داعي للمجاملة. فهي تمر بأوقات تود لو تلوث نفسها عن عمد. تود لو أن حواسها تدمر تدميرا منتظما، وهزت يدها متعجلة. وقالت إنهم يتواردون علي بكثرة فجعلنى من الأتقياء.. لسنت أنا التي أفعل ولكن هؤلاء. فالانحطاط البشرى الذى أعانيه من سلوكهم يجعلنى أود لو أفقد حواسى عن قصد دون حاجه للمال.. إننى أفقد الإحساس بحلاوة النشوة. وتقل قدرتى على الاستجابة العصبية لبدو إزاء المداعبات الجنسية. فأقوم بتمثيلها بنفسى حتى أصاب بالصداع الدائم. ويتكلف وجهى ابتسامه لزجة. فلا أستطيع أن أعيده إلى حالته البكر. وراحت تبحث عن تعبير ملائم - الابتسامه الطبيعية ال - ابتسامه الطفولة.. تلال من أوجاع نفسية. فلو أن للخطيئة منفذا للسماء لبلغتها.

- لكنها ليست منفذا.. أجابته فى عدم تصديق. حقا لكن ما الذى فعله السيد المسيح ألم يحملها عنا؟  
لكن المسيح لم يفعل هذا لغرض دنيوى  
- هكذا يكون اللا منتمى.

لا.. اللا منتمى شخص يجد الحياة نافهه.. ضيقة.. لأناس عابدين. حتى أولئك الذين يبحثون فى مختلف العلاقات التى تربط الشكل المادى بالجواهر كالعلماء ورجال الدين.. أما المنتمى فهو الذى

يرتقى عبر الألم إلى الجوهر ذاته. مخلفا وراءه كل هذه الترهات رافضا كل إيمان شكلي بالله أو أية قيود مسبقة من طقوس أو كهنوت. هو يعشق حريته إلى الحد الذي يستطيع القول عنده بأنه جزء من الحقيقة المطلقة.. جزء من الله. ومن ثم يعيد ثروته هذه إلى العاديين من البشر.

أجابته بصوت صادق خال من الألم: ولكن ماذا أكون حقا.. إذا لم أكن لا منتمية.. الحرب. والقتل على الهوية. وجئت أحب الناس إليك ملقاة على الطرقات وسط برك الدم لا تبعد عنك سوى أمتار قليلة. وقد حل بوجوه أشقائك الصغار العفن. دون أن تستطيع أن تتقدم منهم لتوازيهم التراب. هذا الشيء الوحيد الذي يحتاجه الموت.. لقد فقدت كل عائلتي ولم يبق لي أحد: أبى وأمى رحلا فى تصفيات القتل على الهوية. أخواى اللذان قاتلا كل فى جانب.. ألسنت أحمل نصيبى من الألم السرمدى. وعندما أعطى جسدى لأناس منحطين كالعسكر. فى الوقت الذى عليه فيه أن أتكفل لهم بالمتعة ولتفسي بالشقاء. بالتدمير.. أليس هذا شوكة على جبين المسيح؟ هل تكفى بضعة أوراق نقدية لتجعل من كل هذا شيئا دنيويا.. أليس اللا منتمى هو الذى يتحمل الآلام من بشر هم دونه فى المعرفة والإحساس.

- سامحيني.. إذا قلت لك لا الفضيلة فى رأى أمر لا يتخلى عنه.. إنهم فقط يكسرون كل الأشكال والنظم اللاهوتية السابقة. وعلى كل منهم أن يبتدع لنفسه طريقا خاصا به.. إنك تغالطين نفسك..

فى هذه اللحظة استدعاه عمر فى الحجرة الخلفية. جلس العراب وعمر وعلى جمعة فقدمه أخوه بشكل أبوى ودود- أحي.. دكتور ونيس.. نبي له مستقبلا يا هرا! أنا جعلته عضوا فى مجلس إدارة مستشفى اللى يقام بالقاهرة- واستطرد قائلا - لكنى أريد أن أحذرك منه. رأسه صلبة وتستحق الكسر. هز العراب رأسه وقال بصوت متلى: بالسطوة:

ما نخاف شيء بقدر نكسرها كيف حبة البندق

وفى ثوان قال العراب « ناهى.. حياكم الله » وقام فقام الجميع.  
وخرج وخلفه أخوه وعلي جمعة. ونطق ونيس لنفسه بالكلمة  
الوحيدة للمقابلة حياك الله. ثم عاد ثانية الى جان ونفسه بلووة  
بالضيقة. سألها فيما كانا يتحدثان فأجابت: دعنا من هذا الحديث  
الآن وقامت خضر كأسين من النبيذ وعادت لتجلس إلى جانبه  
سألها عن ألمانيا؟ فقالت الحرية الحرية. سألته لماذا رجوع وكيف  
يستطيع الحياة هنا. أجابها ونيس. نظى أن الحياة هنا لا تستحق.  
أجابت بالتأكيد. سألها ماذا كانت تفعل؟ قالت إنها كانت تدرس  
الفلسفة في نفس الكرسي الذي جلس عليه هيجل. لكن الحرب  
جعلتها غير قادرة على اكمال الدراسة. عادت إلى بيروت لكن زوج  
عمتها قال لها إن البقاء في بيروت لن يفيدها ولن تجد من يعيها.  
وعليها بالسفر إذا أرادت أن تجمع ما يكفى لاستكمال دراستها.  
سافرت إلى باريس لأقرباء من بعيد. بعد ثلاثة أشهر أفلست. وكان  
لا بد من النقود فأنت إلى البادية والنقود تبحث عن حظها.

- وهل وجدت حظك!

حظى السوء!!.. أخبرنى أنك لا تعاني من نفس الوضعية؟

شئو وضعية؟

- أن تكون مختلفا عن الآخرين. يراك الآخرون الأبله. وترى نفسك

الأفضل.

قال: تتحدثين عن الاغتراب.

لا أعنى اللا منتمى.

قال هذا شيء يحص الحضارة الغربية.. ضحككت لأول مرة وهى

تبدو سكرى: هاها. وأين حضارتنا إذن؟

حضارتنا. لا أعرف. انحبس الحديث في فمه.

حل بها سخط وهزت رأسها: ما يحدث حولى لا أفهمه. أعلم أنتى

بغى. هل يضايقت أن خُادِثَ فتاة تمارس البغاء.. وقالت ترجوه - أنت شخص مثقف وعشت في أوروبا، فال يسترضيها أنها حرة في اختياراتها.

لكنى لا أنال لقاء ما أدفعه من ثمن باهظ  
كم ادخرت من النقود؟

خمسمائة دينار بستة أشهر.

فصاح بها غاضباً: لكك تستطيعين الحصول عليهم من أى عمل حسابى فى أى شركه لماذا ننتهكين روحك؟ داخت محتتقة. داخل مشانق اليأس الشديد وامنلات بالحنق وموجة من البكاء تسد حلقها: إنهم يسرقوسى يسرقون بغياً.. لكنى منورطة. وقوانين العمل تمنع عمل الأجبيات بالأعمال الحسابية إلا للرجال فقط. على أن أنتهى هذا العام بأى طريقة حتى أرحل من هذا الجحيم.

لمحت على جمعة يتابعها بإشارات ونظرات شذرة يدعوها لأن تعمل جيداً فافتربت تلتصق به. وهى تنظر إلى على تحمل نحوه نظرات الطاعة أبتعد عنها قالت معذرة: سامحنى.. أرجع. دعنى أراك كثيراً أرجوك.

لا أستطيع. ما أعمل أنا

- وأين تعمل؟

- بعيد واجد.. على مبعده ثلاثمائة كيلومتر من هنا.

- حظى السيء مرة أخرى.

جاءت فاطمة تدعوه لمقابلة أخيرة مع عمر. قام إليه وهو يشعر بأن أخاه جعل منه كرة صغيرة يلهو بها. طالب نفسه بالصبر حتى يحصل مبنغاهما وبعدما سيكون هناك شأن آخر وبالغرفة الرحبية وجد المهندس المصرى زكى الهدى ويجانبه على جمعة. يجمع عده رزم من فئة الألف دينار يضعها فى حقيبة سمسونايت. فلما أنتهى اتحنى يصافح اليد الممدودة نحوه يشكرها فى بلاهة. قبل أن يخرج الاثنان ويتركاها وحيدتين.

\* \* \* \*



قال عمر. أخيرا يا حاج ونيس تو نبى بدير بالنا شوى. قال ونيس حانقا إنه ترك عمله يومين متتاليين دون أن يستطيع أن يلقاه رغم أنه الذى أرسل يستدعيه. طلب منه أن يهدأ ولا يدير باله بالعمل فسوف يسوى هذه المسائل البسيطة. وطلب منه أن يخرج إلى الحديقة الخلفية مرىا من الجو الحار الخاق بالدخان.

فى الخارج كان الجو يميل إلى البرودة. قال عمر يلاطف أخاه. وهو مصر على أن يبدو فى هيئة الحريص عليه وعلى مشاعره. والمهتم بأن يأخذ فى الحسبان مستقبله ولهذا ألقى العقود التى أحضرها من أوروبا. وأحل محلها عرضاً آخرتم الاتفاق عليه نهائيا. وهو الذى سيعطى المشروع اسما عالميا. وهو بهذا أيضا يصبح مضمونا بشكل كامل من النواحي الإدارية والتسويقية. وذلك لأسباب قال إنه سيعرفها فيما بعد. وقال إنه يجب أن يكون فى القاهرة بعد خمسة عشر يوما.. حاول ونيس أن يقاطعه لكن عمر خرج عن طوره وهتف به الأ يقاطعه. وأضاف «توا أنت أمضيت سبع سنوات بالخارج. وما كنت تيجى بـكل. صرت ما تعرف شيئا عن البلاد. كل الذى فى ذاكرتك هناك أيام البوادي. لما أن كنا نرعى قطعان الفم أنا وخوك ناصر وأنت.. توا الحياة تغيرت. البلاد اتغيرت. وأنا كنت نظن أنك مثقف متعلم وأنا الجاهل. تستطيع أن تفهم شنو يجرى. تعرف أن أنا بدأت من الصفر بعد عام رحيلك. موش أنا بس. لكن فيه ناس كتار. وتوا ترانا فى أرض راسخة».. أحاط كتفه بساعده وأخذنه إلى الداخل واستطرد عمر قائلا إنه لو كل جعل من كل قضية صغيرة. وهكى عواطف ومشاعر من هادكاهى مشكلة. ما اتحركنا وما تقدمنا ولبقينا تحت خيمة الصفر. بينا فى العمر ثلاثة أعوام. لكن خيرتى يا عمر بالحياة تعدى كيف أقول.. ثلاثة قرون. فى ساعتين توا أنت ريت أشخاصا لامعين. ضباط من ذوى الشأن. مهندسين من كل الأجناس: مصريين وسوريين وفلسطينيين لما يقفوا قدامنا يضطربون يخافون.. واستطرد بعصية ترانى أحمل

عصا.. كبرياج أخوف فيهم. مر رأسه في سأم وقال وهو يهر يديه ويحرك رأسه وهو منفعل وقد تعقدت عضلات وجهه. ربت بعيك.. عملنا الملخص. طاقتنا التي نشهد بها البوادي والحضر اليوم. تزيد مع الزمن مو عواطفنا.. أنا شخصيا أحب المصريين. يؤلى حالهم لكن على أن أعامل الجميع في فسوة ودون لين. حتى تحصل منهم على عمل. أنا أعطى أجورا ورواتب. الذى يثير عجبى أنك قضيت فى أوروبا حيث ما فى عواطف بكل يا أخى أنا نعرف إنك كنت تدير فى عشرات الفتيات كيف النيس الحرون. وكل واحدة تقدر تشبعك من أى مرة هنا. ترى كيف بالله عليك سنة واحدة فى غرناطة تصير بالرخاوة هادي وتحدث عن بنت كيف طفل يتشعلق بلعبة. ثم إنك تستقبلها بمنزل هذا التيس المصرى.

سأل ونيس بحيرة: من؟

هذا الذى يدعى رفعت.

كيف عرفت؟ تتجسس على با عمر

- ما تحاول تكون ذكى معي. اذا كنت خسدت كيفك منها فما يوجد شىء يلزمك. أنت ما جبرتها على الحضور إلى منازل أحد. هى اللى جى على كراعيها.

أحتقن وجه ونيس بشمسة. كان أخوه يلوك شرفها مثل قطعة من العلك فقال وقد ضاق به النفس إنه لا داعى لأن يمسسها بسوء. مثل هذا لن يقيد أحدا بشىء

لا تجعلنى أظن بأنك مو راحل.

- وكيف ترى أنت الإنسان يكون راجل؟!

تسرى ليش تلقى فيها منفردين. أجايبه وهو يحاول أن يتغاضى تعريض أخيه المباشر بسالمين حتى لا يبلغ الانفجار: شنو فصدك؟ كنا نتحدث.. نتعارف عن قرب. نظر عمر اليه فى دهشة وأشار إليه بأصبعه وقد ضافت عيناه وقال فى ازدراء. هل تعنى إنك ما حصلت

الى تبغيه. تراجع الشاب الطويل القامة خطوة إلى الخلف وصاح به فى سخط وذراعيه فى الهواء: ولشئو أسوى هكى؟

حرك عمر يده فى دوائر وقال غير مصدق. أنت حبيب! كنتك موفى ورطة. هل هذا كل ما عدت به من أوروبا.. باهى.. كنتك أظن غير هكى.

- يضايقك إني ما أكون منحط.

همس عمر وهو يصحك فى تعجب خايف تكون ما عاد فيك للنسوان؟ استدار إلى النافذة. كان المطر يشتد بالخارج. ثم عاد إلى أخيه وقال إنه لا يعرف سبب تشبثه بهذه الفتاة إلى هذه الدرجة.. أبوها - قالها فى ازدياء - من هكى اللي يكتبون المسرح ما يملك حتى فى فلس. بولف شوية جمل عن - وحرك يده معبرا عن اللا شىء - ويلف بها فى مطبوعات دار الكتاب بيش تصنعوا منها قراطيس وتبيعوا فيها هريسة.

قاطعهم ويس برعاء وتوسل. لأنه أضطر إلى أن يهين كرامته إلى هذا الحد: عمر أسمع زين إذا تزوجت بنت الأمراء أو بنت كاتب مسرحى ما يخصكم شىء.. أسرتها لن توافق على قبولى بمفردى ودون موافقة الشايب ولو أعرف أنهم يوافقون على تزوجى ابنتهم دون الحاجة لكم. لانتھيت. وما رصيت أصير حذاء يرتديه كل منكم كيب ما يريد. حتى الكلبة الصغيرة صديقة. أنا أريدها. طرق المنضدة بيده وعمر ينظر إليه فى سماحة. وكفى ألا يكفى هذا. ألا نستطيع أن ننهي هذه المهزلة وترحل أمى وعائشة لمقابلتهم..

أسند عمر بظهره إلى كرسي المكتب الضخم وقال بنفى. رواجك ما يضرنا.. بل يسعدنا. أما إنه لا يعنيننا فأنت مخطئ. صمت ثم هز رأسه واستقام على المكتب ثم عاد ثانية يستند إلى سند المقعد بظهره وقال مشيحا بوجهه عنه: تذكر ماذا قالته أختك الصغيرة. زواجك يهنا جميعا. ثم استدار غاضبا- مولأنا بشاركك فيها. استنطرد فى صوت ارتفعت نبرته: إحنا ندور فى

مستقبلك.. تعلم.. وصمت فترة وهو ينظر إلى أسفل ثم عاد إليه بصيح: أنت فى ورطة تعبت مع العاهرات وتتسكع مثل مراهق جرحه «غرناطية» من خصيتيه على الأسفلت وبحر هنا نحمل همومك ومشاكلك كيف التيوس.

سكنت ونيس على الفور، ها هو عمر يخرج من جلده الذى حافظ عليه معه، ويكشسر عن أنيابه، وجلدت ملامحه واستفر عقله خوفا من احتمالات هجوم أخيه المغاأة، عليه أن يكيل له الصاع صاعين. كلمتان والإهانة مثلها لا ينم عن ذلك إلا عن عينين نورتا نيار العضب وبهض عمسر عن مقعده واضعا كفه فى جيبه وملوح بذراعه الطليق.

هده الفتاة تَسَكُرُ مستغبل مفتوح أمامك. بإمكانى أجعل منك فى عشر سنوات وزيرا، أو تكون مساعدى الأمن فى هذه المؤسسة الضخمة التى نبنيها. فقسط لو تفهم فى الأعمال. من أثق به غير خوتى. الآن يرتفع فى سماء المجتمع شسباب سيكونون سادة المجتمع غدا. وأنت تحنى وتنظر إلى الأرض. بل تضع رأسك فى الرمال مثل النعامة. هل أنت ساذج إلى هذا الحد. ليكن أقض وطرك منها. وسوف تسسلوها على الفور ثم استقام على المكتب وراح يضرب كفه اليسرى بسيف كفه اليمنى واتحنى عليه فتراجع ونيس منزعجا محترما فى توتر تصرفات أخيه الذى قال له. هل هناك ضرورة لورقة شريعة حتى تكتشف أنك سوف تملها على الفور.. سوف تنهار كل هذه الأحلام الوهمية.. ولكن بعد ماذا. بعد أن تكون قد فقدت مستقبلا طويلا عريضا. ألا يكفيك هذا أستطيع أن أزوجه لأحد الذين لا يهتمون بعرضهم. فنالها وقتما ترغب. صدقنى أفعل إذا بتبى.

صعق ونيس ونظر إليه فاقد النطق واستطرد عمر قائلا: الرجل العملى ما للعواطف دخل فى أعماله وإلا فسوف يفشل كمن يريد السير فوق الماء.. أن تشتط على أن أوافق على زواجك من

« الغراباطية » قاطعه بس اسمها مو العرناطية.. اسمها سائلين..  
لكن عمر لم يابه بمقاطعته واستطرد: مقابل أن تذهب إلى القاهرة  
هذا شيء غريب لا يمت إلى العاقلين بصلة.

ألقي بولاعته الذهبية ونفث الدخان بقوة عاضيا وعاد إلى  
مقعده الضخم صامتا.. مرت فترة طويلة اعتقد ونيس أن الأمر  
قد انتهى عند هذا الحد. وعليه أن يرحل وكان على وشك الرحيل  
عندما جاءه صوت عمر يقول في هدوء وحكمة ظاهرة: لا تكن  
عجولا.. فكر كثيرا وأنظر للحياة بواقعية. أنت أخي الذي أرغب له  
في أن يكون أحسن من أنا.. ثم استطرد: لو تساعدني. يجب أن  
تكون طموحا ذا علاقات وسلطة.. هكذا تستقر وهكذا تحصل.  
ليس على قناة واحدة بل على من ترغب من النساء. وليكن أنني  
مقتنع بوجهة نظرك ولكن تستطيع تأجيل هذا الموضوع عاما أو  
عامين.. مه.. أختبر فيها يا أخي عاطفتك. لكن لا تشتط على  
هذا بأعمالنا.. جهز نفسك للسفر خلال أسبوعين. أجاهه ونيس في  
حزم: لن أسافر لأي مكان.

- شنو.. لن شنو؟

لن أرحل من هنا.

- لشنو

- انتهوا من الموضوع الأول. وبعدها لتحدث في السفر.

هز عمر رأسه وقال: لن تتزوج هذه القناة.. أنت ما تستطيع.

- ما أستطيع شنو؟

أنا خلاص.. عطيت كلمة.

انتمض من مقعده وقد استند بذراعيه فوق سندی المقعد. لمنو؟

للراجل اللي ريته منذ ساعات.

أي رجل؟

- اللواء ( م )

انحنى ونيس إلى الأمام وقد انتفص جسده. وتنبهت كل خلية من حواسه إلى أخيه وحقق فيه بعينين ملتهبتين بالتساؤل. عن شنو؟

- أهدأ لشسو أنت منفعل هكدا.. لقد طلبت يد أخته لك.

هتف ونيس غير قادر على التصديق.

- أخت منو؟

أجاب عمر أخت اللواء

- أنا.. وضرب صدره بمقدمة أصابعه عدة مرات وهو يكرر في هيسستريا أنا وأجابه عمر نعم أنت - لشسو ما تصدق أنت مو أقل شأننا من أن تأخذ أخته أنا أبحت عن مصلحتك.. هذا هو مستقبلك فكر به وسوف ترى أنني لم أخطئ في أي كلمة قلتها.

أجاب ونيس وشبح التروس العملاقة التي تختفي تحت قيعات العسكرية. ودهبا لمن يحوز رضاهم ونطحن كل من يقف في سبيلهم يقترب منه وثيرا:

- من سمح لك بأن تعطى أحد كلمة عني.. لست أحد مشاريعك لست امرأة حتى يتحدث باسمها الآخرون. وصلت به الهيسستريا وأخذ يردد كيف كيف فعلت هذا من سمح لك هذه حياتي.

بلغ صوته المرتفع إلى الخارج. فلكنز على جمعة جان وهو يعنفها لكونها لم تجتهد في عملها أثناء جلوسهما سويا. فوقفت تنتظره خارج الغرفة كي تستقبله في أحضانها.

وفي الداخل قام عمر في غضب يحاول تهدئة ونيس الذي أخذ بصيح فيه: كنك أنت تبيع في؟!

- أهدأ أنا نبغي مصلحتك

- بَكل أنت نبغي مصلحة نفسك .. أنت تبيعني.

فصاح به وقد عاد ثانية الى مفعده: قلت أهدا. لشنو تصرخ  
هكى؟

نهض ونيس وهو يكرز على أسنانه من الغضب من المكتب  
وهو يصيح فيه: وليش تلعب بي رد عليه فى سخط. كيف ألعب  
بك.. اهدا وما ترفع على صوتك. فكر مليح هذه فرصة ما تنكرر  
ثانى.. دمدم فى صوت أمر أستغز ونيس أنه لم يرغباء.. وفى جيون  
حيوان وقع فى المصيدة قذف ونيس عمر بالحجرة الرخامية الموضوعه  
قبالته على المكتب يردد

وغد وغد

مرفت الحجرة بجانب وجه عمر مياشسرة لتصيب لوح الزجاج  
الضخم الذى سقط يكامله خلفه. محدثا دوبا هائلا. وتاثر  
شظاياها فى كل مكان وعمر الذى لم يواته الوقت كى يلتفت خلفه.  
ظل محدقا فى ونيس الذى اندفع إلى الخارج. استقبلته جان تحيط  
عنقه بذراعها فلطم صدرها بدفعها عنه بقبضة يده فى قوة فهوت  
أمامه على ظهرها على الأرض وقد اتسعت عينها دهشة. وتساؤل  
مزوج بألم يغشى ضباب الدموع وقد كشفت ملابسها القصيرة عن  
فخدها الناصع البياض وسروالها الداخلى الأسود القصير التى مدت  
يدها تعطيه فى سرعه فانطبع المشهد فى عينيه. والفتاة تردد فى  
خوف: ماذا فعلت.. هل فعلت خطأ.. لماذا هو غاضب؟

صمق الباب خلفه. واندفع على جمعة إلى الداخل. فوجد عمر  
جالسا على مكتبه فى عيظ. القرد هادا قذفنى بالحجرة.

- توأ أنت سليم ما فيك شىء.

سليم أبتسم على جمعة ثم ارتفعت صمخته عاليا  
فابتسم عمر هو الآخر. قال علي: أسد نشهد الله هو أخوك وما  
قصر.. ما يصير بمعناها سواه.

- هذا نيس.. سخن فى ورطة شنو نسوى؟

هرز على كتميه باستهانة موضحاً بأنه لا توجد ورطة ولا شيء. تساءل عمر إذا لم تكن هناك ورطة فما الذى ينعى. قال بيروود أدهشه. تزوجها أنت.

\* \* \* \*

سار ونيس فى شوارع المدينة هائما على وجهه. وفى منتصف الليل وبعد خروجه بنصف ساعة اتصل عمر بثرىا بسألها إذا ما كان قد عاد. أجابت بالنفي. عادت الى فراشها، بينما كان يجلس ساهما على الشاطئ، يستمع إلى صخب البحر يعلن له بأن الحياة تكون فشلا ذريعا للإنسان الذى يرى أعماق بما يجب. عبر السماء شهاب يحترق. فخطر له أنه قد يكون ستارا لحيوات أخرى مدهشة.

كان مذعورا إزاء المجهول. يود لو يصرخ فى وجه النظام الكونى المائل أمامه. ومرأى سروال الفتاة الداخلى الأسود القصير الملتصق ببشرتها الوردية الناعمة. والمنطع على عينيه. وصوره الجسد البشرى الضعيف المرتطم بالأرض يخنقه حزنا. وقد ملأته أحاسيس اليأس لفضح سترها غيلة. تبدو الحياة قدريّة تسحق الضعفاء. ولو أنها صفعته أو سبته لاستراح. لكنها كانت تعيسة مهورة ببصمات الذلة والشقاء.

امتلا قلبه بالنعاسة حتى سلمى صارت يعجدة.. ما يؤلف أزمته. المفاجأة التى جعلته يتماس مع رجل عسكري يمثلك سلطة نافذة. رجل يهشم العالم. هوانيون وطغاة يلتذون بالقسوة ويوزعون نبلهم المزيف على عبيد إحساناتهم.. أيقن بينه وبين نفسه أنه حتى لو لم تكن هناك سالمين. فما كان يقبل أن يكون رجلا من الدرجة الثانية. يعيش بالتزلف. على التقاط ما يتساقط من بقايا قوتهم المطلقة. معرضا نفسه للهوان أمام ماكينات طغيانهم الضارية. تدهس كل من يقع فى طريق أحذيتهم الثقيلة...



برقت السماء وفتحت أبوابها ملاً الرعد سمعه وانهمر المطر  
شلالاً. وأخذ يجرد قدميه في الطرقات المهجورة على غير هدف.  
وفكرة محورية تترسخ في يقينه: عمر يستخدمهم في مصالحه.  
وسوف يبيعهم بيغاً لو احتاج الأمر. ونبغى عليه ألا تماس حياته  
معه في أي مكان أو زمان..

في الرابعة والنصف صباحاً بلغ الفيلا منهكا مبتل الملابس.  
وأصق المطر خصلات شسعره الأشسعت على حيينه. كان يسعل  
بشده. دق الجرس طويلاً قبل أن تتلملئ ثريا من نومها القلق. لتغادر  
فراشها تنظر الطريق من زجاج النافذة. لمحت في ضوء الشارع شبها  
مبعثر القوى أشعت الوجه يجلس أمام البوابة على أرض الرصيف  
المبلل بالمياه. ملقياً بسسترته على الإسفلت جانباً. حدقت لتتعرف  
عليه. ثم اندفعت في قميص نومها. تتعثر في درجات السلم.  
فتحت الباب الداخلي وعبرت الباحة تحت المطر. وهي تهتف باسمه.  
حلت البوابة المعاندة وقد صدمها مرأى وجهه الشاسح: ونيس  
ونيس «كنك.. شنوبك» رد علي.. يا ربي.. يا ربي.. أسندته على  
كتفها ورفعته حتى عبرت به المدخل الخارجي.. تركها يجرد أقدامه.  
تهزها عيناه المطفأتان. سبفته تفسح الطريق وقد امتلأت الأرض  
بأثار أقدامهما المبتلة وهو يردد: الخنزير التيس.. يبي يعنى.

تعثر على درجات السلم سارعت تمسك يده فأخذ يتوكأ عليها  
وقد ناخ ساعدها لثقله. وضعت كتفها تحت إبطه واحتوت ظهره  
بمساعدها تساعده على الصعود. تطلب منه في جزع وهي لا تعلم  
شيئاً أن يهدأ. وأن كل شيء سيكون على ما يرام.. لو تخبرني بما حدث  
لك هل تشاجرت مع أحد أنت لست سكران كيف بك إذن؟

لبت ملايسها وانتقل لنهديها ونصفها الملاصق له من جسده  
البارد دفء سيبقى معها طويلاً. وفي غرفة نومه قاده إلى مقعد  
ضخم. فتهاوى منها الكا. وراحت تستبدل ملايسه العلوية. تخلع  
عنه ربطه عنقه. تفك أزرار قميصه الملتصق بجسده. وهو يساعدها

ففى خلع فانتله الداخلىة. وانثنت تنحى على قدميه تخلع الحذاء والجوارب. فنظر اليها بوهن وهى تحت أقدامه وقال إنه لا يعرف من أين واته النذالة كى يضربها.

سألته منزعة «من؟» قال. «اللبنانية اللى بقيم عندها عمر». شعرت بطعنة نافذة؟ ضافت عينها وهى تسأله. كيف؟

أجاب فى صوت ضعيف: رميتها الأرض دون ذنب. التمتع فى عينيه ضوء التشفى وقالت وهى تدلف خارجا لتصنع له الشئ: ريتك قتلتها. ولم بسمعها. ولما عادت وجدته مددا على وجهه فى نوم عميق. لا برندى سوى سروال منامته. يلفحها بظهره العازي. تتمنى لو تمددت فوق لوحه البربرى الصلد. حاولت أن توقظه حتى يستكمل ملابسه كى لا يصاب بالبرد. كان يغط فى النوم.. أحضرت غطائها الصوفى. وأحكمته عليه كى تظل لزمان طويلا تنشمم رائحة عرقه وهى تستجلب اللذة. وأغلقت النور عائدة إلى غرفة نومها.

كانت الباحة الداخلىة يخيم عليها الصمت. خرج الشبايب إلى دورة المياه ثم عاد يتخبط بقطع الأثاث المتناثرة. تمددت ثريا فى فراشها مستيقظة تتابع ضوء الطريق القادم من زجاج النافذة. ينتشر فى الغرفة المظلمة. مرت عشر دقائق قامت متسللة إلى عرفته. وجدته نائما على جانبه وقد أعطاها ظهره. هزته فى رفق فلم يستيقظ. وفقت مترددة. وعادت نهزه فلم يجيبها.

دون أن تدرى ما هى فاعلة. صعدت الفراش. رفعت الأغطية ومددت جسدها خلفه. أنعشمتها برودة الفراش. ارتخت لحظات وتفسست بعمق بشديد رائحة الظلام. وقد مستها نشوة العبق الرجولى الذى امتلأ به الفراش. عاودت الارتحاء ثم أخذت تمسك جسدها الخام بأناملها. وهى مستسلمة للعبق المتصاعد من الجسد الملقى جوارها نكتشف كمراهقة مبتدئة غموضه

الساحر. نتابعت الموجات خافتة في طريقها الوئيد للدروة. مدت ذراعيها على طولهما إلى الخلف واستقامت بجسدها ترتفع قباب يهدبها للسماء على أشده تشدد أوتارها حتى كمل القدم. وعلى قمة الموجة قاومت السقوط وهي تضغط على الحائط الخلفى في انتشاء باهر. وتراقصت بعينيها المغمضتين وأنفاسها اللامئة الومض الزاهى لقوس قرح.

بحيرة ودون وعى انثنت تلتحم به بقوة. فلما حل بها الارتخاء بطيئا تراجععت عن الجسد الخامد بجوارها ووضعت بينها وبينه الشرسف مغطيه به نصفه العلوى العارى ثم ارتكنت عليه ببطء وما لبثت أن التصقت به وراحت ممددة في سكون ترشف نشوتها وحيدته في هدوء. كاد النوم أن يغشاها وفي السادسة والنصف تسللت عائدة إلى غرفتها وقد بدأ الصباح فى الانبلاج فلما استيقظت تبحث عنه. كان قد رحل.

\* \* \* \*

فى الأسبوع التالى عاد حميدة من غرناطة الشرق حيث التقى بسالمين. فازداد حماسه لأخيه وصار من أشد المدافعين عنها. ما أثار ضيق وحب استطلاع لدى ثريا. وفى اجتماع عائلى دار نقاش حاد بين حميدة وعائشة مع أخيهما. عندما صرخ فى وجههم متسانلا عن زوج ناصر؟ قال أبوه فى تردد «أنا» فعقب ونيس «هو وعمر مو هكى؟

- نعم.. أنا وعمر.

- باهى لن تفعلوا بى ما فعلتم بنا ناصر هل نفهمون. وسأتزوج من أريد شئتم أم أبيتم. وستوافقون وإلا نسجلها عليكم. ولن أدخل البيت بكّل

وفى اليوم التالى وافق أبوه على ماض بعد أن قال عمر «عذا

الطائش ما منه رجاء اتركونا من مشاكله». انفقوا أن تدهب أمه وعائشة لخطبة الفتاة تمهيدا لذهاب أبيه وعمر وقراءة الفاخة.

\* \* \* \*

فى حوش سالمين اعتذر الشايب. فالتفت جدر صخرية على جسده بفعل قوى خفية كامنة فى أعماق الماضى. وهى تهتف به «يجب أن تنسى الطفولة»

قال الشايب: عطيت كلمه لأخى. فانكمش الجدار بشدة على صدره يضغطه بقسوة. والحياة تبتعد سريعا مخلقة وراءها الظلام وردد ونيس سارى الضوء لأخر مرة.. يجب أن تنسى الطفولة واطمئن فهناك ما زال بعد آلاف العجزة والمرضى والمشوهين والمتخلفين عقليا.. ما زال هناك القاذورات بالطرقات ومتخصصو السوق السوداء والتهريب والقوادون. ما زال على وجه العالم الفقراء والمتسولون وسكان القبور وأكلو اللحم البشرى. ما زال الجمال الإنسانى بعيدا عن الجمال يأكله الموت بيسر.

أجاب لكنى كنت أريد أن أكون

عادت النسوة ثائرات وقد أهينت كرامتهم من رجل يعتبرونه لا قيمة له. عنفته أمه فى قسوة وكاد أبوه أن يلعنه. كانت ساخطة فى ظاهرها. جذلة فى داخلها فقد عاد إليها ابنها الذى كان على وشك أن تختطفه واحدة من بنات الساحل.

وعاد هو إلى شسقته مهدوم القوى منسحقاً. وبالشرفة المقابلة كانت نزيهة لا تزال تدخن فى شراهة. وهى تداعب كليبيها. وصديقه دكتور رفعت وزوجته بواسيانه وسط حزن يحثانه على المقاومة. أجاب بيأس أنه سيكون مضعة فى أفواه المدينة لو أعاد المحاولة .. صمت قليلا وقال فى سخط إنه يستطيع أن يضعه أمام

الأمر الواقع ويجبره على الموافقة مرغما. ظنا أنه يستطيع الزواج بها. فحسبته أن يفعل. لكنه قال في بأس إن الزواج بها دون موافقة أبيها مستحيل والحل هو أن يرض بكارتها. صمنا من الرعب. هز رأسه قائلا: لكني لا أستطيع ولا هي تستطيع. تساءل رفعت بحزن كيف يمكن أن تتوفر كل الشروط المادية والمعنوية لزواج طبيعي ثم يمنح حق الاختيار. يقرضون آراءهم وأحكامهم التعسفية. هذه دعوة إلى الخطيئة.

قال ونيس في غضب مكتوم «الخطيئة وحش ضار بدور في شوارع المدينة. ضباع ضارية تنتظر النقابات التي يلقيها الكبت يلتهمها بشراسة مسعورة.

\* \* \* \*

دق جرس الباب في لهاث. انطلق يتلقاها مندفعة إلى أحضانه. غير قادرة أن تنظر عينيه. ضمها بقوة حتى يتأكد من أنها بين يديه حقيقة. يبحث عن عينيه الخفتيتين في صدره وهمس «سلمي»:

فكان جوابها بكاء حارا يخرج من أحشائها. أخذ يمسد شعرها كطفله تبكي بين ذراعي أبيها. أعاد الهمس المتقطع «سلمي.. سلمي.. أعطيني عينيك». فاندفع بكاؤها مريرا كالعلقم.. عاد يضمها بقوة وسررى الدفء إليها وهو يلف بها أرجاء الغرفة وحيدين يردد «أريد أن أرى عينيك.. اشتقت إليك».. أخرج صوته «كنت أظن أنتى لن أراك بعد الآن». استطرد بصوت داهل وهو ينظر حقيبتها المدرسية الملقاة على الأرض «جئت بملابسك المدرسية» وكانت تجيبه بشهقات بكائها وجاءه صوتها ملناعا «أحبك».

واخذ يخف بكاؤها وغرق وجهها في صدره فاستطرد.. أحبك لا أستطيع الحياة بدونك هذا الأسبوع مضى كالبحيم . كدت أقتل مرضى في غرفة الجراحة حتى منعوني من دخولها .. كدت أرتكب

عشرات الحوادث حتى أخذ متى رفعت مفتاح السيارة.. لا تبكى  
أعطيني عينيك.

مد أصابعه إلى ذقنها ورفع وجهها نحوه واستسلمت مرجفة  
وهي تشهق. وقف وجهها أمام ناظره مغمضة العينين. وهو  
يمسح دموعها بأنامله ويقبل وجنتيها وجبينها وعينيها المغلقتين  
وبلثم أرنبة أنفها. اشتتهته عند ثغرها وهي تهمس «ما تتركني..  
بالله عليك ما تتركني.. هل ستتركني؟»

لا كيف أفعل هكسى... كيف أترك نفسي. وعاد مع صوتها  
ابتسامته الرحبة فحطت برحاليها هناك على شاطئها. قال  
باسمها والعذاب بملأ وجهه يسألها «وأنت؟». فردت باندفاع وصباحة «  
ستشرب من بين يدي الماء».

نظر إليها بجسده المنحنى يرشف الماء من بين كفيها  
المفتوحتين ويهديها القربين منه. يلمس أناملها الرقيقة كقطرات  
من ندى رصعت بها زهور السوسن. كانت عيناه تتألقان فى لمعان  
غريب بانتظار رؤبة بزوغ ميلاد جديد.

\* \* \* \*

طرق أبواب الشيوخ من وجهاء المدينة وكبارها وراح يرسلهم  
واحداً خلف الآخر إلى دار سلمى باسسطاً بكل روية وتعقل كافة  
الأسباب التي تجعل من زواجه بسالمين زواجا صالحا وكانت عباراته  
صادقة للحد الذي كان يلقي تقدير الشيوخ.

أما سالمين فقد اعتزلت الدار وتوقفت عن القيام بأى من  
واجباتها لا تجيب أحداً الحديث حتى أبوها خاشت لقاءه وعافت  
الطعام فهزلت وانحست عيناها من البكاء. ومع كل يوم يمر كان  
ونيس يصبح بعيد المنال أكثر من ذي قبل فأضافت المدينة  
لشائعاتها وأحاديث النسوة والرجال هوة يصعب اجتيازها. قالت

ذلة وانكسار» بقى محمد بورويه إن أبى يعتبره ابنه وهو أعز أصدقائه ورفيقه بالمسرح ساعدته أمى فى الزواج بن يحب بعد أن كان يلاقى نفس الصعوبات التى نقابلها نحن نوا سوف يساعدنا بإخلاص هو وزوجته هما شبابان ويقدران على الفهم نبي الدكتور رفعت يروح إليه هذا هو ملجانا الأخير.

\* \* \* \*

قال محمد بوراويه لونييس «اطمئن إذا لم يعطها لك بوما نعطيهها لك أنا». وفى اليوم التالى رحل وزوجته إلى الأب وقال له أنت أستاذى وأنا نعتبر نفسى ابنك. ونعتبرك أبى ولقد عهدتك دوما متفتحاً ما ترضى وما تقبل العلاقات القديمة المهترئة. والأمر مو محتاج للشرح والتبيان. أنت رجل من أهل الفكر والفكر لا يحيا إلا بالخرية.. سالمين أختى ومانا محتاجين للتأكيد على هكى.. فهل أخذت رأيها؟..

قال الأب وقد جههم وجهه: ما انى فى حاجة إلى ذلك. أنا نعرف مصلحتها.. قال بوراويه فى مودة: ما أستطيع أصدق أن هذا الحديث منك ولو لم أسمععه بأذنى ما صدقته ككك تعرف مصلحتها ما ينقى أنك تعرف رأيها الشخصى.

- رأيها نعرفه.

أجاب بوراويه فى شك واثق أنت؟

اكتفى الأب بالصمت. استطرده بوراويه دعنا لا نتحدث عن الحب مثل هذا يثير الحساسيات رغم أنى مندهش: موقفك من زواجى كان غير هذا. أنت أنقذت زوجتى من الانهيار لكن ما هو الزواج؟ شباب يستطيع أن يقدم لابتك حياة مادية كريمة.. مو نبي

لها شابا على أخلاق عالية وسمعة طيبة موثري لها إنسان يحترمها ويحترمها وتقديره وما نقول معجب بسالمين وما تشعر منه بالنفور يعتقد هادي رغبة الأب والدين في الزواج الصحيح. هز الأب كتفه وعدل من موضع قدمه وهو يسله: باهي وشنو المقصود من كلام المزوق هادا.

- تقدم لسالمين طبيب مرموق من عائلته طيبة وثرية وعلى أخلاق يشهد بها الجميع. وهو إنسان منفتح عاش في أوروبا مدة طويلة ولا يريد من كل البوادي والحضر غير بنتك. بيغي يسافر ألمانيا ويأخوذها معه بيشر يحصل الدكتوراه في طب الجراحة.. هو اختار بنية من أكمل بنات غرناطة، فكان اختياره دليلا على معدنه. واعذرني إذا قلت إنه لم يبحث عن المال، بل هو يبحث عن عيلة مترابطة كأسرتنا وأنا أراه إنساناً عظيماً له مستقبل باهر يستحق عليه أن تعطيه بنتنا وأنا عطيت كلمة لأخي.

- وهذا بالذات مو منطقي من كاتب ومفكر مثلك. الإنسان يبني السجن ويبني الحقائق. وأنت الكاتب المفكر ما تبني لبنتك سجن.

- انظر لهذا كهاى نافذة، هي مغلقة ما تعرف شنو خلفها. كذلك بنتى بينها وبين الحياة نافذة ما تدري شنو وراءها.. هي تعتقد إنها تعرف. في الحقيقة هي ما تعرف. ولهذا أنا أعطيتها لين بيشر يحميها. مو ولد يبي يلعب ويدير شغلوات هكي ولا هكي.

\* \* \* \*



أتى الصباح على منشآت ومدرجات والأبنية الحديثة لجامعة  
الحاضرة الشرقية بطيئا يتلسكأ الظهور وكأن به رغبة في عدم  
الجيء. عاهرة تود لو تخفى حملها السسفاح الذي زرعتة في رحمها  
أحذية العسكر الثقيلة.

كان للمطر طعم الحامض. وللرياح القادمة من البحر رائحة  
الزئبق. ولغات الطلاب القادمين في الصباح الباكر من منازلهم.  
حَمَلهم سباراتهم الخاصة وباصات الجامعة طعم الفاجعة.  
الصيحات الخسبة بالذكرورة ينادى الشباب أسماء أصدقائهم.  
غابت هذا الصباح أمام الوجوه الغربية، التي امتلأت بها أركان  
ومرات الجامعة من رجال الأمن السرى. نتحدى كعوب مسدساتهم  
المدلاة من خواصرهم وجوهاً في مقتبل العمر. معلننة أن القمع  
والكبح والإخضاع هو المصير الوحيد لمن يبغى التمرد.

ولكن لماذا التمرد؛ عمليات القمع الوحشية التي ووجهت بها  
نتائج انتخابات الاحادات الطلابية. القسوة المتعمدة التي قام بها  
ضباط الصف أثناء عمليات التدريب الوهمية الطلاب الذين فرض  
عليهم الانضمام لمنظمات المقاومة الشعبية. رايات الحرية الحمراء  
التي تخفق في صفوف الشباب عنوة لا حتاج إلى دوافع أو أسباب.  
الأعداد القليلة من الطلاب النشطين الذين تقدموا للصفوف.

معرضين أنفسهم للخطر. متحطين كافة الخطوط الحمراء التي  
تزعج البنية الفاشية لسلطة العسكر.

المنشورات السياسية التي امتلأت بها جامعات العاصمة  
والخاصة الشرقية وكليات ومعاهد البادية والحضر والساحل تندد  
بالتطبيع اللا ديمقراطي للحكم. وتطالب بالحقوق الديمقراطية.

معلقات من أشعار الشلطانى والسنوسى الهوى داخل  
الحرم الجامعى يتغنون بالحرية. وينددون بالديكتاتورية العسكرية  
وقمع الحرية. وخود العسكر والقبعات الحمر

الأسباب المجتمعة التسي جعل من فرض طالب من العاصمة  
رئيسا لآحاد طلاب جامعة الحاضرة الشرقية غير مقبول. إنه يطلق  
القوة التاريخية للعشائر. فى مواجهة السلطة العسكرية. فهل  
قدر للشرق أن يظل تحت إمرة العاصمة؟

وهل قدر للشباب الأنيق الخلو المعشر الهادئ الملامح. الخليق الشعر.  
الذى لا يتشبه بطبائع الهيبز والذى اختارته جموع الطلاب أن يكون  
مثلهم فى الآحاد فى مواجهة القادم من العاصمة والمفروض من قبل  
السلطة أن يجسد الدلالات الحصيفة للنهايات غير المتوقعة.

والطلاب يصعدون مدرجاتهم فى جسد الصمت والترقب.  
لا يفترق حالهم عن حال أسانذتهم الذين قطعوا شوطا طويلا  
فى التعتى بجمهورية البادية الوليدة. بين الأنواع غير المدرجة فى  
قواميس اللغة السياسية والعلوم التى يتعين تلقينها للطلبة  
المتحقين بكلياتهم ليتخرجوا مهندسين ومحاسبين ومحامين  
وأطباء وكل ما تحتاجه الدولة الفتية والغنية من أبنائها الشباب  
لستقبل زاهر حر.

إذا كنتم قد أعطيتهمونا حق الانتخاب فلماذا لا تقبلون بالنتائج؟  
نحن لا نكره الثورة. نحن لا نرغب فى عودة الملك. نحن لا نعدى القائد

الزعيم العربي اللواء القائد ولا أعضاء مجلس قيادة الثورة.

لكن إذا منحتمونا حرية الاختيار فلماذا يرعد سماء الجامعة بطلقات الرصاص. لماذا يسيل الدم على المدرجات وفي أروقة المعامل. وفي الباحات التي يدرس فيها فلسفة أرسطو وارتقاء دارون. وحتمية نيوتن. ونسبية أينشتاين. وعقلانية ابن رشد. وجماليات الفن الحديث؟ لماذا يسير رجال تتدلى من خواصرهم مسدسات الفاشية.. من أنتم وماذا تخوفون تحت قبعتكم العسكرية وأحذية الموت الثقيلة؟

حريتنا.. هذا ما كانوا يتغنون به. وهم منكبون على طاولات الدرس وكتب المراجعة عندما اخترق الصمت الحال في طرقات الجامعة وفضول التعليم بطلقات رصاص مسدسات الشرطة السرية.

الأعداد الغفيرة من الطلاب المجتمعة في ساحات الجامعة. في حوار ساخن حول الأحداث. لم تكن تتوقع ما توقعته حدوثه أن يتم في الحقيقة. لكنه مثل فيلم خيالي سقط بينهم ثلاثة من قياداتهم بطلقات الرصاص. لتسيل الدماء على الطرقات الرخامية.

عندما انحنى الرفيق على رفيقه الخضبة دماغه بالدم. لم يكن يتوقع أن يده التي حملت رأسه ستتلون بلون الدم.. ها هي.. ها هي دماؤهم على أكفنا.. ها هي دماؤهم في أعناقنا..

حمل جماهير الطلاب جثث رفاقهم الثلاثة الخضبة بالدماء. ليطوفوا قاعات الدرس. والغضب المروع ينصاعد بلا توقف. ليتحول إلى رياح عاصفة محملة بالكراهية. وفي أرجاء الجامعة طارت جماعات الطلاب الغاضبة أفراد الشرطة السرية. ودارت معارك دامية في أرجاء الجامعة. وفي الظهيرة أعلن طلاب جامعة الحاضرة الشرقية توقف الدراسة والإضراب العام.

\* \* \* \*

مند ثلاث ليال وهم يطلبونه على التليفون. يحثون عائشة كي يحصل على إجازة من عمله ويسافر إليهم. عندما كان يستفسر عن الأسباب كانوا يمتنعون. في البداية تغلثوا بصياح ثم أمه المتعبة. وكان صوتها لا ينم عن شيء. وقالت عائشة وهى تضحك ربما وجدوا لك عروسة. لهذا جاهلهم منتظرا أن يقضى يوم النوبتجية الخاص به. الذى يعقبه يوم الراحة. فليس لديه فرصة للحصول على إجازة وهو فى أول تعيينه.

فى ذلك اليوم الشتوى البارد بلغ مشارف الحاضرة الشرقية فى العاشرة والنصف. اخترقها عبر الصابرى إلى شارع عمرو بن العاص. وبينما كان مستغرقا فى التفكير فى الكيفية التى سيتحاشى بها التعامل مع زوجة أخيه. التى وصف حالتها أخيرا بإنها تعاني من فوبيا الفراغ. وأعراض عميقة لهوس اكتئابى مركز ضده هو. فهى لا تستطيع مثل أى شخص فى العائلة مواجهة زوجها عمر. أما هو فسيكون الحائط المائل الذى يرتكن عليه الجميع. عادت ابتسامته الواسعة وهو يلاحظ أن الرياح حملت له دمدمات غير واضحة. وأرتال السيارات تنكدس بشكل غير طبيعى. وعندما اضطر للوقوف تماما. سمع بوضوح صوت هتافات غاضبة قادمة من ميدان البلدية.

نحى السيارة جانبا وسار على الأقدام مخترقا الحشود. كان الدبيب يقترب. على ناصية شارع عمرو بن العاص شاهد الجموع الغاضبة لطلاب الجامعة يركضون فى كتلة واحدة بالخطوة السريعة. يدكون الأرض بكعوب أحذيتهم فتهتز تحت أقدامهم. وهم يلوحون بكتيبهم ودفاترهم. يتقدمهم ثلاثة من زملائهم يحملون فى قسوة قمصان قتلاهم الخضية بالدماء.

هتف يا لغبانى.. «حميدة».. عاد ركضا لسيارته. يحاول اختراق الشوارع الجانبية لشارع عمرو بن العاص. ليعود إلى لطريق الخارجية للوصول لى العزيزية والقلق يداهمه على أخيه.

استقبلته السبوة والعجانر وهن بيكين أحاه الأصغر الذي كان متورطا بقوة فى الأحداث. صرخت أمه فى وجهه «كك تدير فى غرناطة خوك يا ونيس راح من أيدنا.. وأنا شنو أسوى بالحياة من غيره.. كيدى يا ولدى».

لم يجد ما يقوله كى يوضح كيف يمكن له أن يدرك الأمر. كيف يمكن أن يخمن ما لا يمكن توقعه. قالت ثريا «شنو نسوى التليفونات مراقبة». قال إنه يعرف أن التليفونات مراقبة لكنه أيضا ليس ضليعا فى ضرب الرمال. صرخت صديقة. تبصر أنت وإحنا هنا وبانتك. معدتنا تقلب علينا من خاطر خوك.

سألهم الهدوء لخاطر أخيه « ترى حد يقول لى ايش بيه خوى».

تدافعوا حولسه يحكون. أمه قالت إن حميدة لم يعد منذ أسبوع. وعندما سألها أين هو. قالت صديقة يدور فى المشاكل. يهدر فى هرجات ح تضيع فيها روحه. ترى الشرطة السرية قتلت اليوم ثلاثة طلاب فى الجامعة.

امتقع وجهه وعبو يستمع لأبيه يتأتا فائلا إن الحاج الفرجانى وناس كثير حتى على جمعة والمهدى عمران أجم. يقولن حميدة متورط فى مشاكل سياسية. وهكى وتوا هو فى خطر واجد. باهى. أضافت ثريا أن على جمعة قال لها شنو يسوى حميدة هادا مو لعب عيال. هو ما يدرك أن هذا خطر على عمر. وقال صار لنا شهور إحنا تدير كيف ما تدير من شأن نسوى مشاكل عمر. توا يطلع لنا حميدة. توا يضيع كل شيء. وعمر يخسر كل شيء ونصير نخسر معه كلنا ما فى حدا كسيان. قال لى أرسلنى لونيس يجى من شأن يدير له صرفة معاه. نحنا فى خطر.

لم يتوقع من سريا أن تستطبع تلاوة هذا التقرير الطويل عن مصالح عمر. والخطر الذى يتهدهه بسبب حميدة. دمدم عاضبا أن

كل واحد بشئيل راسه. واجه للخارج منفعلا وهو يغمم.. الجيون هادكاهى شنو بظن نفسه عمر المختار.. توا جيب فيه.. أوقفته ثريا وسألته أن ينتظرها دقائق. وقالت «أنا جى معاك». دخلت المطبخ وخرجت حمل له شسطنائر البيض والجبن الشيدر وسألته أن يتناول إغطاره. وغفرت السلالم ونزلت ترتدى بنطال جينز وكنزة صوفية سوداء. وهى تجمع جدائل شعرها فى وشاح زهرى. حملت عنه بقية طعامه. ورحلا باتجاه ميدان البدية

فى الطريق كانت اللافتات السياسية على جانبي الطريق قد حطمت وطلانها الحرائق المتعمدة. ولطخت صور قادة مجلس قيادة الثورة. رغم ذلك كانت المدينة نظيفة لا تيسدو عليها آثار الدمار. نوقفا فى شارع جمال عبد الناصر قرب ميدان الشجرة. كان الطرفات نهتز بانضمام طلبة المدارس الثانوية للمظاهرات. وقد رفعت اللاغناات المنذدة بقانون التجنيد الإجبارى. وسوء المعاملة التى يلغاها الطلاب فى معسكرات التجنيد.

للمرة الأولى فى تاريخ ثورة بجرى التنديد شعبيا بفرق المقاومة الشعبية. التى خلقت أسطورة مقاومة الشعوب المحتلة فى الشرق والغرب ضد الغزاة والمحتلين. كان جوهرها الانضمام الطوعى. ونظامها ديمقراطية الكفاح المسلح. والانضباط الطوعى. لكن لم تكن أبدا ذات طابع عقابى.. الآن تحولت إلى امتهان جسدى وتهشيم نفسى غير مفهوم. من اجتثاث الشعر الطويل. واحتقار الطابع الهيبى للشباب صغار السن. وتوقيع العقاب المكون من الحزمة التقليدية للعسكرية. من التمرينات الرياضية الشاقة والأعمال البدنية المتواصلة. والتشد طوال أيام عديدة فى أرض الطابور وفى ظروف جوية سيئة. أمطار وصقيع وشمس من اللهب. وجحيم من الإهانات المتكررة والزحف العقابى على رمال الصحراء الخشنة تحت زخات الرصاص. فى ظل معارك لا يعيها الشباب. معارك وهمية فقدت مضمونها لكثرة ترديد شعاراتها دون شئ ملموس.

توقف ونيس وثريا أمام الطريق لميدان الشجرة المغلق بالتاريس التي وضعها الطلاب المحتجون على قتل زملائهم. انحرفاً بينما جهة كلية طب الأسنان. ومنها توجهها إلى شارع عمرو بن العاص. كان مغلقاً هو الآخر بالتاريس. تركا السيارة في شارع القاهرة الجانبى. وترجعاً باتجاه ميدان الشجرة. وأمام محل لبيع العدسات وقفوا يتابعان الأحداث ويتفحصان المتظاهرين بحثاً عن حميدة.

كانت المظاهرات المعززة بطلاب ثانوية بناير والحضر العامة قد توجهت إلى الحى التجارى وطافت به. ثم عادت إلى ميدان الشجرة. وهناك افترش الطلاب أرض الميدان. واحتلوا الساحة الواقعة أمام مبنى الاتحاد الاشتراكى. ومبنى المرور المركزى. ووقفوا على الأرصفة المجاورة. تتوسطهم أعداد ضئيلة من الطالبات.

على منافذ الطرقات المحيطة أشرف عدد من قيادات الطلاب وبينهم حميدة المعيا بروح الغضب والرغبة فى الثأر. بسبب مصرع صديقه وشقيق صديقه زاهية. على وضع التاريس أحضرت من بنابه حديثة تحت الإنشاء. على كافة منافذ الطرقات الجانبية والرئيسية.

كان الهدوء سائداً فى الميدان. تقطعه صيحات البعض على القائمين بعمل التاريس لاستكمالها. بينما وقف عدد من قادة المظاهرة يلقون الأشعار المنددة بالحكم العسكرى.

لم يستمر الهدوء طويلاً. فقد أصر قائد سيارة بيجو بيضاء من طراز 404 أن يأخذ طريقه من شارع عمرو بن العاص إلى شارع جمال عبد الناصر محترقاً جموع المعتصمين على الإسفلت. راح الطلاب يجادلونه. لكن ضغط على دواسمة البنزين فانطلقت السيارة تنز لمسافة قصيرة. كان يحاول أن يفسح لنفسه طريقاً عبر فرجة فى التاريس كاد أن يدهس أجساد الجالسين من الطلبة.

وكى يتفادهم مال جانباً بشدة كى يرتطم بإحدى اللافتات الجديدة ليهتز محرك السيارة ويصمت متوقفاً.

اكتاجت الجموع. واندفع نحوه أعداد من الطلبة الغاضبين. الجدل لفترة بين الطلاب والسائق. والسيارة فى منتصف الميدان. عندما دخل نافذة السيارة جسد ضئيل الحجم. لطالب يتسدل شعره الهيبى حتى كتفه. وعاد مختطفاً سماعة سوداء لهاتف لا سلكى. رفعها لأعلى يمد وراءها سلكها الخرزوى الأسود داخل العربة. هاجت جماهير الطلاب ووقفوا جميعاً والغليان الشديد يعصف بهم والرغبة المحمومة فى الثأر إنها عربة تابعة للشرطة السرية. جذب الفتى السلك بشدة منتزعا الهاتف وصعد أعلى السيارة. رافعا الهاتف حتى يراه الجميع.

لم تمض لحظات حتى اندفع شاب ربة قوى البنيان لينزل على زجاج السيارة الخلفى بقطعة من عرق خشبى جذبه من المبنى المجاور. تهشم الزجاج وتناثرت شظاياها فى الأرجاء. وخرج السائق مذعورا. ولم تمض لحظات حتى انهال سيل من قطع الحجارة على السيارة من جميع الجهات. لحظتها تحث ثريا حميدة يحاول إنقاذ السائق من سيل الحجارة. أخبرت ونيس كان يقف بجوار الفتى الذى نزع الهاتف. يطالبان الجموع بالتوقف عن القذف بالحجارة. عندما توقف القذف نزل من فوق السيارة. عندها تقدم شاب يافع رزين هادئ. وكان ثلاثتهم على اتفاق. وببرود شديد شرع ثلاثتهم فى إشعال النار فى الفرش والمحرك.

لقد خرجت الأمور من يده. لم يكن ونيس قادرا على التدخل لإحضار أخيه. وعلى الأسطح المجاورة. كان رجال الأمن يلتقطون صور الأحداث وصور قاداتها.

تصاعد الدخان المحترق من داخل السيارة التى بدأت مقاعدها فى الاشتعال. وتراجع المتجهرون بعيدا عن السيارة التى بدأت الاشتعال.



على حين بقي عدد من الطلاب غير مبالين بالانفجار المرتقب. حل  
الدعير بالتجمهرين. جذب ونيس ثريا خلفه. بجانب تنوء لأحد الأنسية.  
عراحت بتابع الأحداث من فوق كتفه. وتساعد الدخان لعمال السماء.  
وأشعل الطلاب الإطارات وقلوب النسوة التي تتابع الأحداث من النواهد  
والشرعات المحيطة. ترتعد خوفاً عليهم من شدة قريهم من السيارة  
التي قد تنفجر بين لحظة وأخرى.

للحظة اقترب حميدة من المكان الذي وقف فيه أخوه. دون أن يدري  
بوجوده. اندفع ونيس نحوه وأمسك ساعده بقوة. جذبته إلى الخلف. وهو  
يصيح به أن يأتي معه للحوش من أجل أمه التي تبكيه منذ أسبوع.

صاح حميدة وهو يحاول أن يخلص يده من يد أخيه. أن يتركه  
وشأنه. وجمهر الطلبة يحاولون تخليص زميلهم. وقد ظنوا أنه  
في مأزق مع رجال الأمن. واندفع حجر قوي ليصيب ونيس في وجهه  
وأنفه. ترك أخاه وضم يده حول الدم النازف. والطلبة يبرحونه ضربا.  
انتبه حميدة والتف هو وأصدقائه حول ونيس يحمونه. ولما لمح ثريا  
دفعه إليها وانفلت بعيدا تبعه زاهية. ودت ثريا لو تقول له تعال.  
لكنه كان اختفى.

\* \* \* \*

أخذت ثريا ونيس وهو يدمدم «النيس ما يبى يرجع» أمسكت  
بساعده على كتفها ولفت ساعدها الأيسر على خصره. متجهة  
ناحية السيارة. كان يخفي وجهه ولا يرى شيئا. أخذت تفتش  
باضطراب عن مفاتيح السيارة في جيبه حتى وجدتها. أجلسته  
على المعبد المجاور للسائق. وأخرجت منديلها لمسح به النزيف  
السائل من جرح أعلى حاجبه الأيمن وأنفه. ولما بنست وبدا عليها  
الاضطراب والجرع. طلب منها أن تذهب به إلى صيدلية.

جلسست وراء المقود وقبل أن تتحرك بالسيارة دوى الفضاء

بانفجار هائل: كانت السيارة المحترقة قد انفجرت وانتشر الدخان في سماء الحاضرة الشرقية. حركت بهلع باتجاه شارع جمال عبد الناصر فوجئت بالطلاب يندفعون كالسيل الجارف في اتجاهها لم تفهم لكن من خلفهم ظهرت شاحنات الجيش المحملة بالجنود. وأمامها ظهرت السيارة المحترقة.

لحقت صفوف الجنود بعرض الشارع وهم يتقدمون باتجاهها. انحرقت عائدة لكانها السبايق. وقد حاصرها الطلاب المتظاهرون وهم يهاجمون الناقلات بالحجارة ويهتفون «بلادي بلادي»

وقبل أن تفهم ثريا شيئا سمعت في سماء الحاضرة الشرقية طلقات الرصاص. فأصيبت بالرعب. وخيم على المدينة القزع الذي سيتحول إلى حزن كئيب. عندما سقط عشرات القتلى والجرحى جثثاً ملقاة في الطرقات.

وأمام ثريا سقط شاب سوري مدرجاً بالدماء. كان ونيس على وشك الإغماء. دارت حول نفسها وهي تخشى أن يخترق الرصاص أو الحجارة السيارة. بدأ أنها وقعت في مصيدة. عندما فتح ونيس عينه رأى الجنود قادمين في مرآة السيارة. همس بصوت ضعيف أن تسرع كي لا يسكوا بهما.

كان المتظاهرون يطاردهم الجنود. يندفعون للشوارع الجانبية. ويهربون ثم يعاودون التجمع من جديد. استدارت في خوف وعلى عجل ودارت المقود بين يديها في الاتجاه المعاكس لشارع عمرو بن العاص. وانثنت السيارة الببان فيو حُست قدميها. وارتفع صرير عجلاتها فوق الإسفلت. فتراجع الجنود للخلف. ولسافة ثلاثمائة متر خالتها دهراً تمكنت من بلوغ بداية الشارع حيث احترقت مجموعة من الشوارع الجانبية. لتصل شارع جمال عبد الناصر قريباً من متجر الألعاب. وقد خلقت وراءها منطقة مليئة بالاضطرابات. دارت حول المدينة حتى تمكنت من الوصول إلى مستشفى الجلاء الذي

غض بأهالى الجرحى والمصابين. وتدافعت حولها سيارات الإسعاف تطلق صفارات الإنذارات.

وسط الفوضى السائدة مُجّهما أحد الأطباء من أصدقاء ونيس. أدخله احدى حجرات عيادات الاستقبال. حيث قام على اسعافه وتضميد جرحه. ووضع ساعده فى جبيرة. وطالب منها أن تأخذه لأقرب صيدلية وتعطيه حفنة مضادة للتسمم.

عادا إلى الفيلا فى العاشرة مساء. وقد بلغ التونر بالجميع مداه. والمرأتان تلومان أنفسسهما لأنهما استدعيتاه من غرناطة. وكل منهما تمنى لو بقى ولم يأتو. ثم يتوجهان لثريا يسألانها عن حميدة فتعيد روايتها للمرة الألف.

عندما عادت به من المستشفى. أخذوه إلى غرفة نومه القدية بالطابق العلوى. وبينما كان الجميع مشغول تماما على حميدة الهارب دون أن يعرف أحد أين؟ والمطلوب من قبل الشرطة السرية لتسليم نفسه. ليودع مع زملائه المقبوض عليهم فى سجن الكوفة. كانت ثريا تدور حول نفسها تتحين الفرصة للذهاب إلى غرفة نومه. والتطلع إليه مددا على الفراش. تقف على مبعده خدق به دون أن توقظه. وإذا استيقظ كانت تنهمك فى تلبية احتياجاته وخدمته وتقديم أنواع الطعام والفاكهة. ثم تعكف بانتظام على تضميد جراحه. لقد تركوا لها العناية به. وقد تولتها تماما. كان يختصر بذهنها خاطر سرعان ما أصبحت مهووسة به. أن تلمسه: لقد التصقا بسهولة أيام المظاهرات وأمسك بيدها. فشعرت بموجات من السخونة لم تشعر بها من قبل.

وبينما كان رجال على أهمية عالية. أثرياء وموظفون كبار. وضباط قريبون من السلطة يدخلون ويخرجون وهم يذكرون أسماء شخصيات هامة للتوسط فى الحصول على الأمان الحميدة. وخصوصا أن يقينا لدى أمه أن حميدة مقبوض عليه ومودع فى

مكان سرى. بقيت ثريا نعانى من فسوة الرغبة فى اللبس. وخز بارح يعصف بفخذيها وصدرها وألم بارح فى البطن. أحاسيس جامحة. ومشاعر جديدة تعصف بالمرأة البدوية النشابة. بينما يتبادل العسكر والطلاب فى طرفات وشوارع مدينة الحضر إطلاق الرصاص المحمل بالموت فيجيب الطلاب بقذف الجنود بقطع الخيأتين الديناميتية. فيتشتر الموت بين الجميع جنوداً وطلاباً. عنف مكوت. لا يدري كيف يجد طريقه للعالم الظاهري. بينما ثريا وهى تقرب منه لسنتمترات ثم تتراجع. لتعود لتخلق عشرات الأعدار كى تقرب أكثر. لكنها لم تستطع عبور تلك المسافة. كأن هناك جداراً من الصلب يفصل بينهما. وعندما يحل الليل نسقط مهزومة منهكة صريعة فشلها. وسط أحلام مفزعة وكوابيس مخيفة لرغبات مدفونة فى ماضى سحيق.

فى تلك الظهيرة التى بلغهم فيها مكان يشتهه فيه اختفاء حميدة. خلى المنزل من سواهما. وجاءت أختها خيرية لتجد باب الفيلا مفتوحا. ظلت تجوس وحيدة حتى وجدتهما بالطابق العلوى. ثريا تقف مولية ظهرها للباب تنظر ونيس النائم وقفت خيرية أكثر من خمس دقائق تنظر المشهد الذى بدأ أنه قد يستمر حتى يستيقظ. عندما شعرت بوجودها أسرعت تتشاغل بتنظيف الغرفة. وقام ونيس خارجا. لمح خيرية فحياها. وتابعته وهو ينزل الطابق السفلى. حاملا ذراعه فى جيبه. وما إن اختفى حتى أطلقت خيرية ضحكة طويلة مطوطة حمل كل معانى السخرية والاتهام. جفلت ثريا للمفاجأة وخيرية تغلق الباب عليهما فى تواطؤ: يا سعدك يا هناكى.. المسكين حايس فى أوروبا. وأخوه بالسجن. وأنتى بتدهورى هون.. «أخصى» قالتها بصوت مطوط. همست ثريا: شنو بيكى؟

- مانى نقصد شىء.. حتى أنت بشهد ربي مسكينة.. زوجك ما يكفيه يدهور فى نسوان أوروبا راح يدهور فى المصريات القحاب..

وانتى تدهورى مع إخيه.. يا ويلي منك يا ويلي.

فالت ثريا والألفاظ تتوالد بعصية وغضب: وجهك أسود  
كيف قلبك. أنا شريفة وزوجى شريف. ليش هكى وأنا ما سويت  
لكى شى بٌكَل

- المسكينة زوجها شريف. وكل اقحاب الحضر تعرفه.

وأيش يخصك فيه؟

- أنا ما يخصنى شى بٌكَل. أنا يخصنى مصلحتك. لما تتدهورى  
تبى تقفلى الباب عليكى بيشر ما جيبى فضيحة لباتك.

هتفت وصدرها يختنق وهى تخفض صوتها إنها لم تفعل  
شيئاً. عقبت خيرية إنها تقول ما سوف يقوله أى واحد يرى ما رآته  
منذ قليل. فسوف يسألك شنو تسوى فى غرفة اشكابلى نائم  
وزوجك مو هون؟ قالت ثريا أنها تسوى الفراش. فضحكت خيرية  
بسخرية وقامت وهى تحذرها من العبث راحلة.

عندما اختفت تحاملت ثريا على نفسها بصعوبة حتى بلغت  
غرفة نومها حيث سقطت على الفراش ووجهها مخضب بزرقه  
قانية. ورغبة عارمة فى الصراخ لا تقدر على تحريرها من صدرها  
توشك أن تفتك به.

وطوال أسبوع بقيت المظاهرات على حالها. وتبادل الرصاص  
وقذائف الديناميت يترك القتلى والمصابين بالعشرات. وطلبة  
مدرستى الحضر الثانوية وشهداء يناير فى الشوارع يحضون طلبة  
المدارس الأخرى على الإضراب عن الدراسة. وينطلقون فى مسيرات  
عبر شوارع المدينة. تطاردهم جماعات الجنود. ولا يمضى وقت طويل  
حتى يتبادلوا القذف بالحجارة. فإذا أطلق العسكر الرصاص عادت  
قطع الجيلانين تفجر الغضب.

وأمام مدرستى الحضر وشهداء يناير الثانوية دارت معارك عنيفة بين الطلبة وجنود الجيش. شيء ما كأن منتقضا. شيء ما كان يجب أن يقدم ضحية على مديح الديكتاتورية. رسالة ما كانت الصدور تبحث عن طريقة ما كى تبلغ هدفها.

كان أول ما فعله ونيس هو استتباب الشرطة السرية فى تنظيم حجرة أخيه من أى منوعات سياسية. ومنذ البداية تبين أنه متورط لأخص قديمه فى الصراع الدائر بالجامعة بين انتخابات الاتحادات الطلابية. والحقوق الديمقراطية. وفى مكتبه وجدت أكدا من المنشورات والمطبوعات المناهضة للحكم العسكرى. والمطالبة بحرية تكوين الأحزاب. وإذا كانت الثورة تهتم بالقضايا العربية. فإنه ينبغي أن تكون هناك رقابة على الهذر والسفه الذى توزع به النزوة النفطية القومية على الأحلام الإمبراطورية.

.. هل هذا أخوه الصغير الذى لم يخرج لرعى الأغنام فى القبة إلا عقب سفره لألمانيا.. ما الذى جرى.. وما دوافعه حتى يوقع نفسه فى هذا النوع الخطر من المشاكل.. تذكر أيامهم معا فى القبة وحميدة لم يتجاوز الثانية عشرة. وهو يحلو له القول «أنا حميدة» جئت فى مهمة. أعدل لأمى ضد أبى. ولولاي لكانت لزوجة أبى ولدان هما عمر وناصر. ولكانت لأمى ولد واحد فقط هو ونيس.. أنا إذن رمانة الميزان فى هذا الحوش. ولم يكن يلقى سوى السخرية من الجميع. ها هو يشق طريقا مخالفا لأخيه الأكبر عمر.. وكأنه يعلن عن غضبه وسخطه.. لكن..

وفى مكتبة أخيه لم يجد كتاباً تنتمى للفكر الشيوعى. وهو ما أشعره بقليل من الراحة جمع كتب الثورة الفرنسية المكتوبة بالإنجليزية: العقد الاجتماعى لروسو وروح القوانين مونتيسكيو ورسالة فى التسامح لجان لوك. لكنه وجد أيضا مطبوعات عن الثورة الفيتنامية. وكتب حرب العصابات لجيفارا. جمعها جميعا

وهو يرخف. وقبل أن يغامر بإشعال النار فيها. قرر فجأة أن يحتفظ له بها. حميدة الأخ الأصغر الشقيق له هو ونيس بوزوى «رمانة الميزان»..

في اليوم السابع حُرِّكت جماهير الطلاب الغفيرة وقد ضمت كل الغاضبين من طلبة جامعة الحاضرة الشرقية ومدارسها الثانوية. هذه المرة كانت تعرف طريقها. فهناك بعد أن عبرت ميدان الشجرة. توقفت المظاهرة في ساحة البلدية أمام مبنى المرور المركزي ومبنى الاتحاد الاشتراكي. حيث جَاهلوا الأول. واقتحموا الثاني. ولم تمض ثلاث ساعات حتى جرى تدميره بالكامل. ولما انتهوا. أشرف حميدة على جمع أثاث الطابق السفلي. وقام بنفسه بقيادة المجموعة التي تولت إضرام النيران بداية من أساسه. ومنها انتقلت النيران إلى المبنى الذي يمثل عقيدة الثورة وأيديولوجيتها.

لقد بدأت المظاهرات بقتل ثلاثة من الطلاب. واحترق سيارة بيجو بيضاء 404 للشرطة السرية. قتل أثناءها الكثير. وانتهت بإشعال النيران في مبنى الاتحاد الاشتراكي. والانتقام بأحكام الإعدام. فقط كان الإعدام مؤجلاً.

\* \* \* \*

بعد يومين من إشعال النار في مبنى الاتحاد الاشتراكي. وقبل أن تغادر صديقة باب مدرستها فوجئت بفتاة ترتدي الزي المدرسي ونظارات سوداء تمسك بساعدها لم تكن رأتها من قبل. همست أنا زاهية صاحبة حميدة خوك. سألتها وهي ترخف عن مكانه وماذا تريد؟ قالت إن عليها أن تماسكي وأن تبدو طبيعية فهما مراقبتان. سألتها عن ما تريده. همست معاً رسالة من حميدة خوك ونيس. خوذيني لونيس.

سألتها أن تأخذ الرسالة له. لكن زاهية قبضت على ساعدها ودفعتهما للسير إلى الأمام فدما وهي تهمس «ابتسمي ما تكشري».

وطوال الطريق وصديقة ترتعد. وعندما عبرت مدخلا لباب البهو الخارجي سقطت وهي تشهق وتشتير إليها باسم أخوها النهارب.

لم تكن هناك رسالة بالمعنى المعروف. فانت حميدة قالى قابلى ونيس وموحد غير ونيس. لا عمر ولا باتى. وأسأل به شنوبى منى أفل.

قال مندمشا «ما أفهم عليكى» قالت يسالك تيه يسلم نفسه أو يهرب؟ قال طبعاً يسلم نفسه قالت تعرف شنو سوى خوك.

- شنو سوى؟ قتل ضابط.. جندى.. شنو سوى حميدة؟

- هو اللى حرق بذاته مبنى الاتحاد الاشتراكى.

رفع رأسه وتراجع للخلف. وقال بصوت صارم «يهرج حين ما يجى عمر». وأضاف بلوعة «أنا نهر به. هذا خوى أنا».

أمضت الأسرة الليلة بأكملها فى مناقشة ما يتعين عمله. كان الأب يرى أن على ابنه تسليم نفسه تعبيراً عن حسن النوايا. وأن يصحب ذلك طلب المغفرة والصفح. هكذا فعل هو مع الملك. وهكذا نجح واستطاع البقاء. ولو لم يفعل لكان ألقى من طائرة أو انقلبت به الشاحنة. فالسلطة لدى أبناء العرب لا تعرف أعداءها سوى قتلى. واقترح أنه يستطيع أن يذهب به بنفسه. أو يصطحب شيخ قبليتهم الزاوية. وأضاف أنه يمكن الاستعانة بزواج ابنته عائشة النقيب مفتاح الشهبى.

وذهبت اقتراحاته هباء. كان ونيس يعلم أن ما فعله حميدة لن يغتفر. وأن الوحيد القادر على حل هذه المشكلة هو عمر. لكن عمر نفسه بالخارج. وتدور حوله الشبهات. لكن بقى يقين أنه قادر على إيجاد حل. لا بد من هروبه. وأن عليه مغادرة مدينة الحضر قبل شروق الصباح. ويستقر مؤقتاً فى القبة حين توفير ملجأ آمن.

\* \* \* \*



بعد أذان العصر بقليل خرجت تحت المطر في تناع السيارات الأربعة التي يملكها آل بوزوى منطلقاً من العزيرية. في اتجاهات مختلفة. حيث جرى تفتيشها بدقة. وعندما عبرت السيارات الأربعة نقطة المرور الرئيسية على الطريق الساحلي. والتي جرى تفتيشها مرة ثانية. كان حميدة يدور سيرا على الأقدام كما يفعل المتسللون المصريون هرباً من كمائن الشرطة. بصحبة زاهية حيث استطاع عبور تلك الكمائن في السادسة مساءً بمساعدتها. إلى حيث كانوا ينتظرونه. استقبلوه بلهفة ورحب. وقد بدا غير ما هو حمية الابن الأصغر للحاج مفتاح بوزوى. الآن بلحيته السوداء التي غطت وجهه. قال شننو. صار لي أخ اسمه أرنستو تشي جيفارا؟ هذا ما قاله ونيس وهو ينهار على صدر أخيه الأصغر بين البكاء وضحكته الشهير بها. ضحك حميدة. وقال هذا كثير واجد بعد أنا ما فعلت شيء. تبادلوا ضمه بشوق. تفاسموه بين أحضانهم. كان الابن المنسي فصار الضمير المورق بإشراق شمس الحرية.

أمه بكت بكاءً مرّاً. زوجة أبيه بكته أكثر. ثريا اكتفت بالدموع في عينها. صديقة التي تماسكت واكتفت بانتسامة الفخر بكونها أخته أنهارت بعد رحيله. كان يبدو في لحينه الداكنة وشعره الأسود الغزير قديساً مقاتلاً. شعروا به وقد استطال فجأة وعندما قال ونيس عيش طولت هكي. قال الأب هادول أبناء مفتاح بوزوى كلهم طوال كيف النخيل..

كان يضحك بينهم مثل طفل سعيد. وبعد أن ودعه جميعاً أمه وأبوه وزوجته أبيه التي أصرت على الحضور لتوديعه وصديقة وثرى وقبل أن يرحلوا شاهدهوه يتحنى جانباً بزاهية. وعلى قارعة الطريق الساحلية وقف الاثنان كلاهما يعانق الآخر بعينيه بكفه بمشاعره. يهمسان مثل مناقير عصافير الزرزار. بينما بدأت حبات المطر في الهطول.

وأمامهما وقمت العائلة مشدودة. هناك عاشقان. كان

بهمس لها فهما أنه ينشدها شعرا. رعم كونه بهمس إلا أنهم  
تبيينوا جيدا كلماته..

هذا مساء البهيات فلتركضى يا جياذَ الدماء..  
كل المدائن مفتوحة كى نخوصى إلى العمق..  
او تحبلى زهرَ التفجر..

\* \* \* \*

وأنت الهوى يملأ القلب..  
والقمح يحمل جذر التحول..  
من يعرف الحب هذا المساء..  
لن يتراجع فى الملحن القادمة..  
وأنتِ معاناة جيلٍ تخير..  
أن يمتطى الحزنِ والموت..  
من أجل أن يورق الحب فى راحتك..  
فلا تجزعى إن تأخرت ذات مساء..  
فما كل من يقتلونه سيغدو ترابا..  
وما كل ما تاكل النار سيغدو رمادا..  
لا تجزعى إن تأخرت ذات مساء..  
ففى العمق أفراس بحر وأسمالك قرش  
ولكن دغدغة الموج للرمل فى خاطرى  
مدن تزدهر..

كانت تبكى. وكان يتسسم. دفع ونيس صديقة نحوهما برفق.  
فتقدمت وجلة حُبط زاهية بساعديها فاستسلمت لها وانفجرت  
بالبكاء. وأسرع هو يفتح لها باب السيارة فثمة سيارات للشرطة  
تعبير المكان. ورحلت صديقة وأمها وأبوها وبصحبتهم زاهية. بينما  
توجهت ثريا ومعها أمه إلى القبة عبر الطريق الرئيسية. وركب

حميدة بجوار ونيس وقد تخلصى عن الطريق الرئيسية ونزل الطريق الرومانية القديمة. الموازية للساحل. فبلغوا البوادي فى العاشرة والنصف متسرلين بالليل. حيث وجد أمه فى انتظاره على مشارف مدينة القبة فى سيارة لاند كروزر يابانية. ومعها أبناء أخيها. انتقل حميدة على عجل إلى السيارة التى صممت من أجل الغوص فى مجاهل الصحراء، ولم يبقو طويلاً وبعد وداع حار سريع رحل مع أبناء خؤولته. وعندما غابت السيارة اللاند كروزر فى الظلام ميممة شطر صحراء البادية. كانت عينا ونيس مغرورقتين بالدموع. والمرأتان تكيانه برارة. حمل ونيس أمه للمقعد الأمامى وهو يهدئها. وفكر كجنتلمان أن عليه أن يهدئ ثريا أيضا حتى تتمكن من القيادة وحدها على الطريق الخطرة. وبتلقائية ودون أن يدرك ما يفعله. والنتائج التى ستتربى على خطأ تراجيدى من مخرج العرض. ضمها إلى صدره. يهدئ من روعها ويربت على شعرها. فاستكانت من فورها تستمع إليه بالموافقة وهو يسألها أن تستعين بقوتها حتى تتمكن من العودة بالعجوز سالمتين.

لكن العناق الذى استمر دقائق طويلة. كان بين جسدين شابين فى مأزق عاطفى. لهذا تركت نهديها ينامان على صدره العريض. وكان ساعده يلتف حول خصرها. والآخر يعبر بكفه العريض جيئة وذهابا صفحة ظهرها العريض المشقوق شعرت بصحرائها التى يقتلها الجفاف ترويبها أمطار غزيرة. لكنها للغرابة تشعل الحرائق فى هشيمها الذى لم يعرف الطريق إلى الرغبة والعشق والانتشاء. وقد بدأ ينتبه للحالة التى تحدث أمامه. فنهدأها بدوا وأنهما جدا عشهما أخيرا بعد طول ترحال. قبلها من جبينها. ثم فعل غلطته الثانية عندما قبلها من وجنيتها. وهو يضعها على الكرسي خلف المقود. جففت دموعها. وساعدها على ذلك حتى هدأت جيدا. وعندما بدأ أنها جمعت أشلائها وشرعت فى الرحيل. تركته وتركت معه نظرة طويلة محملة بالشزر من العواصف

\* \* \* \*

عندما اتخذ ونيس طريقه إلى غرناطة حل بالمرأة البدوية التي تحولت على حين غرة من وعيها البدوي البدائي بالأشياء. لامرأة برجوازية تعاني السأم العاطفي ومرض الكآبة. وهو الاختراع البرجوازي بامتياز. وبسدت مثل لبوة جوس في قفص لا تراه. وروحها الضائعة لا تجد مستقراً لا لدى زوجها المشغول عنها بأعماله وطموحاته وفضائحه النسائية. ولا لدى ابنتها الصغيرة. وقد حول جسدها الفتى إلى جواد جامح فقد بصره وغشيبته غمامة البرودة الجنسية. قراح يدفعها إلى مسارب شتى. عمياء تسير في النور. مبصرة تنخبط في الظلام دون أن يتمكن عقلها الواعي من تلمس المسارب الجانبية التي تأخذها أخيراً إليه.

كراهية الليل إذن. الضجر من النوم وحيدة في فراش وثير ذو رياش فاخر. كان يوماً في زمن مضى مناز غبطة وزهو ودافع للغرور أمام الآخريات. أما الأيام فتتساقط كأوراق خريف جافة ذابلة. الجسد لموتى يعيش بين الأحياء.

\* \* \* \*

فى ذات الليلة التى عاد فيها عمر من العاصمة. وكان قادما من القاهرة وبعد أن حضر حفلة عراية اللواء ( م ). حيث كان عليه أولا أن ينقل الأخبار التى جاء بها من مصر حول المخططات السياسية والعسكرية التى يضمها السادات للبلاد. وبينما هو فى طريقه إلى المطار مال عليه أحد الرجال المقربين من كليهما. وقال إن هرب حميدة من الشرطة السرية الآن يضر ضررا شديدا بأعماله. فقال دون أن يدرك بالضبط التهمة المتورط بها. من أين يهرب؟ توأ أنا حين ما نصل الحضر نسلمه.

وقبل أن يغادر مطار العاصمة دعى ونيس ليقابله فى حاضرة الشرق. ومن المطار لهم يذهب إلى منزله بل توجه إلى مكتبه الجديد فى شارع جمال عبد الناصر حيث كان المهندس زكى المهداوى.

وبينما كان عامل البوفيه المصرى يصنع لهما القهوة. فتح عمر على مكتبه مجموعة ضخمة من الرسومات الإنشائية والمعمارية على درجة عالية من الدقة والتفاصيل والتى صممها مكتب استشارى إنجليزى.

عندما وصل ونيس استدعاه وطلب منه أن يشاركهما. فوقف يحدق فى الخرائط ويستمتع إلى الحوار الدائر بين أخيه والمهندس المصرى. الذى جلس قبالة عمر وهو منبهر بدقتها. معتذرا عن رداءة

الرسومات التي يقوم بها في الأشغال العسكرية لصالح جيش  
البيادية متعللاً بضخامة الأعمال والمسؤوليات التي يقوم بها. وندرة  
المهندسين والرسامين بالمديرية. وأشار إلى الرسومات موضحاً موقع  
قاعة السينما أو الاحتفالات وقاعة الجمابريوم، والمبنى الرئيسي الذي  
يحتوى على قسم الجراحة ومعامل التحاليل والعلاج الطبيعي.  
وأشار إلى الجزء الخاص بحجرات المرضى الذي يتسع لمائتى سرير. من  
الممكن زيادتها إلى ثلاثمائة وأشار إلى موقع الإدارة. عندها أوقفه  
عمر. وأشار إلى ونيس موضحاً أن هذه هى حجراته. أجاب ونيس  
مندهشاً «حجرتى!!»

أجاب مؤكداً: نعم وأضاف وكل هذه المنطقة حدائق وقد ننشئ  
مرفاً صغيراً للقوارب البخارية على النيل. هكى تبلغ التكاليف  
الكلية عشرة ملايين دينار. واستدار إلى المهندس زكى قائلاً تستطيع  
أن تأخذ الرسوم معك إلى المنزل لدراستها وحينئذ بتفاصيل كاملة  
غداً العصر. وأضاف مههدداً: لن أقبل بأن يخذنى أحد.

طوى المهندس المصرى الذى يعمل بالجيش جسده فى خنوع.  
وابتسامة بلهاء. وهو يجمع الخرائط وخرج يسلم على عمر فى  
حرارة. وهو ينى نفسه بسبوبة ضخمة.

خوت الحجرة على عمر وونيس الذى شعر بان أخاه يحمل شيئاً  
خاصاً له. فى البداية ظنه سيكون تعنيفاً بسبب عدم انتباهه  
لتورط حميدة. لكن عمر كان منهكاً منشغلاً فى أوراقه. ولم يلبث  
أن خيم الصمت على الأخوين الشابين اللذين جلسا كل منهما  
أمام الآخر. ولم يلبث أن قال ونيس ضاحكاً وهو يلفت أخوه إلى  
وجوده: ها سننوتبى؟

التفت إليه عمر وقال: سامحنى يا أخى. وأشار إلى الباب يعنى  
الرسوم التي حملها المهندس المصرى. استنطرد يتحدث عن مشروع  
المستشفى الذى سيقممه بمصر بتكاليف تتجاوز الملايين من  
الدينارات. وسأله بغتة إذا كان يستطيع حمل مسئوليته. تساءل

ونيس بدهشة عن أية مسئولية بتحدث؟

الطبية والإدارية.

بالطبع لا.

صاح عمر به مؤنبا أنه بهذا يكون ليس بطبيب وليس بوطنى ولا بيدوى حقيقى. وأنه لم يوافق على هذا المشروع إلا اعتمادا عليه. قال ونيس إنه يريد منه الذهاب إلى مصر وعليه أن يقبل هكذا وبسهولة. ثم لمن تبنى مستشفى حوى مائتى سرير بملايين الدينارات للفقراء المصريين أم للصليب الأحمر. ألا تعتقد أنك تغامر؟

ابتسم عمر سعيدا منتشيا بوقع المفاجأة على أخيه. وما بدا له حرصا منه على ماله وقال وهو يشرح فى اهتمام تقديرا له: إن المشروع موجه لأثريا الشرق الأوسط الخليجيون والسعوديون وللأثرياء بالبلاد العربية التى تفضل القاهرة عن أوروبا. الجانب المصرى يرى فيه تنشيطاً للسياحة الطبية العربية والأفريقية. خاصة أن الأطباء المصريين على درجة عالية من الكفاءة ويحملون سمعة عالية.. الأرباح عالية وباستطاعتنا أن نستقدم أطباء أوروبيين عند الحاجة.

قال محذرا إن سمعة المصريين الطبية صارت محل شك كبير. وإذا كان الأمر كذلك فما نفعى أنا.

أجابته فى هدوء كيف لا يهمهم ما نفعه. فهو فى حاجة إلى من يمثله بمجلس الإدارة وهو لا يستطيع أن يتفرغ لذلك. على حين أنه طبيب سياحته شخصيا على المشروع. ولو أعطيت المشروع فكرك وجهدك سيصبح شراكه بيننا.

قال ونيس متعجبا من أفكار أخيه أن يكون المشروع شركة بيننا فهذا هراء. وعمر بوزوى لن يعجز عن أن يجد من ينوب عنه فى أعماله - ضحك عمر - واستطرد ونيس من الناحية الطبية لم يمر عام على تخرجه. ومن الصعب أن أكون مديراً على أطباء يدرسون

فى الجامعات المصرية أنت جعل منى مئارسخريه .وبالتالى لن  
أستطيع لك شيئاً ثم إننى لا أنوى الرجيل عن بلادى  
- باهى أنت تستكمل دراساتك العليا خلال السنوات القادمة.  
لحين الانتهاء من المشروع هكى تكون لديك الأهلية التى تريدما.  
أنا أقول لك ما عندى مال. وأنت تقول لى أعطيك مال. وأنا مو  
فى نيتى أن أبيع لك.

صاح عمر: فسوى شوى.. ربح نفسك لئتنو أنت مشدود هكى  
على طول. ليش كل هذه الفلسفة. فكر وبعدين رد على.  
وافق ونيس على ماض. سأله عمر. امئى ترحل غرناطة.  
- بعد باكر

- زوج أختك النقيب مفتاح الشسهيبى أخبرنى بأنه سيقضى  
هو وأختك وأطفاله أسبوعين فى قرية الخيمة بمصيف الضباط  
قال لى أروح أنا وثرىا معاه وأنا ما عندى وقت بئكل . وصباح تبرى تروح  
مع خالنها. خوذهم معاك.

حاول ونيس الهروب دون جدوى. فعندما رفض تساءل عمر  
محتدا إذا كان عليه أن يحضر رجلا من الشوارع ليأخذهما. ثم قال  
بود أنه لا مجال للرفض. عليه أن يأخذهما كيفما يكون أضاف«لا  
جعلنى أشعر أنك تتخلى عن أخيك».

قال ونيس فى استسلام: ماذا أفعل . سأأذهب بس بشرط  
طلعنى من دماغك نهائى. اتركنى فى حالى. الله يرضى عليكى..  
اتركنى فى حالى..

- كيف ما تبغى. كان بدى مصلحتك.. أنا نسافر مصر بروحى.  
وفى السيارة سأله عمر شئو بيه حميدة. أكو مشاكل؟  
نظر ونيس عمر فإخا فاه على سعته. وهشف توا توا تسأل  
عن أخوك؟

\* \* \* \*



بعد أن جامل ونيس عرض أخيه سواء بالمشاركة أو الاكتفاء بإدارة مشروع المستشفى السياحي. ولم يستجب لإحاحه المتواصل بالعودة للثان. اضطر عمر للسفر إلى القاهرة لحضور وضع حجر الأساس للمستشفى. نمة مشاكل تعيق أعمال الافتتاح. حلق الرجال المهعون حول أجهزة الهاتف. وعبقت الصالة الواسعة الأرجاء ذات الرياش الماخر بدخان كثيف. وامتلات المنافض بأعقاب السجائر ورماد الغليون الذي يسنعمله بعضهم. ورضت كؤوس الوبسكي على الموائد الصغيرة المتناثرة. والكل في حديث وصياح. في حين بقى عمر صامتا وقد ران عليه تفكير عميق.

في غرفة جانبية ملحقة على الصالة دعت مدام تحسين عمر ليقى جوار زوجها. جلس يتابع حديث محمود بك راغب الذي حوّل من «جنّلمان» إلى أمرناه تطل من وجهه عينان ذئبيتان. يحدث ضابط شرطة برتبة عقيد بلهجة غاضبة: فيه قانون يا سيادة اللواء. شاهده يرفع مجموعة من الأوراق والمستندات الموضوعّة أمامه ويطلق الطاوله بها وهو يصيح بأعلى صوته: فيه أمر قضائي بهدم وإزالة الدور المقامة على الأرض. عندك أنت شخصيا نسخة منه. ومش قادر تنفذه من سنة كاملة. واستطرد بعصبية في صوت بطيء: أنت مشترك بواحد من أكبر الأندية. الرمالك على ما أعتقد. وافق العقيد بمنع الوجه بإماعة من رأسه. وأستطرد ابن الباشا السابق والنائب الخالي وتذهب إلى الأندية الليلية دون امرأتك كي تعربد مع الشراميط. ونسمح لك بامتلاك سيارات أجرة بالقسط تطلقها في شوارع القاهرة بحثا عن حسنة. فتكسر كل قوانين المرور وكمان تبني عمارة مخالفة. تأخذ ثمنها خلوات في جيبك. وتشتري عربة صغيرة كي تمضي والأولاد عطلة نهاية الأسبوع. ولو والله أعلم أخذت إتاوات من حمار المحدثات والعاهرات غضينا الطرف واعتبرناها هفوة لا تسنح هه ونفتح لك قصورنا نزرورها. ونسمح لأطفالك تختلط بأطفالنا كي تكتسب تهديبا وتزداد

رقبياً. وأنت والمذام تدوروا على الحفلات. وراك بنتك المتخصصة فى استعارة الملابس الباهظة الثمن. عشان تختار لها عريس لقطه. شوف إحنا بتعمل إيه؟ وأنت بتعمل إيه! كل هدفنا تنام هادئ مطمئن البال. عشان تفرغ لحماية القانون. لتنفيذه. وأنت بقى لك سنة ومعاك قانون صادر من أعلى السلطات القضائية. بموجب قوانين أصدرتها السلطة التشريعية الأولى فى البلاد. أنا موقع عليه بنفسى. فاضل نأخذ لك إذن من محكمة العدل الدولية فى لاهاي أو من اجتماع غير عادى للأمم المتحدة علشان نرجع ألف فدان لأصحابها الأصليين.. هه.. حاول العقيد أن يتجدد لكن محمود بك راغب قاطعه فى عنف: خلاص مش عابز أسمع كلام. ح نشوف حل تانى.

قام الرجل مسود الوجه وقال. هل تأذن لى سيادتكم بالانصراف؟  
أجابه فى برود: اتفضل.

بس أحب أقول لحضرتكم حاجة.

- قول خلصنى؟

-من سوء الحظ أنا أبوى شيرين باشا صدقى. مش جدى. وأنا عضو فى نادى الجزيرة ونادى الصيد والأهلى قبل ما تولد. ووالد سعادتك راغب باشا كان سكرتير جدى فى وزارة أحمد ماهر باشا يا بك.. والموضوع ده يخص الأمن المركزى. واطمنك سعادة وزير الداخلية ويمكن رئيس الوزراء مهتم بالموضوع جدا. وأوصى بإرسال كتيبة من قوات الأمن المركزى. وهى على وصول.. شكرا على محاضرة سعادتك القيمة.

نظر عمر لدمام خمسين. رأى وجهها باردا كالرخام بينما هو يكتنم ضحكة تكاد تنفجر من أجنابه. فكر «وكم ذا من مصر من الليكيات». مالت عليه وهمست: تعال نخرج برة.

\* \* \* \*

وسط الحقول المترامية الأطراف. رغدت القرية تحت غلالات الليل المتشحة بالسواد. تخفى تحتها الأضواء الشاحبة للدور الطينية الواطئة. وحول طعام العشاء المكون من الخبز البتاو المصنوع من الذرة وقطع الجبن القديمة والمش. والمخلل جلس الفقراء يتناولون ما سوف يقيم أودهم لكسح الغد. وقد خلت الدروب والطرق الضيقة المتوية إلا من الأضواء الجاز الكائبة. وبعض الكلاب الضالة. والخوانيت التي يتناول أصحابها طعامهم في الدكان. وقفوا في انتظار أكواب الشاي وخروج الساهرين إلى حلقات جلوسهم المعتادة. برأس الدرب أو تحت أضواء الخوانيت. وفجأة وكما تنشق المصاب عن عالم السكينة لتحيل الرضا والقناعة لحقيقة مفزعة من الخراب. انتشفت الرتابة عن عربات الأمن المركزي تفتح المكان. تتقدمها عربات الشرطة البك أب. مثلما يحط الجراد على الحقول ويخلفها خرابا. اندفع جنود الأمن المركزي من السيارات يقتحمون الدور. وهم يقفزون قفزات اقتحام الملاجئ العسكرية تسبقهم الصيحات العالية التي نهز نفس من يسمعها لأول مرة.

وبين لحظات الهجوم التي قبضت على أفواه النسوة والأطفال والشيوخ من وقع المفاجئة والذهول من المشهد الذي يجري أمامهم كانت باحات الدور قد امتلأت بالجند الشاكي السلاح يطرقون الأرض بأحذيتهم الثقيلة. تهزها هزا. وهم يهتفون ( واحد؟ اثنين.. ثلاثة) وفي الثالثة تكون أبواب المنادر والقيعان قد انهارت تحت دوي طرق الأحذية العسكرية الثقيلة وكعوب البنادق. وضربات العصي المصنوعة من الخيزران الغليظ. في الثامنة مساء كانوا قد اعتلوا سطوح الدور المصنوعة من حزم الخطب. وقد أضيئت بالأضواء الكاشفة لمصابيحهم في ذات الوقت الذي كانت فيه كعوب البنادق والأحذية تتمر الأسوار المصنوعة من الجلة والزلع المملوءة بالجبن القديم. قوت العام وقواديس اللبن وحصائر الجبن. وصوامع الحبوب. تتناثر على الأرض وتختلط مع الطحين والحبوب التي انسكبت من

الجولات التي شقيتها السناسكي وصفائح الجاز يريموتونها على الأواني  
الفخارية تهشم قطعاً صغيرة

نعالي صراخ النسوة دفاعاً عن أطفالهم وجاوب الأطفال  
بالبيكاء والعيول. فزاد الجند من وتيرة ركلاتهم وقبضاتهم الدرية  
القوية. وشرعوا يحطمون كل ما وصلت إليه أذرعهم ويلقون به  
خارج الدور. ولما جرى تدمير كل شيء خرجوا بالرجال والنساء في  
قبضاتهم ليلفوا بهم في الشاحنات التي تحركت بهم إلى أقسام  
شرطة المركز. بعدها انتهت المهمة. قفزوا إلى عرباتهم راحلين  
بنفس الحمية التي جاءوا بها.

في الساعة الثالثة صباحاً وعندما تم التأكد من أن العزبة  
خاوية على عروشها. أشعل رجال محمود بك راغب النار في الدور.  
وفي الصباح الباكر كانت المعدات الثقيلة تدمر كل الآثار الباقية  
منها حتى لا يجد أحد ما يلجأ به للقضاء.

بعد يومين تمكن محمود بك راغب ورجاله وفي حضور وزير  
الصحة من قيام عمر بوزوي بنفسه على وضع حجر الأساس  
للمستشفى السياحي في احتفال غنائى أحيته المطربة ليلي  
صالح. حيث غنت الغناء الشعبي للبوادي.

\* \* \* \*

عندما عاد من القاهرة. وبعد أن أمضى يومين في العاصمة. التقى خلالهما بمسئولين على مستوى عالٍ. وبعد قضاء يوم واحد في مدينة الحضر. استقبل ونيس. هذه المرة لم يتحدثا في شيء سوى حميدة. شدد عمر عليه بضرورة تسليم نفسه. موضحاً أن الأمر لن يتجاوز تحقيقات عادية وينتهي. ولدهشة ونيس لاحظ أن عمر كان يحدثه وهو يعد العدة لسفره إلى اليونان. دون أن يوضح له كيفية قيام حميدة بالأمر.

هل يطرق مثلاً قسم الشرطة ويقدم نفسه قائلاً «أنا حميدة بوروي اللي حرق مبنى الاتحاد الاشتراكي» أم يقول مثلاً أنا حميدة بوزوي طالب بكلية الهندسة ومن القبة. وأخي هو عمر بوزوي كل الحضر والبوادي تعرفه. وهو على صلة وثيقة بأعضاء مجلس قيادة الثورة.. وكل ما في الأمر أن أنا حميدة خوه حرقتم عفوا مبنى الثورة في الحضر. هيا سلام عليكم.. لهذا بينما سافر عمر عائداً إلى القاهرة عبر اليونان. لم يهتم ونيس بالأمر وتجاهل الموضوع بانتظار عودته.

بعد لقائهما هذا بدأت المطاردة. فأقيمت الحواجز على مداخل المدن وطرفها الرئيسية. وفي الحاضرة الشرقية أخذت دوريات الشرطة المتحركة والثابتة في القيام بأكبر عملية تمشيط. وقد جند مئات

من الشباب لمعاونتها. فأوقفت الباصات العامة فى عرض الطرقات. بواسطة عربات الشرطة. يصعد شرطيان يطلبان بطاقات الإقامة من المصريين. يقبض على من لا يحملها فوراً. بينما الصبية الصغار يلعبون فى اللعبة السياسية دور العسكر ليكتفى المصريون بدور الحرامية. فطاردوا المصريين فى الشوارع والمنازل وأحواش السكن. ومن لم يكن بحوزته بطاقات الإقامة أودع أقسام الشرطة. وفتشت السيارات على الحواجز. ازدحمت الطرقات وتعطل السير وأفرغت عربات النصف لورى التى تعود بالعمال المصريين من مناطق العمل. حملاتها منهم عند الحواجز بين رجال الشرطة والجيش. يهيطون وسط صباح الجند والضباط وزئيرهم. تنهال عليهم ضربات وركلات وجميعهم منكسو الرؤوس. يهيمن على وجوههم الامتهان والمذلة. يدفعون دفعا بالهراوات وكعوب البنادق إلى شاحنات الجيش. التى وقفت طوابير طويلة على جانب الطريق وقد برزت من وجوه العمال المكدودة معالم الإرهاق والمهانة. وفى عيونهم استوتونت نظرات كسيرة لفريسة سقطت فى شباك الصياد.

الرواتب المتبقية والأدوات والمعدات والملابس والأجهزة الكهربائية من تليفزيونات ومسجلات وأثاث ملقى بالمنازل. والحقائب المكدسة بحصاد شهور طويلة من العمل المضى قد راحت للأبد.

فى أقسام الشرطة تكدسوا بالعشرات فى الحجرات الضيقة يجلسون القرفصاء وباحات السجون وتساعد عويلهم. وعبارات الرجاء الخائب. وعزل الذين انتهت تأشيرات دخولهم البلاد وبقوا دون بطاقات عمل ليقدموا للمحاكمة تحت طائلة الحبس أو الغرامة.

ومثل كل حملة اختفى من جأ فى الأحواش الصغيرة بالعشرات. لا يخرجون إلا ليلاً. بحثنا عن الطعام أو بانتظار قبض رواتبهم المتأخرة. يمضون أيامهم منتظرين أن تنتهى الحملة. أو يأتى المقاولون لأخذهم إلى العمل ثانية أو يلقى بهم إلى المعسكرات للترحيل.

وخلت المدينة وساد الهدوء الأحياء الفقيرة وخوت المقاصى التى كانت مأوى العاطلين عن العمل وسادها الفراغ. وفى شاشات التليفزيون عرضت مشاهد حية لعمليات سرقة متاجر يقوم بها مازجرية.

وراح الرجال يستعجلون الرحيل بأى وسيلة وقد استرجعت ذاكرتهم قراهم وحقولهم ومواقد النشأى والدخان وجلسات العصر على الترع. وأخذوا يلوكون الجبن القديمة وسط النشأى ورؤوس البصل فى ألسنتهم وقد عادت إلى خياشيمهم رائحة الأرض الطينية. وسط مشاعر الخوف والانقباض من الجهول الأكبر الذى كان يخيم بشبحه على الجميع. الفقر والخسارة المحيقة للنشأى البارح الذى عانوا منه طوال حياتهم.

وفى عربات الجيش وشاحنات الماشية انطلق ركب طويل تتقدمه عربة جيب ودراجتان ناريتان عسكريتان على الطريق الساحلى. وتحت أشعة الشمس والأمطار تكدس العمال والفلاحون المصريون جالسين المرفصاء على ظهر الشاحنات وقد أحكمت شباك حديدية لتمنع هروبهم. وبعضهم ينظر إلى المدن التى تمر فى حسرة. وقد حلت بعيونهم نظرات بلا معنى نظرات للفراغ.

\* \* \* \*

فى قرية الخيمة أقامت الأسرة فى منزل أمر الحامية بالمعسكر. وفى الصباح الباكر كانوا جميعاً يغادرون معسكر الحامية إلى الشاطئ فى سيارة شيفروليه. تعبر الطريق الرئيسى المؤدى إلى وسط البلدة. ثم لا يلبث أن ينحنى يمينا ليخترق المنازل التى بنيت حديثا. هابطا من ارتفاع شاهق إلى أحد الخللجان الرملية للقرية الصغيرة. حيث أقيم مصيف الضباط. يبقون طول اليوم. حتى يأتى النقيب بالظهيرة. فيتناولون طعام الغداء على الشاطئ الخالى من البشر عدا صيادى السمك ليعودوا مع الغروب.

وكما استمتع الأطفال عاشت ثريا هذه الأيام وكأن كابوسا انزاح عنها. فالنقيب يقضى طوال وقته بالحامية. ونادرا ما يجلس معهم. وهو الأمر الذي كان يجد صدي طيبا لدى زوجته التي شعرت ثريا معها بالراحة. كانت عائشة لا تنى تسخر من زوجها ورغم أنها كانت تتحاشى أى بادرة تصدر منها أمامه. إلا أنها لم تترك فرصة السخرية والسخرى بتصرفاته. فتحكي كيف تحول لشخص مونور. منذ قاد عملية القضاء على الانقلاب الذى أحال حياتها معه جحيما. حتى أنها تسعد كلما كثرت أعماله. وابتعد عنها. وهى تعترف لها بذلك وبصراحة تقول لها إن الأربعمئة جندي بالحامية هم الذين يحمونها من تصرفاته. ولولا ذلك لهلكت من عصبيته. حتى إن حاشية الملك ما كانت لتكفى سيادة النقيب.

وكانت تشعر أنها تشترك معها فى محنتها. كانت تود أن تتصرف بحرية مثلها. تنفث الهم الكئيب الراسخ على قلبها. لو تستطيع أن تتعامل مع عمر بالمثل!

وعند الخليج المواجه للحامية كان هناك واد صغير فى بطن الجبل يمكن الوصول إليه وإلى الشاطئ؛ بواسطة طريق وعرضيق. يلتوى حول الجبل الوعر لا يسع سوى إنسان واحد. وفى أسفل الخليج كانت الطبيعة قد صنعت مع الشاطئ الرملى مستويات صخرية ملساء تغرى بالبقاء. وود لو بيتنى مقرا للقيادة هناك وحت إشرافه السخى اصطف العمال. وقد وزع عليهم الفؤوس لحفر الجبل وراح يحثهم موزعا عليهم ثلاث وجبات يوميا من الخبز والشاي والكرونة. ويلقى لهم كل مساء ببطانية يفترش كل منهم نصفها ويلتف بالنصف الآخر. ليعملوا إذن لقاء أكلمهم.

وراح الطريق يتسع شيئا فشيئا ويمتد إلى أسفل وهو يتابع درجات ارتفاعه حتى تتمكن السيارات الصغيرة والشاحنات من الهبوط إلى أسفل ويوما بعد يوم برز الطريق ملتويا. وقد اجتت من



صخور الجبل الصلدة بسواعد العمال والفلاحين الذين قتل فيهم  
الفقر والجهل والغربة. القدرة على الرّفص. فقط السخط الداخلي.  
والأحاديث الغاضبة الخافتة. والشكوى إلى الله على الظالم. وعند  
منتصف المسافة بين البحر وقمة الخليج توقف العمل فجأة. فقد  
جاءت للنقيب أوامر مشددة بالتوقف عن أحلامه.

\* \* \* \*

إلى أن جاء ونيس في عطلة نهاية الأسبوع. كانت قد استطاعت  
أن تستعيد الضحك مع أخت زوجها. التي وجدت في ثريا وصباح  
رفيقة لها ولأطفالها في وحدتهم بعد أن أصبحت سجيناً وسط  
الجنود لا ترى ولا يراها أحد عدا زوجها. وما كانت لتستطيع الذهاب  
للمصيف وحيدة. لولا أن عمر بوزوي طلب من زوجها ذلك في وعده  
للترفيه عن ابنته.

تقع بلدة الخيمة الحدودية والتي يعمل أغلب أهلها في التهريب.  
فوق قمة الشاطئ الصخري الذي يرتفع فوق سطح البحر بعشرات  
الأمطار. وقد تخللت الخلجان العديدة البحر. وعندما تنظر ثريا  
حولها. كانت تجمع العالم داخل جوانحها المهيأة للتعرف عليه.  
ترى الشاطئ الرملي الصغير يقبع في قاع الخليج. حوله ترتفع  
الحافتان الصخريتان عالياً لتبلغا قمة السماء. فتشعر وكأنهما  
طائرا رخ على وشك التحليق للسماء. أمامها كان البحر يندرج  
حتى النهاية. يقبع ساكناً تحت الأفق. فلا يجد سوى البرد والعمق  
الجهول. والخوف تصنع لوحدها راحة منبسطة من ذلك السجن  
والجدران الأربعة. الذي تعيشه مع عمر. وخلفها يندرج الوادي وقد  
تناثرت الشجيرات على امتداده. تزداد كثافتها وكثافة الأعشاب.  
كلما توغلت داخله. وقد حمته الحواف الصخرية الصلبة المرتفعة.  
أجمتها الطبيعة التي تراها مجتمعة لأول مرة بخليج الخيمة:

مياه البحر التي تغسل الدهر والأفق البعيد الذي ما طاله الإنسان يوماً. قبة السماء الذي درج على عبادتها. الجبل الذي اتكأ بقدميه دسامتا في البحر. يبرز من بطنه الأودية الخصبة الخضراء. وأشجار النخيل وعيون الماء العذب. وعلى ظهره استكانت أحواش البلدة الصغيرة. فبدا الإنسان صغيراً جداً وسط الفضاء الرحب.

قرب الكباتن القليلة يلتقى الماء العذب الذي حملته السيول من خلف السهوب البعيدة. عائداً إلى البحر المالح فتعبث به لتلثمه في النهاية وبدأخلها عجب واستفهام عميقين لسر اللقاء. لماذا يتلع البحر مياه الوادي القليلة. ألا يكفيه ما هو عليه من ثراء. ولماذا لا تكتفى السماء بذاتها فتبتلع البحر عند الأفق. وإلى أين تنتهي الكثبان الرملية لهذه الفلاة اللانهائية. وهي تعلم أنها تقاوم الغابات هنا!!!!!!!!!!!!!! في وسط القارة. وأن الغابات لا تقبل بحضور الصحراء بفظاظتها وما تحملها في قلبها من لعنة قتل الحياة بكل أشكالها. فتتركها تطرق أبواب السافانا أولاً. ومرأى الحشائش القصيرة. ولا تسمح لها أن تقترب منها في حضور مباشر وإلا أصابتها اللعنة.. ثم لا تلبث أن تنهد لنقل ما حمله عقلها من أفكار. تروح بذهنها إلى أشياء أخرى كثيرة غير مترابطة. تاركة نفسها للألوان الطازجة تغسلها لتبقيها وحيدة مع أفكارها القليلة التي تثير ضحكها. وكأنسان بدائي ومع عادة الجيء اليومية. رحلت الرهبة التي تلبستها مع المشهد الذي أجمها في المرة الأولى. وحلت محلها هواجس أخرى. ففي البعيد ترى صائدي السمك يبيعونه على مرسى صغير ببطن الخليج وقد جمعت حوله سيارات صغيرة لا تلبث أن ترحل. فنتمنى ألا يعودون. حتى جاء ونيس في الثانية عشرة من صباح الخميس. وكان النقيب منهمكا في استقبال المقبوض عليهم من المتسللين المصريين من الوادي والحضر وقد تعدوا عشرات الآلاف. تمهيدا لترحيلهم إلى نقطة الحدود وقد حل بهم السخط والإرهاق.

استقبلته عائشة وأولاد أخوته مهللين. ضيف جاء يكسر الوحدة. وكان قد وعدهم برحلة بين وديان وهضاب الحيمة. وبعد الغداء سارعوا إلى سيارته والعمال يقومون على ترميم بعض أجزاء الطريق. وجلست عائشة بجواره وصباح بينهما وبقيت ثريا والأطفال بالخلف.

بدأوا رحلتهم بمقابر المستوطنين الأوروبيين الذين رحلوا بعد الحرب العالمية الثانية. ثم رحلوا إلى نهاية الطريق الذي يخترق البلدة حيث أقيم نصب أشرف منه موسوليني على استعراض أسطول المحور بعرض البحر. النصب الثانى قيل إنه مشنقة للمجاهدين أيام الاستعمار قبل الحرب العالمية الثانية.

فى أحد الأحواش القريبة شاهدوا رسوماً بإحدى الحجرات لأسير بريطانى. لوحة كبيرة رسمت بعرض الحائط مستخدماً الأسود والأبيض. وقد تهدم جزء منها وأصابت الشروخ أجزاء أخرى. كانت اللوحة تحكى مأساة الحرب، مئات الجماجم التى امتلأ بها أسفل اللوحة. ورجال المال والآلات الموسيقى والشعر والفن والأدب الذى يحكى السلم والحرب معاً. وعلى الجهات الأربعه للحجرة، رسم أسير آخر نساء عاربات اضطجعن فى ارتخاء. أمعنت المرأتان فى سفوره مستترتين بالدهشة والحنجلى.

واقترب الصبية من الجرف فنهرهم خالهم وتعلقت عائشة بيده. وهى تدنو من حافته هلعة، تنظر المياه البعيدة والصخور الضخمة من علو شامق. فيصيبها الخوف وتعود مسرعة حيث المسافة الأكثر أماناً. ويحمل ونيس صباح ويدنو بها من الجرف فتهدى يديها فى سعادة عائدة إلى أمها. ويدعو ونيس ثريا أن تشاهد المياه البعيدة القرار فتدنو وحيدة على أن خوفها ببقيتها بعيدة عن حافة الجرف. فتمد يدها إليه. وتقترب وقبضتها تزداد شدة كلما اقتربت. حتى ترى نهاية الجرف الصخرى. كتلاً ضخمة متناثرة عند

المياه، فيصيبها الفرع وتعود مسرعة وضحكات الصبية وابنتها وعائشة غائبة عنها لتبقى الحرارة التي حمتها كفه.

انطلقوا خارج قرية الخيمة، وبهم ونيس شطر الطريق الجانبى الجديد جهة الساحل، واقتربت الأرض من البحر حتى التقيا، وامتدت الشواطىء الصخرية الخالية من البشر، طويلا لا يقطع الفراغ سوى الرعاة وأغنامهم يسعون خلف الكلاب، وكل فترة تظهر القرى الصغيرة المتناثرة للبادية وعيون الماء التي تشتهر بالحرب وقصص العشق والغرام، حتى جاء المساء فعادوا منهكين.

وفى صباح الجمعة الباكر ذهبوا إلى شاطئ الخليج الرملى، وافتششت ثريا وعائشة الشاطئ، وجمع حولهما الأطفال يلعبون ويصنعون قصورا من الرمال الرطبة، ولم يستطع ونيس أن يقاوم جاذبية البحر، فخلع ملابسه وارتدى لباس البحر والأطفال يتصايحون ويلقونه بالماء، وهو يحمل كل منهم على كتفه ويفوض به إلى داخل المياه بين هلع أمه، وضجة الأطفال وفرحهم الممزوج بخوفهم الطفولى.

كانت ثريا تسترق النظر إلى جسده الشاب القوى وقامته المشوكة المتناسقة وبشرته اللوحة بالسمر، الكتف العريض الصلب، ومعرفة الأسد التي يشتهر بها أبناء بوزوى، خصلاته المبتلة المتهدلة على وجهه، وصياحه ومداعبته للصبية والأطفال وهم يتناثرون حوله فى حب وألفة، كانت أنثى واقعية تختزن صورا حية لذكر يمكن لمسه يدور فى الأنحاء، كيان مكنم الخشونة لا تستطيع أن تمنع إعجابها به، وبنية قوية تستحق الحياة، تدور حولها وهى الممنوعة من دخول الحلبة.

راحت تتابعه وهو يتوغل داخل البحر، تحسده على حريته، لو يموت.. لن يحدث شيء، انشقت المياه عن جسده من بعيد، وعادت تسترق النظر إلى جسده فى لباس البحر، مرت فى جسدها رعه

خوف. ولو أن رعشة جنسية أصابتها لاستراحت. ولا استطاعت أن تشق سبيلا تفرغ فيه طاقتها الخلوة. لكن مشاعرها لم تعد سوية.

ففي الظهيرة وقبل تناول طعام الغداء، أصر ونيس على مغادرة الشاطئ؛ ولم يوافقوا إلا بعد أن وعدهم بمفاجأة لن يصدقوها.

\* \* \* \*

عبر مجموعة من المرات الساحلية الضيقة تمكن ونيس أثناء صعوده الطريق الرئيسية. من نفادى نقاط المرور الرئيسية للبردى وحاميتها. فى البداية توقعوا رحلة ساحلية. لكنه عندما استدار عائدا مستخدما الطريق الساحلية القديمة لمسافات طويلة. لحظتها ظنوا أنهم بطريقهم لغرناطة أو مدينة الحضر لكن الإطراق الذى اكتنفته. تحول تدريجيا ليسود السيارة. وريدا بدأ الوجود يحل بالمرأتين. حتى الأطفال توقفوا عن سؤاله إلى أين هم ذاهبون وفى واحدة من استراحات الطريق توقف. وبينما الأطفال يشترتون عصائر مثلجة وحلوى. لمحة المرأتان يحدث شابا يختفى خلف نظارات سوداء. تبادلا شيئا غامضا. لحظتها نادى ونيس المرأتين والأطفال وطلب منهم وهو ينظر حوله بوجل الانتقال إلى عربية راكج روفر موجودة خلف الاستراحة. متعللا بحدوث عطل بسيارته. سيضطره لتركها للصيانة حين عودتهم.

بعد كيلومترين انحرف باتجاه الجنوب. وما إن فعل حتى انطلق بسرعة فائقة. وكأنه يسابق الزمن. ومنذ هذه اللحظة شعرت عائشة أنها تسقط من حلق. وبدت وكأن عظامها لانت كقطع من الصلصال. أخذتها ثريا فى حضنها. تشاطرها انخلاع قلبها من صدرها. وفيض الشجن الذى اندفع يكسر سدوده.

عبر الصحراء المبسطة المترامية الأطراف. شق ونيس طريقه باتجاه بير حكيم. والسيارة الراج روفور تهب الطريق نهباً. إلى حيث السماء تنطبق على الأرض برفق. وعندما استسلم الجميع للمشهد الذى يندفعون داخله مثل قديفة رصاص. فاختين عيونهم على اتساعها. فاغرين أفواههم من الدهشة. وفى اللحظة التى شعروا فيها بأنفسهم جزءاً منه. متوحدين معه. حولوا جميعاً إلى بلورة من الحياة تشق المستوى الممتد على رحابته الفاصل بين اللونين الأصفر والأزرق. الساكن بين سماوين. حيث لا شيء عدا ثلاثتهم. وعندما غفى الأطفال على صدور أمهاتهم كانوا يخلقون فى المسافة بين اللونين.

وبدا أن ساعات طويلة مرت. عندما كانت الشمس فى الربع الثالث من السماء. أصبحوا يخلقون داخل اللانهايات. عندما بزغت بين الصحراء والأفق نقطة سوداء. كانت تكبر كلما تقدموا إلى الأمام. حتى كشفت عن طارقي على ظهر نافذة بلقاء. يقف أعلى مجموعة من التلال الرملية الناعمة. انحرف ونيس باتجاهه. وسار حيثما تجاه الشرق لساعة حتى بلغ قمة التلال. ليكشف وراءها عن واحة واسعة من عيون الماء والنخيل. فى جنوبها كان عدد من الخيام التى نصبت على تبة لا ترى أعلى عين الماء.

دق قلب عائشة بقوة. والأطفال يستيقظون مثل حيوانات شممت رائحة الهدف. رفعوا رؤوسهم يملأون عيونهم من المكان. لمح ونيس طارقي يشير إليه بأن يتوجه إلى الخلاء. سار حيث أشار. كانت ثمة خيمة وحيدة وشخصان يقفان أحدهما شامخاً كعلم ينتظر حضورهم. بينما الآخر وقف بعيداً جوار الخيمة.

همست عائشة وهى تنظر شقيقها الأصغر يقف مثل راية سامقة فى قلب الصحراء ملوحاً بسمره شمسها وهوائها الفسيح. تراه فى لحيته للمرة الأولى. لقد حول فجأة من ذلك الذى طالما رأته شقيقها الأصغر. ليصبح رجلاً تستظل بظله. لم

تستطع أن تتفوه سوى بكلمة واحدة تكررهما المرة بعد الأخرى وهى ترى أخويها الشقيقين بتبادلان عنافا حارا.

«حبيبي يا خوي» صرخ الأطفال يهتفون باسم خالهم حميدة. وقفزوا يتقاتلون من حوله. ضمهم الواحد بعد الآخر. وانتهى بالوقوف لثوان أمام شقيقته الكبرى عائشة. وقبل أن تتقدم نحوه ركع على الأرض لياخذها فى حضنه قبل أن تسقط مغشيا عليها.

لأول مرة يدرك ونيس أنهم ثلاثة إخوة منفصلين بصورة ما عن إخوتهم غير الأشقاء. عمر وناصر وصديقة. هم فقط عائشة وونيس وحميدة. من عالم آخر. ولهذا عندما أخذ أخاه وجلس معه على حدة يعرض عليه طلب عمر بضرورة عودته. وتسليم نفسه إلى الشرطة السرية. موضحا أنهم تعهدوا بأن يدلى بمجموعة من الأقوال التى يرغبون التأكد منها. وهى عدم وجود يد مصرية فى أحداث الجامعة. ثم يطلقون سراحه من فورهم. كى يعود لينهى عامه الدراسى. بدلا من أن يفقده.

لماذا خايل ونيس وجه زميل أخيه الذى ظل يجلس بعيدا منظويا على نفسه. شيء ما كان غريبا على الفهم. لكن أفكاره تلك حول زميل أخيه الذى لم يشغل باله بتقديمه إليهم ضاعت وتلاشت. أما إصرار حميدة على الرحيل عبر الصحراء إلى مصر. واستكمال نضاله ضد الحكم العسكرى من هناك. حيث الحياة السياسية وبزوغ عصر المعارضة الديمقراطية الجديدة فى مصر سيتيح له أن يناضل فى سبيل حرية البوادى والحضر.

ارجح الأمر على ونيس. ففكرة هجرة حميدة إلى مصر لم تطرأ ببال أحد. وإن كانت تكشف عن مدى تورط أخيه فى الأحداث السياسية. وعندما سأله كيف سيتسنى له عبور الحدود. قال ببساطة أنا فى قلب صحراء تمتد من نهر النيجر لوادى النيل. لا حدود ولا فواصل طبيعية تمنعه من بلوغ وادى النيل. وأضاف هادى القافلة متوجهة



لصر. وأشار إلى مراتب القوم وخيامهم وقال. سيغادرون في خلال شهر. وقال وهو منشغل «انتظر» وطلب من صديقه أن يحضر ديوان رجب الشلطانى. فقام الفنئ يحضر ديوان الشلطانى المسى ب «القيعات الحمراء» وقال له نوا لسة خارج من المطبعة وتوا بصادرونه. هادا ممنوع هنا. نحن هرتنا نسخا قليلة قبل أن تتم مصادرتة. صديقك المصرى الناصرى. أعطه الديوان. نريد أن يساعدا المصرىون.

نظر إليه ونيس مندهشا متسائلا كيف تسنى له الحصول على ديوان طبع مند أيام قليلة وصور. وها هو يطلب تهريه للخارج. ما الذى يجرى.. نظر إليه وسأله. إذا ما كان منخرطا فى العمل السرى. وهتف به همسا «هل لك علاقة بالتفجيرات التى حدثت فى ميناء الحاضرة الشرقىة؟» نفى حميدة وقال نحن حركة سلمىة. أشك فى النظام.

فى هذه اللحظة تراجع ونيس بظهره للخلف. وتوقف عن الحديث. كان مذهولا إذا ما كان صديق حميدة لىس سوى زاهىة. حذق جاهها وعندما التقت نظراتهما لم يعد هناك لديه شك.. كيف جاءت ومع من؟ هى التى أحضرت له الديوان..

من بعيد كانت ثريا التى تعاملت مع حميدة بتحفظ تتابعهما وهما يسيران الهوىنا مبتعدىن فى الصحراء. قال حميدة بطرىقة قاطعة إنه سىسافر إلى مصر وىناضل من أجل حرىة البوادى من هناك. هذه المرة قال ونيس باتهام: يعنى أنت وعمر.

تطلع إليه متسائلا: شنو أنا وعمر صمت قليلا ثم أضاف:  
أنا ما نحب عمر. أكو فارق كىبر بىنى وىبن عمر.  
- شنو؟

- عمر يدور فى مصالحه. أنا ندور فى مصلحة الوطن.  
- شنو الفرق؟

- أنا ما نحب السادات.. السادات يسسلم مصر لأمريكا وأنا ما نحب السادات كيف كل عرسى؟

- إذا هكسى شنو تسوى فى مصر؟

قال حميدة بحماس أن مصر بها قوة معارضة كبيرة. وأنه سيناضل مع المعارضة المصرية. مع الناصريين مع اليساريين مع الوفد. وأضاف أكو كل يوم فى مصر مظاهرة. هم يشكلون أحزاب معارضة. مصر تقود حركة الحرية فى الوطن العربى وأنا نريد نكون هناك. بيش نتعلم.

فكر ونيس طويلا قبل أن يعلق على أفكار أخيه بكونه يثق فى المصريين كثيرا. بينما حالهم لا يبشر بخير.

والله يا خوى هذه مشكلة.. دهور مع المصرى صاحبك يسوى لنا المسائل. كان يريد أن يقول له «والله كثير صعب عليك يا أخوى» لكنه لم يرغب أن يفت فى عضده واكتفى بالقول: باهى توا نشوف. لكن شنو يسوى صاحبك.. يسافر معك مصر.

نظر حميدة بصمت بارد لونيس. هز رأسه فلا مجال للجدال فى أمر غتاة بدوية حرقت كل شىء وراها من أجل أخيه.. همس يعرض عليه العون وقال ترى تبنى منى شىء. أنا نفعل لك كيف ما تبنى.

وضع حميدة رأسه بالأرض وهمس. بدى تسلم عليها بيش ما تشعر بالوحدة.

هز رأسه متفهما وقال بصوت خافت تبنى عيشة تسلم عليها. لا كفاية أنت.

قام يحييها وهناك وقف ثلاثتهم. وقبل أن يرحل قال وهو يضحك لها: توا أنت سلطانة العرب والبادية تعرفى ليش. لأنك صرت تلبسى لبس الرجال.

ورحل لا يعرف إذا كان هذا سيسعدا أم لا.. ثريا المتحفظة شعرت فجأة أن حميدة هو المعارض لعمر وليس ونيس. لم تفهم لماذا بدا وكأن كارثة هائلة تنتظر العائلة. كارثة جديدة ربما تكون

هي ضحيتها. ربما يكون شخص آخر. لكن في الخلاء السرمدى  
للصحراء. شعرت والسيارة الراج روفر تعود بإجاء الحضر. كأن طائر  
الوحشة يحلق فوقها.

\* \* \* \*

في صباح اليوم التالي رحل ونيس وابنة أخيه تبكي رحيله. أما  
ثريا فقد حل عليها المساء بكابوس مخيف وأخذت تقاوم شبحا  
ضحماً يجثم على صدرها. مدت ذراعيها تضرب الهواء. التحم بها  
وعظامها تنن تحت وطأة قوته. كانت تصرخ عاليا دون أن يسمعها  
أحد. واختلطت عليها ملامح عدوها. فبدأ كأنه امرأة ترتدي الملابس  
الوطنية يتغير وجهها من عائشة إلى خيرية. ثم ضاعت صورته.  
وبقيت وطأته على أنفاسها. حتى أحسنت أنها بين كلابتي كابوس  
جديد. أخذت تحاول وهي تخرنق أن تفلت منه دون جدوى. حاولت أن  
تخلع يدها من وطأة الثقل. وجمعت كل قوتها لتنتهي جالسة. حتى  
استنزفت قوتها. فسكنت هامة. ولم تنهض إلا على بكاء ابنها.  
تطير إلى حافة الهاوية. تدفعها ريح شديدة لا تقاوم. ولما أصبحت  
بين البحر والسماء فشبهت وهي تلهث مرعدة.. إلهي.. يا إلهي..

وفي الأيام التالية حول الهدوء والسكينة التي اضطرابات  
عصبية. تنظر إلى حافة الخليج الشاهقة. ترى نفسها هناك ويد  
قاهرة تقبض على عنقها وتدفعها إلى أسفل. أو خلم بصدفة  
قدسية تأتي بها إلى الجرف حيث لا تريد أن تأتي لكونها تعلم  
يفينا أن قدمها ستزل لتسقط بقوى فاهرة. يشتعل رأسها عند  
منتصف المسافة بين البحر وحافة الجبل ويتوقف كل شيء عند  
ذلك. معلقة في الفضاء بانتظار تفتت مجتمها شظايا متناثرة  
على الشاطئ الصخري.

\* \* \* \*

منذ رحيل وبيس وثريا جلس على الشاطئ الرملي تابع ابتها  
صباح وهي تلهو وتتناول الشاي والمثلجات وقطع اللحم. وتنظر إلى  
المياه. كامرأة محترمة مثل باقي النساء اللاتي تكتفى كل منهن  
من متعة البحر بأثار الرمال على ملابسها. وفي داخلها رغبة في  
أن تقطر المياه من جسدها كما كانت تقطر كحبات اللؤلؤ من  
جسد ونيس والبحر ينتشق عنه. وأخذتها الجرة لأن تضرب وعمد  
ساقها إلى الأمواج المنحسرة. عند فخذها ارتعشت لبرودة المياه  
فلما نهضت جرت وراءها رداءها المبتل بالمياه في سعادة.

وفي هذا اليوم جاء النقيب وبقي مع الأسرة حتى المساء. وقد  
انتوت البقاء في كبائن المصيف طول الليل. وجمعوا حول النار  
يأكلون شرائح اللحم المشوي الذي تولى النقيب شواءه. ويشربون  
الشاي الأسود المملوء بالسكر.

فلما خلدوا إلى النوم فتحت النافذة المواجهة إلى البحر  
تستقبل الهواء البارد. وأخذت تنصت إلى صوت الأمواج وهي  
تتكسر على سفح الجبل في دهشة وقلق. وكلما أوغل الليل كلما  
تبعثت البحر الغامض. ترتطم أمواجه بجدران الخليج الصخرية  
عند سفح الجرف فترجها. بالخوف. وصوت ارتطام المياه بطلقها إلى  
عوالم غامضة. استجمعت شجاعته وعبرت المسافة الصغيرة  
بين كابنتها وشاطئ البحر. وأخذت تسيير بحطى مضطربة إلى  
المياه وكأنها تنتظر لقاء المجهول أو أن تهربا بسيف ذراعه  
ليخطفها ويعود بها إلى قاع البحر بلا فيار.

وقفت قليلا والمياه تصل إلى منتصف فخذها حين لبرودتها  
عدوية ثم عزمت على المصير وعند أعلى فخذها انجزت عندما  
لسعته المياه وأصبحت بغصة ملأت عليها حلقها فانسبت بجيدها  
إلى الخلف وتركت أوتار الأمواج تلامس أوتار جسدها الرخامي.  
تتصاعد أمواج اللدة. تلغثت حولها ثم انزلى وحدثها. لم تر

أحداً. ولم تسمع صوتاً جهة الكبان داخلها ارتياح وراحت تعبت  
بالمياه مطمئنة.

قبعت في المياه الأليمة العمق خدق لحظات طويلة عند التقاء  
البحر والسماء الأفق السعيد. شعرت بسطح البحر وسادة ناعمة.  
صعدت بناظريها إلى قمة الخليج الذي برز شيحا هائلا ضخما  
يخفي أطراف قمر بدرى. تمدت على ظهرها فالتفت المياه حولها  
وغطتها سماء من نجوم متلألئة.

مدت يديها إلى حلمتي نهدبها تعصرهما بأناملها. وديب  
النشوة يأتيها من الأعماق. دارت على جنبها بين طيات الأمواج.  
تخدش بشرتها الناعمة حبوب الرمال الخشنة. ثم استكأت على  
بطنها. وقد كورت فستانها بين فحذيها. صنعت لنهدبها عشرين  
بين الرمال. وراحت في حذر عميق تصعد للنشوة.

جاءها اللهاث يتغامع مع ضربات الأمواج. ضغطت بساقها  
ونهدبها على الرمال الخشنة. تغرس أظفارها في الرمال. وانبعث  
الدفء يزنح البرودة. وأخذت تقترب بثبات من القمة. وامتلات بالبحر  
والسماء. وللحظات طويلة شعرت بالأرض تدور من حولها. والخليج  
يقبض جسدها المعلق بالفضاء الرحب. فلما انشطر أخذت الأمواج  
تنحسر رويدا رويدا وأصوات ارتطاماتها بالصخور تخرج أنيئا ونأوها.  
وللحظات عابرة ظننتها ساعات هدها الإشباع. ولما أفاقت فتحت  
عينها على سماء بعيدة تضيق وتلاشي في الفراغ. عادت تزحف  
لفراشها تتدثر بالأغلبية. تختبئ بها من أمواج البرد اللاذعة.

كلما اقترب موعد الرحيل زاد استئصالها للأيام بكآبة. وخت  
جنح الظلام اختمت داخل الجرد منسلسلة إلى قمة الجرف المواجهة  
لمنازل الحامية. وعند مقابر الحسب العالمية الثانية دأهمها الخوف  
لكنها تابعت مسيرها حتى بلغت البحر.

وعلى قمة أحد الخلجان الشاهقة لبحر المتوسط تمضت المرأة  
البدوية الشابة ثيابها وأنثت ألسي الصخر البارد عارية تعانقه.  
تقلب عليه وتغرس جسدها على حوافه الحادة. فتصعد من  
داخلها قوة تنبعث من جذورها.

وعند حد الاستواء والسقوط والأمواج الممتدة إلى الأفق الليلي  
ترتطم بجدار الخليج يتصاعد الرذاذ والهدير إلى جسدها. عاودت  
اللهات وحيدة تحت سماء وجيل يئن من عنق سطوتها. فأخذ يزمر  
ويدفع بأظافره الصخرية في جسدها تاركاً خدوشه وعلاماته  
خطوطاً من الدماء القانية. حتى ارتفع من داخلها الومض الكوني  
وأخذ المطر في الهطول.

\* \* \* \*



# الجزء الرابع



تقع مدينة القبة على القمة الشرقية لمتنصف الجبل الأخضر. تحفها السهوب والتلال الممتدة. على مرمى البصر. وقد غطتها الحقول والمراعي الخصبة. وحفت طرفاتها الضيقة الأشجار الباسقة. هنا يسقط الثلج شتاءً، وتغطي الطرقات اللون الأبيض الشاهق للجليد. وتنخفض درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر. وفي الصيف تنبثق السهوب وطيأت الجبل عن طبيعة خلابة وجو صحو بديع.

في شمال المدينة أقامت العائلة في حوش الأسرة القديم. بعد أن قاموا بتجديده وترميمه وإعادة طلائه من جديد. وتولى الشايب الاعتناء بحديقته الأمامية. فعادت الحياة إلى تعريشة الكروم بعد ما كادت أن تفقدها. وقد وجد نفسه ثانية وسط رفاق الصبا. يقضى معهم ساعات طويلة يستعيدون ذكرى أيام مضت كان الملك محورها. وأيام جديدة جاءت بتحويلات لم يخطر ببالهم أنها قد حدثت قط. وبينما كانت العجوز تمضي جل وقتها وسط النسوة من الأهل و الأقارب. في سلسلة من أحاديث نسوية لا تنقطع. وجلسات لا يضيها الملل حول المواقف التي تعلوها شرائح اللحم. وأباريق الشاي الأسود. وصغار يدورون حولهن في حيوية بلا كلل ولا تعب.. كانت الحياة تجري بنأى عن ثريا. والرتابة التي أسقطتها في لجة الاستسلام للواقع. لم يكن يقطعها سوى مجيئه من مقر عمله لزيارة أمه.. فمنذ أن أصبحت سالمين عسيرة المنال وأشييع

بالمدينة الرفض المأسى الذى ناله من أبيها. حلت به كآبة حزينة. وامتلاً بالسخط من الفتاة التى ليس لها حول ولا قوة. وفور من الوجوه التى تعرفه. وقد تمكن منه هوس مرسأً نظرانهم تخفى وراءها السخرية أو الإشفاق. حتى صديقه المصرى حاشاه. وحاشى أن يفتح معه ما جرى بينه وبين أخيه من حوار حول اللجوء إلى مصر.

كره مدينة الأندلسيين ونساءها. فلما جاءت أمه وأبوه وثريا للقبلة صار يتخطى المنحنيات الخطرة على الطريق الساحلى مرتين أو ثلاثاً أسبوعياً. وكلما ضغط على البنزين كلما اقترب من لحظة الخطر. فيساوره إحساس بالحياة يفنقه كلما عاد إلى كآبته وتساؤلاته النفسية المضنية.. وعلى طول الطريق الضيق الذى يتلوى عبر السهوب والهضاب. وكلما أسرعت السيارة لم يكن يستطيع أن ينحى عن نفسه الإحساس بالارتياح الذى تخلقه الطبيعة البكر ورأحتها.

وعندما يكونان منفردين، كانت تتجاهله تماماً. وتدور تعبت بالأشياء التى ليس لها علاقة ببعضها. تاركة ابنتها تعبت معه أو نائمة على صدره. وعندما تأتى النسوة ويمتلئ الحوش بهن. أو عند تناول العشاء والجلوس حول التليفزيون كانت ثريا تتابعه بعينين متعبتين. كأنها تحرق فى الفراغ.. نهبط بناظريها عليه كسحابة من الضباب فتجمده بصقيعها. وتجعله عاجزاً مرتعداً غير قادر على الحركة. بينما يأخذه شعورٌ خافت من الخوف والوجل.

كانت تراه وقد فقد وجهه المشرق وابتسامته الدائمة. ضحكته التى تجلجل فى الفضاء تجذب أسماع المحيطين. وسكن عينيه المتألقتين الانكسار. بينما الضمور يأكل قلبه. ساعاتها تشعر بالتشظى وأحياناً أخرى بالحزن من أجله. كان يشع من حوله مشاعر الخجل والامتهان. لقد رفض كشاب يتقدم للزواج من قبل أسرة ما. ورغم أنه كان غير قادر على إقناع نفسه بالأسباب الملائمة

لرفضه. أو استنباط هذه الأسباب إلا أنه كانت تداومه فترات من انعدام الثقة بالنفس. الأمر الذي يدفعه إلى مزيد من السخط واللوم على فئاته التي حذلته. رغم أنه لم يكن قادرا على تصور تصرفات محتملة يمكن أن يقوم بها عدا الهرب. فإذا الأيام تمر ويحل تقبل الأمر في مدارج العادة. منتحلا لسلمى الأعدار. مستسلما لسطوة قدرة اجتماعية وبنى معرفة في الغيبية.

في إحدى المرات تحمل من شدة النظرات المصوبة نحوه. رفع ناظره فالتقيا بعيسى ثريا واستمررا وهلة لا تحمل نظرات أى منهما إلى الآخر أى معنى. وكل منهما يحاول الهرب بعينيه المثبتين وقد شد كل منهما إلى الآخر الجذاب قوى. وعندما استطاع الهرب من عينها ود لو يجد من يستمع إليه.

يوما ما عاد من عمله. وجدها ترتدى الرداء على قفطان من القماش الشفاف فابتسم في تكلف يسألها أيهما أفضل الملابس القطنية أم الحديثة؟ أجابته في صوت خال من التعبير. وكانت تنتظر أشياء أخرى أن الاثنين سيان.. وأدارت ظهرها مبتعدة.

إذن لا تعلم الريح أى قوى مجهولة تسيروها. ولا سكون البحر عنف التيارات الهمجية بقاعه. وفي لحظة نهب العواصف السوداء. ويهرب النور مسرعا أمام أمير الظلام. ولا تستطيع زقزقة العصافير الوردية أن تخفى ارتطامها بالأرض صريعة ضربات الصفور.

هنا نبتة شيطانية وهناك سنبله قمح. فبأى وسيلة نختار وأى مستقبل غامض ينتظرك. وقد اختلط بذاكرتك ظل الأشياء مرأها.. صاح بها أن تبتعد عنه.. أن ترحل.. لكنها كانت تطير حوله وهى تنز مطلقه فى القضاء رائحة زكية: فراشة النار الملونة بقوس قزح. تطرق أذنه برنين فضى. وتبث داخله أغنيات ساحرة ونكات بذينة مبتذلة..

طارده وجودها. بلاحقها وهى تفلت منه. تنمو وتكبر مثلما

تتمتج ورده حمراء. احتاح لاهنا وهي تقف فى منتصف الفضاء أمامه فى حجم عصفور الجنة. تنظر إليه فى ابتسامة متأملة.

ساد الصمت للحظة كانت قد اختفت من دائرة كوابيسه. وعندما استيقظ. كانت هناك كالبياز الصغير. يرقد خلف غصن بنى أجرد. يتابعه وفى عينيها ينبعث بريق المتعة والتسلية بانعكاسات أفعالها.. أو أفعى رقطاء تهيم فيه بلسعتها الميتة. وطنها يمامة ودبعة ترتكن على كتفه فى ارتخاء.. ووشوشت عينيه وانبعثت الأشكال البلورية للربة. فاجاب برأسه عن مرأى الضوء وراح إلى الظل يتوسد ذراعيه. لكن غفوته قطعها أزيز يتلاعب حوله كخطر غزال. كف مخملية موسومة بالحناء. مزدانة بشرائط الحرير الهندية. وخلاخيل الذهب المصنوعة فى قصور العباسيين. انتفض يستعيد شجاعته. وراح بهراوة ثقيلة يضرب الهواء شبحا مسبطرا غير واضح الملامح.. يصيح.. اتركينى.. أنا وحيد ..

ارتفعت فى الهواء تختفى حتى السكون. وتعود تنفض بمخيلها تخمش جسده. يزداد انهياره. ويكبر خوفه. تخف مقاومته وتخفت حتى يتوقف. يتابعها تنزع بقاياها. مندهشا لنموها الخرافى. تتمكن منه فكرة عصابية.. أنها تنمو خارج وجوده. بعيدا عن إرادته. وأستوطنه خجل مض. كان يضاجع فى أحلامه مدمجا بمتعة لا نهائية امرأة أخيه.

ثمة مصباح لعلاء الدين وجنى وجارية تجمع خلاخيل خيانتته. من ضاجعتهم من الرجال فى غفوته. وثمة باب أريعين ممنوع عليه فتحه: لكنه لم يعد مغلقا. إنه يقف أمامه مواربا. يدعوه قصرا للولوج فى عالم السحر والخطيئة.. والجبل الأخضر ينشق عن القبة والطريق الساحلى يضيق ليصبح كالصراط. معبرا للجحيم. وغرناطة تحل محل حاضرة الشرق. وحاضرة الشرق تروح يم الجنوب. يجف البحر. ترتفع صحراء. ينجاب القاع عن عالم من الرسوبيات

الهلالية. يعوص في لزوجتها المقيتة. ليهيظ من السماء الحماق  
ونيدا قديما قدم الأرض الأولى قبل الخليفة.

عاريا أصبح: يخفى عورته بيديه. وأمامه وقفت يتجاوز فرعها  
النخلى فامتته. أطرق برأسه ذليلا إلى الأرض لا يرى سوى خلاخيل  
قدميها العباسيتين. حلقات تحبس الجنس الممهورة بخاتم الملك سليمان..  
يا خيوط الشرف المجنونة لا تتركيني بقصر التيه. إنى ما زلت أقاوم.

ومثل كتاب مفتوح هبط جناحها بجانبه مباشرة وانغرزا في  
الأرض كحد المفصلة وكان رعبا قاتلا أن يفقد بحد النصل كينونته.  
لفحنه حرارتها اللاهبة. المسيلة باحتلامه المنى. ومن رأسه المنكس  
دارت مقلته بتقرب. استقرتا بأعلى لا ترى سوى شبح ضخم. يخفى  
الضوء عن عينيه المتعبتين. اقترب الشبح يلتصق به ضاغطا في  
بطء صبور أعراس روحه الدافقة بالأسنة النار نعددها بما هو أت  
ضاجعته مثل فكرة محرمة.. وبانتظار المتعة القصوى قاوم حتى  
أريق دمه.. وفي المرة الثانية ضمرو وخيوله البرية الشهباء تنسحب  
مسرعة من بيداء روحه. وأعرافها الجنوبية الأصلة تسقط من  
ناظريه خلف حد الأمن اللازوردى. والريح تلقى بأخر أشرعته إلى  
اليم. واليم يحمل بقايا سفينته إلى شواطئ الجزر.. ضاعت منه  
الطرقات المأهولة ليحل الفراغ اللانهائي

في المرة الثالثة بحث عنها ورغبة مجنونة تدفعه لتلمس  
مضاجعته. ها هي أمواج العالم السفلى تأتي متلاحمة في  
صخب تحت سنابك الخيل السوداء تتدفق بالأسنة الذهب. تتراقص  
حولها أعراس ذهبية. وخيالات مدنسة لعق قدميها في عشق  
وهمس. إنى عبدك الدليل.

منذ أن نأوا بسالمين إلى كوكب آخر انكشفت عن الأرض  
أقنعتها. وعادت السيارات الحديثة تقطع ذات الطرق في تكرار  
مل ميت. شسبية تسبح في كؤوس الخمر الممنوعة باسم القانون.

وضجيج أجهزة التليفزيون والراديو المكديسة بالمعارك الوهمية  
المتذلة. ونظرات النساء الجهولات بالطرقات تشق الحجاب. كحد  
المضاء. وسدق الوظيفة الفولاذي لا يمكن قامة أن ترتفع تحت وطأة  
انخفاضه.

غرناطة درة الولاية الشرقية: الشابة المكروسة للفتنة تحول  
إلى عجوز شمطاء. تلقى للبحر ثديين مترهلين مثقلين بالقيح.  
وحاضرة الشرق مدينة جافة يخيم على سمانها شبح المال  
وجبروته. وأحذية العسكر الثقيلة. التي لا تعرف لسلطنها حدوداً  
ولعسفها حرمة. وفي حوش الحاج مفتاح بوزوي بالقبة كان يجلس  
والعجائز تغمرش الأرض ومن خلفهن ثريا. بالقرب منه في أحد  
المقاعد الوثيرة. تجرى الأحاديث بين النساء من بين فروح أفواههن:  
أحاديث لا تنتهي وقصص وحكايات متنوعة وقصائح تبعث على  
الدهشة. وحكايات عن رجال جدد يرتقون سلم المال من العدم  
متسلحين بفق النفس. وضباط ثقيل أكتافهم نجوم السيطرة  
والسلطان. يصغر في نفسه بجانبهم وبجانب أخيه. تبدو أمامه  
ثريا بنظرتها التي ترفد عليه في هدوء تطلب منه أن يمد يده  
ويلتهمها. حمل بنادي الدئاب.

الضياغ في غرناطة الشرق والضالة في حاضرة الشرق والرغبة  
في القبة.. جنة عارمة تناهشسه. وجوع مضم تثيره ابتسامات نساء  
المدينة القربيات جدا. والبعيدات جدا. المشهي بالإيماءات الخفية من  
عيون ومضها برقاً. ولحظها صواعق. فتحرقه على مرآقد الراحة الي  
زنارين الكبت المروضة لمشاعره الجنسية. تخلف لديه حسرة بؤس  
ورغبة محصنة في التعويض.

الفتاة التي عبرت عالمه الممل أثناء ذهابه الي العمل صباحا.  
انتسمت له وجبته في خجل. رد حبيتها بانتساماة عريضة حمل  
أثار جاذبية قديمة لا تخلو من الزيف.

لاحظه «علي» صاحب حانوت بغداد فسأله إذا كان يريد.

أجاب في عصبية يريد شنون؟ أشار للفتاة التي مرت منذ قليل. فصمت يراجع نفسه. شدد عليه بالرد. فسأله إن كان يستطيع؟ فقال له إن عليه ألا يهنم. طلب منه أن يترك له سيارته. وأن ينتظره أمام منزله في الثامنة مساء.

وحتى الثامنة مساء بقي فلما لا يدري إذا كان صديقه يرح. ولما جاء وجده بالسيارة وحيدا. حل به الارتياح. قال علي: تصعد الفتايح.

اخرتفت السيارة الشوارع الليلية مسرعة. إلى الطريق الساحلى صاعدة إلى السهوب الذى يعتلى شرق المدينة. حلت برودة منعشة وعند نقطة شرطة المرور وقفا لبرهة. ثم تركهما الشرطى يرحلان فانطلق بأقصى سرعة يعبر الفتايح منحرفا فى اتجاه خليج البصرة قال ونيس: وين تروح؟ أجب فى اقتضاب أن انتظر.

فى طريق ترابى مهجور. أطفأ أضواء السيارة. تحت ضوء القمر سار ببطء على أرض غير مهددة. ووقف أخيراً خلف إحدى الوهاد حيث لا يراها أحد. وخرج الفتى مسرعا وونيس يسأله: لشنون جيت بنا إلى هنا.

استدار إلى الشنونة الخلفية يفتحها بعصبية. فلما ارتفع غطاؤها إلى أعلى سسمع صوت تأوه. ثم ما لبث أن تبين صوت أنثى. دفعها «على» مسرعا إلى داخل السيارة. وتبعها إلى المقعد الخلفى. نظر إليه مشدوها. كانت الفتاة التى قابلها صباحا ترتدى الجرد. تجلس وعلى وجهها الخياء والخوف. تسوى جسدها ومفاصلها التى تكسرت من بقائها مكومة فى رحم السيارة. مثل جنين لم يولد بعد. مضمومة الساعدين وقد التأمت ركبتيها إلى صدرها ناداه على. هيا يا راحل. خوذها.. هى لك. أجا به غير مصدوق. لى أنا ما لى بيها شأن. وخرج بصفع الباب خلفه. وراح يمشى بالخارج يدور حول السيارة فى غضب.

تصاعدت صرخات من السيارة عقب صفعة داوية. كانت الفتاة

تقاومه فهتف ونيس. العاهرة. علام جاءت إذن. واختفى من الزجاج الخلفى ظل جسديهما بعد معركة عنيفة وتعلق ساقاها عاريتين أعلى من مستوى مقاعد السيارة، فراح يسب ويلعن على. وقد أخذ البرد يعض فى عظامه وهو يقذف الأحجار بقدمه هتف بنفسه.. امرب.. امرب.. لماذا لا نرحل. ارجع ألمانيا.. هنا مذبحه لا ينجو منها أحد.. سافر القاهرة. شنو بيك.. تعمل عند أخيك وليس أحد غريبا.. تكون شريكه.. أو اذهب الى ألمانيا. أكمل دراستك واستوطن هناك..

دار الحوار عنيفا فى رأسه. فلما أقض البرد جسده. ولم يعد قادرا على المقاومة. اندفع الى المقعد الأمامى خلف المقود الذى امتلأ بلهات وأنفاس حارة. ويجواره كان سرورال الفتاة الطويل مزقا وينطال ملقى على المقعد بجانبه. وراح يختلس لهما النظر. كانت الفتاة تصرخ ألما من التواء جسدها وكف قدميها الملتوى ساقطا بين المسدين الأماميين محشسورا بين العصا الحديدية لناقل السرعات. المرسوم بالحناء. تتلوى زخارفه إلى الساق يجعله يود لو ينحنى يقبله تقديسا. و«على» بكتهم أنفاسها بوحشية همجية. يظنها تصرخ من النشوة. وقد أوشك أن يتمكن منها. قام ونيس غير مدرك لما يفعله. رفع الفتى الضئيل بساعده عنها وألقى به جانبا. ارتمت لاهثة. تكاد تختنق وقد طفرت من عبونها دموع العذاب. وراح على يلحق شفثيه مبتسما. ويسوى ملابسه قال له. دورك. هيا. أجاهه: لنرحل.

دورك.. كسك تدير كيف النيس

لنرحل وإلا سوف أترك لكما السيارة وسعود ماشنى.

افعل ما تشاء

ضعها كيف جئت بها

قامت الفتاة المنهكة مشتعلة الشجر وفى عينها بؤس وبأس عميق. تنظر اليه نظرة عتاب. كأنها حمله مأساتها. كانت تمول بنسجن ومذلة كست أود لو أسلم لك أنت نفسى. فلم تركنتى لهذا الدئب.. دفعها على خارجا. وقفت وقد صفعتها البرودة بعد



المحاولة الفاشلة لاغتصابها. وراحت تنتظره فى ضعة. وهو يبحث فى عصبية عن مفاتيح السيارة فى ملابسه الملقاة على أرضيتها. ولما وجدها أخذ يوسع لها المكان الذى تكومت فيه أول مرة. فأخرج عدداً من الأغراض إلى خارج السيارة ووضعها على المقعد الخلفى.

رفعت قدمها كى تهبط إلى الحقيبة فمد يده يساعدها فدفعتها عنه فى هوان. وأستوت على جانبها وحيدة. وباطراها لأعلى. لُحّت فرجة من السماء مرصعة بالنجوم. هبط الغطاء بقوة وارتطم صوته فى عنف فحل بها الظلام وراحت تبكى الهوينى.

عاد ونيس يحاول ألا ترخّ السيارة منه وقد امتلأ شفقة على الكابوس الذى تمدد خلفه. لاعنا الطريقة التى كان يقود بها على. أمام نقطة المرور أوقفهما الشرطى يطلب الرخصة والكتيب.

أخرج ونيس للشرطى رخصة القيادة وكتيب السيارة فراح الشرطى يفحصهما. ثم احتفظ بها وراح إلى الحقيبة الخلفية. سألها أن يفتحها فأرخّ عليهما. قال ونيس: اعذرني ما معاي مفتاحها. واعتذر قائلاً إنه مكسور تستطيع أن تأتى معنا إلى المدينة إذا لم تصدقنا.

نظر إليهما متفحصاً. وهو يطرق الحقيبة بقبضة يده. وقد جمد قلب الفتاة من الرعب. ثم ألقى إليه بالأوراق وقال: باهى هيا. تنفسا الصعداء ونزلا المدينة على عجل.

\* \* \* \*

أمام حانونه ألقى به ونيس من سيارته. وانطلق يسير فى المدينة على غير هدى. كانت الفتاة قد تركتهم فى حى الساحل وسط العمارات القفرة التى لا تزال تحت الإنشاء.

وفى العاشرة مساءً فتح رفعت باب شقته على طرقات

عصبية. وجدته أمامه حاملاً ديوان السلطامى (القبعات الحمراء). الدهشة التى استقبل بها رفعت ونيس سرعان ما تلاشت أمام ما هو أشد إثارة ووبس يطلب منه مساعدة أخيه فى اللجوء السياسى إلى مصر.

الحيرة أم قلة ذات اليد. أم الشعور بالعجز أشياء كثيرة أخفاها. درفعت وهو يدارى ارتباكك من فرط قلة حيلته بصنع الشاى. أو القهوة. كؤوس الويسكى التى رأى أنها أفضل رفيق لشرح قضايا كبيرة لتناج ضئيلة.

المعارضة المصرية.. المعارضة المصرية غرقانة لشوشتها فى المعركة ضد توجهات السلام التى يتبناها السادات. المعارضة المصرية ثلاثة أرباعها تمويل من خزائن اللواء القائد. والربع الباقى من خزائن منظمات المقاومة الفلسطينية.. المعارضة المصرية ليست حرة لتبنى قضايا الديمقراطية فى الوطن العربى..

صمت ونيس مصدوما وهو يتذكر حماس أخيه «ستتعلم المعارضة من مصر..» قال ونيس أخى يعول عليكم واجد. وضع رفعت الشاى أمام صديقه وهو يفكر يستطيع أن يتصل برفاقه فى جامعة عين شمس. جميعهم شرفاء ووطنيون مخلصون سيتعاطفون مع طلاب البادية. لكن هل يمكن أن يتبنوا قضيتهم ضد ثورة البوادرى.. مستحيل.. قال بعد فترة صمت مدمجة بالحيرة والأسى: أخوك يطرق أبواب الخراب. ولن يجد من يستطيع أن يحمل قضيته لا فى مصر ولا فى السودان. ولا فى أرض الواق الواق.. الحرية ترف.. دعه يعرف ذلك..

قال ونيس بغضب إنه قادم إليه وهو غير مقتنع أصلاً بفكرة رحيل أخيه عن البوادرى إلى مصر.. هو الذى طلب ذلك. وهو ينتظر عبور الحدود خلال الأسابيع القليلة. وما كنت أبغى أن أحدث معك. هى الحياة هنا صارت هنا جحيماً لا يعاش..

قاطععه رفعت بعصبيّة «وقل له الحياة هنا لا تعاش ولا تعاش  
فى أى مكان فى الوطن العربى. لن يجد من يحمل قضيته..  
المعارضة المصرية غير مستقلة. أغلب رموزها مرتبطون. تابعون.  
يعملون لدى أنظمة الرفض العربية الاستبدادية. ولن يستطيعوا  
أن يحملوا القضيتين معا.

- أى قضيتين؟

- مقاومة سياسات السلام المصرية، وسياسات القمع  
والاستبداد القومى العربى. ارتباطاتهم لن تمكنهم من نبى أية  
معارضة فى وطن عربى. يمكن منظمات راديكالية ماركسية قول  
لى أخوك ناصرى.. شيوعى ملته إيه؟

لأول مرة يفكر ونيس فى الأمر. هز رأسه نفيًا وقال حميدة مو  
ناصرى.. مو شيوعى.. هو وطنى يريد الحرية للبلاد.

- ليبرالى يعنى.. حزب الوفد لهم يؤمن بالقومية العربية. سعد  
زغلول يرى العرب أصفارا.. قول له لن يجد من يبيع له ليبرالته فى  
مصر.. يتبقى منظمة أو اثنين أيديولوجيتهم شيوعية راديكالية.  
أظن هذا صعب على حميدة جدا. طبعًا عارف ليه؟

- قولى ببش أشرح له.

- قضية حميدة قضية الحرية الليبرالية.. وهذه قضية طوت  
صفحتها ثورة يوليو.. لن يجد قوى تسانده. طبيعى سيجد أصدقاء  
من كل نوع.. أصدقاء حقيقيين. لكن لن يجد من يدعمه. يمكن فى  
بيروت.

ضحك ونيس وأضاف رفعت، والسوريون إيدهم طايلة فى  
بيروت.. إنسى. حرية دلوقت إنسى.

- والناصرين؟

- ناصرين!!

- شنو وحدة شنو حرية.

- حريتك بتكون في استقلالك.

- والشلطامي؟ وأخرج ديوان (القبعات الحمراء) المحظور يعطيه له. أمسكه يقلبه بين يديه لدقائق وهو مهموم غارق في التفكير. بغتة أعاده إليه وهو يشعر بالحرج: كان يفاضل بين الأمانة والهروب من الموقف. فاختار النزاهة. اختار أن يكون شريفاً: قول لأخيك. كل الأنظمة الثورية العربية فاشية. والمعارضة المصرية تعارض الفاشية في مصر وتتحالف معها خارج مصر.

- طب كيف يعنى.

- معنديش تبرير.. يمكن لسه ما أنش الأوان.

\* \* \* \*

اليوم تمت خطبة سالمين على واحد من أبناء عمومتها. استقبلت النبا بوجوم وظلت غير قادرة على التصديق. ولما قرئت الفأخنة ولم تكن تعرف من هو بعد. ولم تكن لتهتم بأن تعرف. تقبلت الأمر بوجه شابته برودة الثلج. كان المهر ثلاثة آلاف دينار لقاء حليب الأم وكيلو جرام من الذهب. وألف دينار كسوة العروس وأهلها وأقاربها عدا عشيرات الذبائح.

بصق ونيس على الأرض ولعن سالمين وجثمت المدينة على صدره. فاندفع يقود السيارة هاربا من جوها الثقيل. كأن شياطين الأرض تطارده. لم يدر إلى أين. عبر الطريق الساحلي يجنون تدهسه عجلات السيارة القوية. والسيارات تنحرف عنه بقزع. تنفتح المنحنيات الضيقة أمامه تحت ضغط بسرعتها حتى لا يسقط إلى الهاوية. فيخرج عن الطريق ليندفع الغبار عاليا. ويعود إليه ولا يدرى كيف.

في القبة جلس تتصادم تيارات الرعب في رأسه. تتخلع جمجمته. تضيق عيناه بغمضها حتى يروح الغبار. يكفهر الوجه حتى يعود البصر ثانية. وبصعوبة بحث عن أحد يحدثه. وجد ثريا فانتقل إلى جانبها. كأنه يعبر جبلاً وعراً من الصخور وقال: لماذا يدور عمريين نساء الحضر والبادي وساقطات مصر وأوروبا وبتركك وحيدة؟

شحب وجهها وندت عنها صرخة. وتوقف مشدوها كيف

خرجت هذه القذارة من فمه. همس وقد حبل بها وجوم: اعذريني  
اعذريني مو أقصد.. بعد صمت قال: كدت.. كدت أقتل إنساناً  
اليوم.. حتى أنا.. حتى أنا كدت أن أموت صريعاً بالطريق.. أنا.. أنا  
لا أدرى كيف نطقت بهذه الكلمات. وراح يعصر نفسه قائلاً: أنا  
موهكى.. أنا ما أسرى لإنسان قط.. ما أحب ذلك.

بقيت صامتة في برود فصال يرجوها: تذكرى ما أسأت إليك  
من قبل.. أرجوك اعذريني.. يا إلهي.. إني متعب.. كلميني قولي أنك  
سامحيتيني.. لشنو ما تتكلمى.. كان يختنق مطحوناً بإساءته. ود لو  
يبكى لكنه لم يفعلها من قبل. جاء صوتها برنة سخرية كأن طعنته  
غير المقصودة بلغت عظامها تقول إنه لم يذكر سوى الحقيقة.. إنها  
امرأة بلهاء مخدوعة لا تساوى لدى زوجها قلامة ظفر.

- أنا أنا لم أقصد قط.. لقد وخرجت الكلمات كأنه يقتلع  
حملاً ثقيلاً من الأرض: خطبت ساملين اليوم.  
قالت في برود: وشنو أسوى لك.

- لا شىء.. إننى أسف. وقام متناقلاً وقد بلغ به العمر أزدله.  
وانخلع قلبها لرأى التنسيب يخاتل وجهه. غمرتها عليه شفقة  
عارمة. ومنعت نفسها عن فعل لا تدريه. وهو أن تمسك يده جلسه  
بجانبها.

غاب أسبوعاً كاملاً والقلق يعبث بها منذ أن غاب. خافت ألا  
يعود ثانية. كانت قد بدأت تتلمس الأشياء مثل طفل يحاور عشيرات  
الصور المهزوزة.. الوحدة التي تعيشها أخذت تحس ببرودتها. وكانت  
من قبل مجمودة في ديب فريسزر. وإذا كانت ساملين قد خطبت  
فكلامها بمنأى عن السعادة. وانتظرت أن يجيء لكنه لم يأت.  
فقررت أن تذهب هي مع عائشة منعللة بمرض أصاب ابنتها صباح.  
قالت له: إذا كنت قد سئمتنا فما ذنب صباح؟. أصيب بالتخبط  
وقال من قبيل الواجب: سوف أتى.

ومر أسبوع آخر قبل أن يأتي وكانت على وشك أن تستقبله  
بغضب. بقى منفرداً. جلست إليه وقالت: تكلم أجابها بوجل  
وكان قد فقد طلاقته: عن شنو؟

- عنها

منو؟

- عن... وصمتت ثم قالت بعصبية.. عنها... عن... تلك التي  
جعلك توشك أن تقتل الآخرين بالطرقات.

ضم عينه متسائلاً: سالمين؟

- نعم

صمت لبرهة يستعيد نفسه. ثم انفك كالسيل. وشرع  
يحدثها عن حياة الفتيات في المدينة: فضصهن والبؤس الذي  
يعانيه. الكبت. وسيطرة الأهل على بناتهن. الضياع الذي تسقط  
فيه الفتيات بحثاً عن يطفئ عواطفهن المشبوبة. السذاجة  
السطحية والسقوط الذي تدفع إليه الفتيات دفعا. عدم الخبرة  
بالحياة الاجتماعية ولما انتهى راح يحكى لها القصص القديمة.  
ويشرح لها أغاني العلم وعيناها تتفتح على عالم جديد. فلما  
انتهى حدثها عن لقائه بسلمى. وأغاني العلم التي سبقت  
لقاءتهما. وعواطفهما العارمة. وكانت تطلب المزيد. كان يحكى  
بصعوبة كأنه يستعيد ذكريات قديمة يكتشف حلاتها للمرة  
الثانية. وكانت تستمع في شوق لعناقهما وقبلاتهما ومحاولتهما  
الصمود ضد عواطفهما. وملابسها التي كانت تجنيه متخفية  
فيها. لما انتهت وكانت مبهورة. أحسست بالنعاسة. لأن العمر  
سيمضى بها دون أن تلتقى حياً مائلاً

أصبح متناقلاً تتم حركة أطرافه عن عدم الاتساق. لحظات  
تستطيل حركة العنق. أو يدور الرأس ببطء ليخفى عدم توارد  
الأفكار على ذهنه أثناء حديثه مع الآخرين. وإذا ما جالس ثرياً محنملاً  
تصرفاتها المتناقضة بلبل ودون اهتمام. عندما تحاول خلع ثوب البرود.

أن تكون امرأة تستطيع الضحك: سخرتها المستجدة وضحكاتها  
المفتعلة لأشياء لا تستحق الضحك. فسوتها على طفلتها ثم  
حنانها الطاغى. تكلفها فى التعبير عن الوداء. وكان آخر ما يتوقعه  
منها محاولاتها لفت انتباهه. تقليد ما حكاه عن سالمين. الملابس..  
الحديث.. إطلاق العنان لجذائلها وأخيرا التغنى بأغاني العلم.

وفى إحدى المرات القليلة التى حملها معه فى سيارته من  
مدينة النساء عائدا إلى القبة. حيث كانت عند عائشة سألته:  
شئو تقول عنى نساء الحضر؟ بقى فترة يحاول استيعاب السؤال  
ثم أجاب: ما أدري. لكنى واثق أنهن يمثلن بالغيرة والحسد. قالت  
وهى تشيح له بيدها: مو معقول. تهزر أنت.

- لم لا اللواتى طالهن زوجك أو اللاتى حالت دونه ودونهن  
عفة أو الحياة فى فلاح مشيدة معزولة تحت رقابة الحرس.  
كيف؟

- مثلا.. أحتك خيرية ما الذى يثير لديها كل هذا الحنق والحد  
عليك؟  
- شنو.

- أنت تبدين لهم راسخة بسبب انعدام مظاهر السخط  
والانفعال عندك. هذا يجعلهن يتصورن أنك أكثر قوة ما أنت عليه  
حقيقة.

كشرت عن وجهها وقالت: تظن أنى أحسن بالراحة. أنا أشد  
شقاء وتعاسة من أى امرأة فى العالم. قال ولكنك زوجته. صفقت  
بيدها غاضبة وقالت وما الفارق بين زوجته أو خادمته أو أى شئ  
بكل؟

- أنت عندهم زوجته الشرعية.  
- هه تقصد زوجه جهنم الشرعية.  
أدارت رأسها إلى نافذة السيارة ترمق المارة فى ضجر وعند



السوق قال لها فى ثاقفل إذا كانت ترى السيارة الفيات الصغيرة الحمراء التى تقودها الفتاة. وأضاف إنه سوف يرسل اليها إشارة ضوئية. وأعطى إشارة ضوئية فأجابته بومضات من ضوئها العالى. وعند التقائهما مرت بكفها على جبينها.

رفعت حاجبها معبرة عن دهشتها. ولم تمض دقائق حتى عبرته السيارة الرينو البيضاء فنبهها. وجاءت الإشارة مصحوبة بابتسامة حارة. ومرت ثالثة ورابعة وخامسة كلهن كن يحيينه خيات حارة أما نزيهة فقد صاحت عليه مثل صبي «وينك دكتور ونيس واحشنا واجد».

عقبت ثريا بسخرية. كل هادول الصبايا.. ما عندك فراغ ككل. كانا قد غادرا المدينة عندما شرع يحدثها.. هذا لا يحدث له فقط. بل للأخرين. ورغم أن لا أحد يعرف بما يحدث للأخر. فالأحمق هو من يظن أنه المرغوب الوحيد.. زمان كان هناك فى البيوادى « بيت الجلاس » فيه يقيم البدو ندوات السمر. تجلس الفتاة تنصدر المجلس وخلفها الفتيات. ويأتى الفتية من كل مكان بعد أن سمعوا بما بلغته هذه الفتاة من شأن فى السرب و صوب خليل. ويأخذون فى السمر وتبادل الألفاظ والأحاجى. فإذا تورط شاب. فى لغز أو أغنية وعجز عن الرد فإنه يتنازل لها عن رهينة ويرحل. ولا يعود إلا إذا عرف الجواب عندها فقط يستطيع أخذ رهينته. وما يحدث للفتى كان يحدث للفتاة أيضا. والناس فيما مضى كانوا ينظرون إلى « بيت الجلاس » نظرة احترام وتقدير وكان الجنسان يتبادلان الاحترام. ولا يوجه أحد كلمة نابية إلى الآخر. وكان الأب والأخوة. يتركون الدار قبل قدوم الشباب. فكان بيت الجلاس مدرسة بدوية يتعلم فيها الشباب من الجنسين حرية فنون الاختلاط والحياة. كانوا يحضرون المجالس وهم على مستوى أخلاقي رفيع. فيبهرنون أن الوسيلة المثلى للتحرر من العقد العاطفية والاجتماعية. هي اللقاء بين الجنسين قبل الزواج حتى يتعارفا. هكسى كانت الفتاة فيما مضى

حررة تختار من تتزوج. نحن الآن لا نجد من يحمل لنا مشكلاتنا  
الجنسية والعاطفية بل الحياة تصبح أكثر تعقيدا.

أدارت رأسها إليه وقالت في تعبير الاندهاش. صار هكى.

- باهى سباحكى لك واحدة من أشهر فصص بيت الجلاس  
فى البوادرى. يقولون إنه كان هناك ابنة لواحد من أكبر مشايخ  
القبايل. يضربون بها المثل فى الجمال والأخلاق والذكاء. رغم صغر  
سنها كانت مرجع فى حل أحاسى السريب التى يحكونها فى بيت  
الجلاس. فأقام لها والدها «بيت الجلاس» وأقسم أنه لن يزوجها إلا  
للشباب الذى يستطيع أن يتغلب عليها فى أعانى العلم وصوب  
خليل. فأقبل الفرسان والشبان الموسرون يحجون إلى خيمتها من  
كل صوب وحذب. فيمد السماط بطعام العشاء والنشأى. ويرحل  
أبوها وإخوتها ويتركونها مع بات القبيلة. والشبان. ويظلون حتى  
آخر الليل. ويعودون وقد جردتهم من أسلحتهم رهينة إلى أن  
يجدوا حلا لألغازها وأحاجيها التى كانت شديدة الصعوبة عليهم.  
فيرحلون إلى البادية يسألون الشيوخ والعجائز حلا لألغازها. حتى  
فاضت خيمتها بالدروع المزخرفة. والسيوف الهندية ذات النفوش  
الجميلة. وكانت قبيلتها على حلاف مع قبيلة أخرى مات من أجله  
مئات من فرسان القبيلتين.

وفى أحد الأيام عرض شباب ملثم منارلتها. خرجت الخادمة  
وأمسكت لجام فرسه تدعوه للتفضل بالدخول لكنه غضب وشد  
لجام فرسه نحوه ورحل وهو يردد

يَصْقَصُ عَلَى قَدَارٍ عِنْدِي الْعَقْلُ يَا بَالُ عِ الْجَفَا

عاد الشاب من حيث أتى وأخبرت الخادمة سيدتها وتلت على  
مسامعها الأغنية. فابتسمت الفتاة واستمرت فيما كان عليه  
مجلسها من سمر

فى اليوم التالى رأت الخادمة شباب الأمس مقبلا من بعيد.

فنبهت الفتاة فقامت من مجلسها واستقبلته بنفسها. وأمرت بأن يعسى بالفرس وقالت إلى الشاب الذي ألقى عليها بالسلام.

«سلامك تمكن.. وعظامك أرتكن،  
«وهات لي ستين غناوة على صوب العزیز بيكن»

فرد قائلاً

«ما بيكي على صوب العزیز.. إلا اليأس والموح والجفا،

لم يكن الفتى مبتدئاً في أغاني الصوب أجابها إجابة مختصرة. حيث لا يبيكي في الحب سوى ثلاث اليأس والبعد والجفا. وكان هذا أول اختبار له اجتازه بنجاح. لهذا دعتَه إلى دخول البيت قائلة له: خلى رأسك وكرعيك برة البيت وتفضل. فخلع غطاء رأسه ونزع حذاءه ودخل. فلما دخل ألقت عليه بكلمات وكان عليه أن يضعها في واحدة من أغاني العلم فقالت «سلام» فأجاب

«سلام غاليه الكلام من ضيم يا علم نار الغلا»

في اليوم التالي عاد الشاب فاستقبلته على الفور. وكان مجاحه أثار لدى شبان القبيلة والفرسان القادمين من أجلها الغيرة. فترصدوه ليعرفوا من هو. دعتَه قائلة:

«تريح نخطوك في عشانا»

فاتخذ الفتى من مداعبتها منفذاً ليحدثها عن نفسه فقال:

«لاني قديداً منشتر.. ولاني شحم ضان غاوي

ولاني سمنا محلي.. نين نتوكل ع الشهاوي

ونطيح في عشاك نموت.. نبقى ظليل ليوم القيامة

فكشفت بذلك عن سره. حين قال إنه لو وقع في عشائها سبموت ويسعى أهله للثأر له. ويطالبون به حتى يوم القيامة. ذهبت تنصدر بيت الجلوس وجلسا وسط الفرسان لا يعلم أحد

عما يدور بينهما. واستمر السمر بين الجالسين وبقي هو صامتا.  
استدارت تفاجئه وقالت:

لا تكلمنى لا تقول يا هيه  
نين تطرح لى طرف السما نقعد عليه

وكان الفرسان عرفوا فيه ابن شيخ القبيلة التى تعادبهم  
فقرروا أن يفتكوا به وعرفت هي. حدق بها وفكر ثم قال.

نجيب لك هجين أسود من لون العوين  
يصب على كراعيه ويجيب السما بيديه  
حصير تحت عازات خاطري

فعدت تتصدر المجلس وقد أمرت أن يذبحوا لها شاة ويسلخوها.  
وطلبت من أحدهم أن يقوم على تقطيع اللحم واستمر السمر  
حتى سألته «صنم» فأجابها

صنم شكيت له م الياس جبر بخاطري قال يقسموا  
فأطرت برأسها وقالت «غصب» فحلت به الدهشة قال  
«نشيل من عفا وأمان.. ونقيم غصب فى أوطان الجذب»

فحلت شعرها وكشفت عن طلعة بهية. سرت الهمهمة  
بين الحاضرين وجرء بالشاة أمامها. دعت ووضعتها أمامه قائلة:  
أريدك أن تقسم الشاة كما أطلب منك. ضع الرأس مع جلد الشاة  
فتغير لونه وامتقع. وفعل ما طلبته منه. استطرده أن يذهب  
بالعين ناحية القرون. توقفت أنفاسه وشلت جوارحه. منتظرا ما  
ستفعله. ران الصمت على الجميع الذين لم يعوا شيئا مما يقال. رأوه  
يتهلل فرحا عندما قالت: وضع الكراعين مع القلب.

سأل ونيس ثريا هل فهمت شيئا؟ أجابت بالنفي. قال: قطع  
الرأس كان يعنى أن موته الليلة. والثانى كانت تدله على وسيلة

جأته. الرحيل إلى الجبال البعيدة. وانتظر قولتها الأخيرة بعد أن تمكن حينها منه. وهو أنها ستتبعه إلى آخر الدنيا. فالأقدام تسير أينما يستجيب القلب.

في الفجر جهز هودجا أسود وهربا في غائم الليل نحو الجبال البعيدة. حيث انتقلا من حياة السخاء والأمان. إلى حيث الجذب ووحوش الجبال والصحراء حيث مانا معا. ولم يكن مسها فقد كان حيهما عذريا وعلى جثتيهما تم الصلح بين القبيلتين وانتهت حرب ضروس بين أبناء العمومة.

\* \* \* \*

في الليل جافى النوم المرأة الصغيرة زوجة أكبر أثرياء الشرق. ولما جاءها كان يصطحب أحلام المراهقة. تتلمس الأحلام والخيالات والصور التي تصنعها أساطير الشرق. طهارة الفتاة وعفة الفتى. الحزن الرومانسي للنهايات المفجعة..

في الصباح كانت تنظر بقداسة مأسورة إلى قمم الجبل الأخضر.

في اليوم التالي قاطع ونيس ثريا وهي حكى لابنتها قصة الأمس. وألقى بلغز طلب منها أن تأتي بحله. ضمت ابنتها إلى أحضانها وعاملت جدلا. وحل بها فرح وطرب طفولي. تطلعا إليه مترقبين.

عندي ثنى..نصه طايب ونصه نبي  
ونصه يدور في الغلم حي

وضحك وضحك وضحك صباح. ضحك ثلاثتهم. وامتلأ بالسرور وانثنت ثريا بجذعها تقلد شاة تسير وتطلق صوتا بمائل صوت الشاة. لكنها توففت فجأة بجد واهتمام: يدك رهان. صح. فأجاب غير مستسيع للفكرة «لا لا بهم»

كيف هكذا؟ ما يسمع واستدارت لابنتها تسألها «شئنا  
نعطيه يا صباح أيوااااه خذ المصحف هذا.

ما في داعي

كيف ما في داعي. يجب أن تأخذه بيث بصر السريب صحيح.

فأخذه وهو يقول. هكي ستفقدن أشياء كثيرة

فأجابته في خد. هه هكي أنت تظن

وانطلقت ثريا وخلفها ابنتها إلى مجالس العجائز بالمنازل  
الجاورة. تلمسح بهن مثل هرة صغيرة. وتحنن الفرصة التي تمكنها  
من معرفة جواب اللغز ولم خد ردا. حتى راودها اليأس. امرأة عجوز  
تعيش على حافة الربع أخبرتها بالرد الصحيح فرحها جعل  
العجوز تلقى لها بلغز آخر. عصر اليوم التالي جلست وبجانبيها  
صباح على مدخل الحوش الداخلى على نار تنتظر قدومه. لما عبر  
المدخل الأمامي طلبت منه المصحف. وفي صوتها نبرة انتصار.  
أعطائها إياه مستسلما

قالت: باهى وهات الرد.

• ناكل الطايب ونشوى النى ونلحق اللى يدور ف الغيم الحى  
ونطولو أدراج غلاك اللى صعاب ف الروز يا علم.

حز رأسه وقد عادت له ابتسامته الواسعة وهو يقول نتعلمى  
بسرعة واجد... لم تجبه بل أخذت سلسلتها وهي تنبهه أن يستعد  
غدا فالدور عليه.. وظلت متوثبة تترقب مجيء الغد. وبلغ بها  
القلق والملل من الانتظار ما يحل بمن ينتظر لقاء الأول. وحتى جاءت  
الظهيرة فى اليوم الثانى. كانت الرغبة فى مجيئه قد عصفت  
بها. واتخذت مجلسها بجوار المدخل الداخلى وقد ضمت شعرها.  
وألقت بخصلة سوداء على طرف جبينها تخمض عينيها فى  
جاذبية يصعب تفاديهها. وبجوارها ابنتها مرتدية رداء وطنياً جديدا  
يلمع بألوان زاهية. فلما جاء ونيس ألقى لها بسلامه كالاعتاد. وكان  
ردما سريعا متحمرا:

«ترة قوللى على شاه..تمشى بلا مفصل»

وقف وبس يحدق بها مشدوها فى بلاهة وهو يتساءل: شنو؟  
فرددت عليه حديثها ولما انتهت قالت وهى تقول بلهجة جافة تصفق  
بيدها وتمدها نحوه: الساعة. أعطنى ساعتك. فقامت الطفلة نحوه  
جذبها من يده. استاء وطلب منها الصبر وأن تعيد ما قالته.

قالت لآخر مرة أعيد أيوأااا لآخر مره.. كانت طفلة تلهو  
صبية من المراهقات والبشر الذين يبحثون عن طعم للسعادة.

فى اليوم التالى قال لها وهو يضحك بسخرية إنه إذا كانت  
تريد حلا للغزها فعليها أولا أن تعطيه الساعة. وثانيا أنه غير  
مسئول عن معناه وعليها ألا تغضب.

- شنو مو على مسؤولينك شنو تقصد ؟

- هكى ومشر من تغضبي.

قالت بنقمة إنه لن يوجد ما يغضبها. والحقيقة أنه يراوغ ولا  
يعرف الحل. ولن يأخذ الساعة. قال على ألا تغضب. فهزت رأسها  
بالموافقة.

- ويبيى.. لشنو أغضب هيا أجيني..

- هاك هو

«على ما مشيت .. بين الشمس والظل»

«ما ريت شاة تمشى بلا مفصل»

«الأ بزازينك .. ووحى الحجل»

ندت عنها صرخة وهى تمسك بنهديها. قال مؤكدا أن هذا ليس  
ذنبه. وضحك وطلب ساعته. وهى تتجاهله بعصبية. أسرعت إلى  
العجوز تسألها ثم عادت وأوعزت إلى ابنتها أن تعطيه ساعته.  
لاحظته يحدق فيها وعلى وجهه ابتسامه. وعيناه على صدرها.  
فمدت يدها مستاءة تسوى من ثوبها ودخلت إلى باحة الدار ترسم  
الغضب وداخلها ينتعش بالبهجة.

طول اليوم تابعها يلماح جسدها البيض داخل الرداء الذى  
التف حول خصرها فى ثنيات متكررة. وعاد يعلو كتفها الأيمن  
ليغطى نهداً ويتركه الآخر تحت بلوز مشدودةً يجعله نافرا مثل طير  
يفاتل من أجل التحليق عالياً. وكلما التفت نظراتهما تجاهلته.  
وألقت بصرها إلى صدرها تدعى الاستياء، على سوء اختيارها.  
على العشاء وعندما التفت نظراتهما صدفةً، لم تستطع أن تمنع  
نفسها دون أن تنظر نحوه من أن تنفرط فى الضحك.

ضحكت مثله تماماً ضحكة صافية امتلأ بها فضاء الغرفة.  
نظروا إليها مندهشين، يرونها تضحك لأول مرة بمثل هذا الصفاء.  
بمثل هذه الحرية. لم يفهم أحد شيئاً. وحدها أمه التى شعرت بالقلق.  
لقد سمعت على ثغرها زوجة ابن زوجها ضحكة ابنها ونيس ..

\* \* \* \*

لم يكن هناك شيء مثير على طول الطريق الذى كان ونيس  
يقطعه باتجاه القبة، عدا قوافل المصريين النازحة فى اتجاه الشرق  
ليل نهار. البرجوازيون من فنيين وأطباء ومدرسين ومقاولين عادوا فى  
سيارات محملة بأطنان من الأجهزة الكهربائية، والحقائب المحملة  
بالملابس، والأدوات المنزلية، ومئات الأشياء الصغيرة. أما العمال  
والفلاحون والأنفار فقد حمل كل منهم علامته الشهيرة: راديو  
ومسجلاً، وحقيبة ملابس رخيصة، تحمل هدايا لأسرته وعائلته  
وجيرانه وورقة صغيرة أخذها من مهرى النقد ليتسلم بها كدحه  
القليل جنيهات مصرية من أحد العملاء بالقاهرة أو الإسكندرية.  
وعدا ذلك كانت حوادث الطريق التى تسببها السرعات العالية  
على المنحنيات الخطرة والسبيل المستمر من القوافل العسكرية  
والدرعات والعربات المحملة بالجنود التى كانت تتحرك طوال الليل  
باتجاه الحدود، وكانت الحيرة تسلطت على عقول الناس الذين كانت  
مصالحهم تضار بشدة.. هل تقوم الحرب؟ لم يكن أحد يصدق..



وترقب الناس على جمر من نار نوادر انفراج للأزمة... لا شيء مضمون بعد. لقد سبق ورحل المدرسون المصريون من العراق والمغرب بملابس النوم أيام عبد الناصر

وردت أنباء عن حدوث اشتباكات متناثرة، حُجم عنها حدوث إصابات وقتلى وأسرى من الجانبين. هل يهاجم الجيش المصري؟ تساءل أهل البوادي والحضر وعلى وجوههم دهشة مريرة. أين ستذهب رغبتهم الصميمة للقتال جنباً إلى جنب مع الشعب المصري في يونيو 1967 وحرزتهم المرير للهزيمة. وقوافل المساعدات التي كانت تمر على طول الطريق الساحلي فتقدم النسوة والعجائز والأطفال حليهم ونغودهم والأغطية والملابس إبان الحرب.. هل تقوم الحرب. وكان رفعت يقول: رغم أننا هنا عن قصد أو بدون. فإن لكل رعية رب. واللواء الركن يرعى الفقراء. وجميعهم يجهزون له طعنة برونس.

واكتفى ونيس بنوبات اكتئاب. يتابع تقلصات أصابعه غير الإرادية. يتوجس عندما يفقد السيطرة على عضلات فكه. ويطحن أضراسه عاجزاً عن أن يرخي فكه.. كان يأكل نفسه غير قادر على الخروج من دائرة شجنه. لم يعد يهتم بمظهره. طالت أظافره واتسخت قمصانه. يذهب إلى عمله غير حليق. وتسيطر عليه فكرة احتقار الجميع. متخلفون وأغبياء.. يوماً ما حاول أن يكون مبتدلاً.

في شرفته مازح نزيهة عندما أشار إلى قميصها الداخلي القصير متسائلاً إذا ما كانت جسده طويلاً وضعت كفها على فخذها تمسك بذيل القميص وعيناها تنتظر جوابه «هل أرفعه أكثر من ذلك». ورفعته بالفعل ليظهر باطن فخذها. صمت فترة مدعياً التفكير وهي لا تحيد عيناها عنه عندما قال كفاية هكي مليح. خلى الباقي بكرة غادى. هزت كتفها وهي تعلق شفيتها بلسان أحمر طويل وقالت وهي ترفع حاجبها «كيف ما تبي. أعطني سيجارة واستطردت في همس بمنعونها عني».

ضحك وقال في سخرية «أوووووه... ما لهم حق».

الأشياء الممتعة قليلة هي نادرة فاصطع الدهشة وهتف: حقيقى حتى الرائد.

فعلت بيدها فعلا قريبا وهى تزوم. فقاطعها قائلا فى سرعة وهو يصفق جبينه مشسيرا الى نهدها الذى بدا عاريا تحت قميصها؛ من أين اشتريت مشد الصدر؟ أجابت فى تعجب: أى مشد الصدر.

- هذا الذى لا ترتدينه. صمتت لفترة ثم راحت فى ضحك طويل قطعته وهى تحاول كتمانها وقالت وهى تنظر إليه فى جاذبية: صرت خطيرا واجد يا دكتور. شنو جرى لك. فقدت حبيبتك؟

سألها مسرعا أن تأتى. سأنته أين؟ أشار إلى شقته. قالت فى تعجب «عندك لماذا؟». شاعر بالارتباك وضاعت منه شجاعته. قال لنتعارف. قالت ألسنا نتعارف هنا زاد اضطرابه. عرفت أن سلوكه المتبدل أكثر تهديبا من أن تحصل منه على شيء. استطردت فى برود. أسفة. ساد الصمت ثقيل. ما هو ترفضه عاهرة. لعن سالمين وكل العالم والناس. وانسحب والعرق البارد بغمرة.

اليوم كان يجوب الشوارع مكفهر الوجه حائر القسمات. لجها من ظهرها فجأة تسير بين أختيها مخدولة الساقين ضائعة. عبرها بسرعة وعند التقاطع التالى عقد مكابح السيارة. ارتطمت مقدمها بالأرض وهى تشن تحت سطوة الفرامل. دارت السيارة فى سرعة وعاد إليها فى لهفة. كان الذعر يرتسم على وجه سالمين النقت عيناهما ورفع لها نظرة طويلة ملناعة. حملها كل الأسى والحزن الذى يعتمر قلبه. رغبته كى ينحنى على قدميها يبيلها بالدموع يغسل الشوك عنهما. وأحسست بساقها غير قادرة على أن حملاها. كادت أن تخر مغشيا عليها. شعرت بأنها المذنبه. وأن جرمها المشهود يعلن عن وجوده للجميع. ولما صف سيارته وعاد كى يحدثها كانت قد فرت من الفرع وداخلها يتناثر ذرات للرياح.

بحث عنها فى الأزقة المجاورة. ورتبا بناظره إلى آخر الطرقات

يخمن الأجه الذي رحلت إليه. ولما انتابه اليأس امتلاً صدره بالغضب والكراهية. صب عليها حقداً مريراً لتورطه فسى حبها. تبين أنها أضعف من أن تقف بجانبه فى شجاعة تواجه الجميع. وبعد أيام قضاها على فراش اليأس قفل راحلاً إلى القبة.

استقبلته ثريا بعناب. فراح يمضى الوقت بينها وبين ابنة أخيه. وقد ازدادت كآبته لا يخرجها منها إلا حكاياته لصباح وأحاديثه لثريا.

فى إحدى الليالى وكان يحكى لصباح وهى تجلس أمامه تصغى فى انتباه شديد. وقد وضعت وجهها بين كفيها الصغيرين قصة علم وسلطنة وأقبلت ثريا مبهتجة. تسأل ابنتها وتصح بها أنها دائماً ما تستولى على عمها. وسألتها ماذا يحكى لها. قالت الطغلة لأمها وهى تشير إليها بالضم: جعمرى واسمعى. وأضاف وهى تلتصق بعمها مثل هرة صغيرة. تمد ساعديها الرقيقين فى الهواء: حكاية كبيرة واجد. وراحت تشد ساعده تدقعه للاستمرار.

قال ونيس. منذ مئات السنين لم يكن خلف الجبل الأخضر صحراء بل أراضٍ خضراء ومدن مصنوعة من الذهب والفضة. يعيش عليها شعب عظيم بلغ من الحضارة شأنًا كبيراً. والناس تعيش فى سعادة وحب. كانوا يختارون ملكهم كل عشر سنوات. يأتى العامة والناس من كل البلاد. وتقام الاحتفالات سبعة أيام. ويقف فى الساحة الضخمة أمام قصر الملك الفلاسفة وأكثر الشيوخ تقوى وأعدل القضاة والعباقره من العلماء. أشجع الفرسان. فإذا اجتمع الصالحون أطلقت عشر حمامات للفضاء. الحمام يعرف عيون الأشرار والأخيار. وهو الذى حمى الرسول عليه السلام فى كهفه من الكفار. ومكانته محفوظة فى الجنة. ولما يقف على رؤوس عشرة يكونون هم مجلس الحكم بالملكة. ينصبون منهم ملكاً كل عام ويبقى البقية له مجلساً للشورى.

فأطعته ثرياً وماداً عن «علم»؟ طلبت الطفلة من أمها في  
ضجر أن تتركه فهو يحكي. فقال لثريا اصبري أنا نحكي.. نظرت  
لهما في سخط وصمتت.

كان الحكم لأكر شيوخ المملكة وأكثرهم تقوى وحباً للخير.  
وكانت له فتاة داع صيتها الحسن أديها وكمال جمالها وذكائها.  
وكانت محاربة تبرز الفرسان في ركوب الخيل والمبارزة بالسيف..  
ومرت الأيام حتى جاءه منام قام له مذعورا. رأى حية ضخمة بسبعة  
رؤوس تفح من رعوسها ألسنة النار. تهاجم البلاد والقرى. وتخل بها  
الخراب والدمار. فدعى الملك الكهنة ورجال السحر والعرافين كنى  
يفسروا حلمه. فعجزوا جميعاً عدا الناسك ذي اللحية الذي جاب  
الهند والسند ونزل مصر وراح الصين وعاد بعلم عزيز. وكان طول  
لحيته يبلغ عشرين قدماً. يحملها أمامه عشرة من تلاميذه. وأمام  
الملك طلب الإذن بأن توضع لحيته أمامه ويذهب الجميع.

قال الناسك ذو اللحية: الأمر خطير يا مولاي. الإله الأعظم  
حاميتنا. وَجَدَ آبائنا الأولين. مرض مرضاً خطيراً فقدم له إله الطب  
دواء كسى ينام نوماً عميقاً. حتى يؤذن له بالشفاء. فلما علم إله  
الظلام بالنبأ. أعلن الحرب على آلهة السماء. وهو في غضب شديد  
لأننا ما زلنا بعد أوفياء للرب الأعظم. ولا نقدم له النذور والقرابين.  
فاجتمع وقرروا أن يطلق علينا إله النار والقحط عقاباً لنا

قال الملك في حزن. وماذا ننشير على؟

ارحل يا مولاي أنت وابنتك الأميرة إلى الشرق حتى يفيق الرب  
من نومه فيحل السلام على الأرض. غضب الملك غضباً شديداً  
وصاح: ما أحسن تفسيرك وبنس تدبيرك. لو لم تكن صالحاً لقدمت  
رأسك قرباناً للآلهة. ورميت جسدك تنهشها الضباع والكواسر.  
ودعا الملك لاجتماع حضره حكماء وعلماء المملكة. فعرض عليهم  
الأمر. واستقر رأيهم على اعتبار العام عاماً للصلاة والدعوة بانتصار

ألهة السماء وقيام الرب الأعظم من غموتيه. وأن تقدم القرابين مضاعفة ثلاث مرات على أن يترك لباس حرية البقاء أو الرحيل.

قال الماس. أين نذهب ونترك حقولنا ومنازلنا. إن تمت أراضينا ومزارعنا تمت معها. بعد سبعة شهور جفت الأنهار. ولم ترسل السماء المطر. اجتمع مجلس الحكماء من جديد وقالوا: يجب أن يرحل البعض منا فإذا حدثت الكارثة كان هناك من شعيبنا من يعود ويعمر بلادنا ثانية. واختاروا من كل بطن. وكل قبيلة. وقريه ومدينة. عدداً من أحلى نساها وأقوى شبابها. وجهزت كوكبة من الفرسان السواسن لحماية القافلة من غائلة الطريق. يوم الرحيل خرجت اللاد تودع أحياءها في غم شديد. لكن الركب توقف عن الرحيل ودعت وفد إلى الملك وقال حكيمهم. بنس ما أقول يا مولاي لكن عند الليل يزول الخجل والاحتمام والعافل من يتبصر يومه وغده. يطلب النسوة والأطفال ويهتف الرجال والشيوخ. نريد منك أثراً يبقى عنا. حدثنا وقلوبنا في السفر. نريد حكمتك وشجاعتك وفداءك لأهل البلد.

أجاب الملك. سجل وقل نمنونسي. ينشد طلبكم على الفور. أثقلت على.

تنهد الرجل الحكيم وقال. سامحني بحسب الإله. نريد ابنتكم ظليلة.

بكى الملك وقال. بتركوني وحيداً. قال الحكيم في شجاعة: معك الشعب يا مولاي فكر الملك ومسح دموع عينه المتساقطة ثم قال بأص. كما نشأون.

رحل الركب ميمما شطر الغرب. ولم يجدوا سوى الجذب والفحط والصحراء الفاحشة. وقلت عيون الماء. والرياح حملت إلى أنوفهم وأفواههم ذرات العبار والرمال. وظلبت منهم ظليلة أن يلثموا وجوههم حتى لا يدخلها العبار وعند الجبل الأخضر قالت

لهم. سرحل إلى الجنوب حتى حصى من ألثة الظلام. فتقدمها الرجال كالأسود. حيث أقاموا في قلب الصحراء فسيطروا على مداخلها وروضوا ضراوتها. وحفروا الآبار وعيون الماء. وأقاموا مدناً جديدة في قلب الصحراء وأطرافها من بقايا المدن العظيمة الغابرة. ومرت مئات السنين. والناس كلما ماتت ملكتهم يولون ملكة عليهم من أجمل النساء وأكثرهن فروسية وشجاعة وحكمة.

وكانت الرسالة قد نزلت على سيدنا محمد. وأذن له بنشرها على العالمين. وشد العرب الرجال إلى الشام وبلاد الرافدين وأرض فارس وبلاد الهند. وبلغوا مشارف الصين. ونزلوا مصر فاستقبلهم أهلها استقبالا حسنا. ففتحوها من غير حرب. ومنها انطلقوا إلى البوادي في جيش ضخم يقوده أشجع الأبطال وأعظم الفتيان حتى بلغوا إجدابيا وهناك قامت حرب شعواء بين العرب. وأهل البلاد الأصليين من البربر من قوم ططلطة. لاحظت ثريا أن ابنتها صباح غطت في النوم. وقد توسدت ذراعه. همس لثريا إنها نامت. سوف يكمل الحكاية لها غدا. وحملها إلى غرفتها. وتبعته هناك بمد الطفلة على السرير واستدار خارجا. سألته في رقة غير معتادة إذا ما كان تناول عشاءه.

في مساء اليوم التالي جاءت صباح فجر جدتها والعجوز تسير وراءها غاضبة وهي تشير لعمةها وتقول: « أسأليه لشنو أنت خايفة». صاحت العجوز وهي تشير لونيس «أنا أخاف من هذا الخرفان». الذي سأل بدهشة «أنا.. خرفان لشنو». قالت ثريا من الصباح حكى لجدتها الحكاية. وجدتها تقول هذا تخريف في تخريف. وصباح تقول هذا مو تخريف. وعمى ونيس ما يكذب بكل ضحك وأخذها بين أحضانه. وقال لأمه أن تأتي وتسمع بقية الحكاية. وصباح جرها حتى أجبرتها على الجلوس.

عندما جلست المرأتان والطفلة فال ونيس صرت أحكى

الحكايات كيف المربيات ثم قال لصباح: وصلنا أمس إلى الحرب بين العرب وطلطللة. فقاطعته العجوز: شننو طلطللة هذه. صاحت الطفلة «تري اسمعى وأنت ساكتة» تبادلت العجوز وثريا الابتسام وجلست مستسلمة. قال ونيس. إن الحرب كانت على أشدها. وأبلى العرب والبربر في الحرب بلاء حسنا. ومرت الأيام والأسابيع والمعارك لا تنتهي. وكان بين العرب فتى قرشسى مقدام وفارس لا يشق له غبار. يحارب وفي يده سيفان هنديان. وسمى بـ «علم» لأنه كان يحارب الأعداء وعينه على راية العرب. فإذا سقط حاملها سارع بحملها. حتى يتناولها آخر. فيعود إلى القتال. وكانت طلطللة التي سماها العرب سلطنة تقود جيوش البربر بنفسها. وبعد حرب ضروس مر عليها أربعون يوما. قرر الجانبان عقد هدنة يتم بعدها النزال بين أبطال العرب والبربر. وفي اليوم الأول جرى القتال والنزال بين الفارسين. وامتسلت الأرض بالغيبار سساعة من الزمن وأجّلت المعركة عن الفارس العربي شهيدا. وهلل البربر وقال العرب اليوم لكم وغدا لنا. وفي اليوم الثاني استشهد فارس عرسى آخر. وخيم على البربر الفرح بنصرهم. وعاد العرب إلى خيامهم وهم في غضب وألم. قال علم. إننى منازل أبطالهم غدا. وليسوف ينصرنى الله ويؤازرنى بنصر من عنده. غضب كبار الفرسان أن يسبقهم علم في خدمة الإسلام. لكنه ذهب إلى أمير الجيوش يرجوه أن يسمح له فوافق. وفي اليوم الثالث كر البربرى على علم والتحم الخصمان وقرعت السيفوف وتعالى الغبار ولهت الخيول. ولم تمض السساعة حتى جندله علم صريعا من فوق جواده. فهلل العرب وصاحوا بالنصر. وطوال أيام ثلاثة جندل ثلاثة من أعظم فرسان البربر. سسألط طلطللة: من هو هذا الفارس؟ فقالوا هو من أشجع فرسانهم وينتسب إلى نبيهم القرشسى.

قالت طلطللة وحق ألهتنا ليس له سسواي. وفي اليوم التالى ارتدت خوذتها الذهبية. وتمنطقت بعدة حربية من الفولاذ المطلقى

بالذهب والفضة. وأحدث درعها المرصعة بالياقوت والزمرد على سيف ماض يسرق من حدة لعانه. وعلم ينادى في ساحة الوعى. ظل من مرادى أذيقه الهوان من حسامى؟

فخرج له فارس ملثم رشيق المنية حسيب الطوية على فرس عجماء كبيرة. تدور بعرتها البيضاء الأصيلية. نظر علم فزاعت عيناه من الأشعة الشئ نلتع على دروح الذهب تدهى يقطى الفارس. سكنت الساحة وعم الصمب وكان الناس على رؤوسها الطير. وكالسرقت اشتيكا. فزلزلت الأرض زلزالها. ودمدمت السماء نيرانها. والائتان فى كروفر حتى غابت الشمس. فعاد كل منهما الى معسكره فى انتظار لقاء جديد.

فى المساء وبينما علم نائم فى خيمته. استيقظ فجأة ليجد شبحاً ملثماً فانتفض يسأله: من أنت. فأجابه: أنا رسول من الفارس الذى قاتلته اليوم. سأله وماذا تريد؟ فقال. يبلغك السلام ويقول كنا نحيا فى ونام حتى جئتم شاهرين سيوفكم. حاملين المنية. ولو جئتم مسالمين لفتحنا دورنا ولصرتم منا ومن أهلنا. وهو يقول لك. أنت فارس عظيم نعت عليه أن يروح شيباك وتشرب الرمال دمائك. فاجنح عن القتال غداً وإلا فهو قاتلك.

صرخ علم وقال ما بحن باللصوص الأفاكين. ولا طلاب حرب مجرمين. ولكننا جند نحمل رسالة السماء. أنزلها الله على آخر النبيين محمد الأمين. الذى أرسل هدى للبشر أجمعين. بأمر ما أمر الله بالحق وينهى عن المنكر. ويقيم العدل ويساوى بين الناس فى الدنيا والدين. والناس عنده سواسية كأسنان المشط لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى. هذا ما جئنا لنبشربه فأخبر صاحبك: أسلم تسلم. تلك رسالة الإسلام. فيحل السلام بين الناس. ويسود الأمان. وأما فليعلم أن الموت عندي أحب من الحياة. والشهادة فى سبيل الله فوز عظيم وإنى لفاتله بإذن الله.



قال الشيخ المثلثم. أعذر من أندر وغدا لناطره قريب. فقال علم  
ارحل يا لئيم. وما أبقر عليك إلا لأننا قوم نحترم الضيف ولا نؤذي  
من نزل ديارنا.

وفى اليوم التالي تأهب علم للقتال وخرجت سلطنة فى لباس  
حربى من الفضة مزينة بالياقوت الأزرق والزبرجد الأحمر. والتحما  
فى قتال ساعات وساعات دون أن يستريح الفرسان. وصاح علم الله  
أكبر ومجمجمة الأسود وضرب سيفها فصارت عزلاء. ووقعت  
من على ظهر جوادها. وصمت البربر وشهق الرجال يشهدون  
ملكتهم نوثك على الموت بسيف العربي. قال علم. نحن العرب  
لا نأكل الجيفة ولا نستحل محرمة. نقدر الشجعان. خذ سيفى  
يا همام وانهض إلى القتال. ورمى بأحد سيفيه إلى طلاله وعادا  
إلى القتال حتى أدنت الشمس بالمغرب فعاد الفرسان كل إلى  
معسكره والبربر فى تعجب لأخلاق العرب الحميدة.

وفى الليل استيقظ علم فجأة فوجد الشيخ مائلا أمامه.  
فصرخ يسأله. كيف دخل وماذا يريد؟ وألا يخاف الجيء وقد حذره  
بأنه قاتله. قال الشيخ يا بهسى الطلعة.. مولاى بقرتك السلام.  
ويقول بل أنت الهمام ولكن لا بأخذتك الغرور فتسقط فى كلام  
المهالك. اليوم نلت المنى وغدا سوف تنول المنية. فاجنح عن القتال  
وارحل إلى بلادك فى أمان وإلا بحق ألهتنا لن ترحل شمس غد إلا  
وأنت فى عداد المهالك.

صرخ علم وقال: «ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا  
بل أحياء عند ربهم يرزقون». «قل جاء الحق وزهق الباطل». اكتشف  
عن وجهك يا لئيم. ونهض علم يريد أن يصرعه. فامتشق الشيخ  
سيفه ووضع سنانه على عنق علم وهو راقد بالفراش وقال. تبى أن  
ترى وجهي.

- نعم حتى أجعلك تندم على شجاعتك المزعومة فلا تجيء

برسائلك متسللا ولا تعود تتبجح بالكلام. اكتشف عن وجهات حتى أقتلك. رفعت سلطنة اللثام فظهر وجهها كالصدر المضيء. شو الحسن والكمال فشهو علم وقد خطف قلبه. وقال أنا في حلم أم علم. يا ربى من أين هذا الحسن جاء. ورحلت سلطنة وعلم يضرب أخماسا في أسداس. وقد خطفت الملكة قلبه. وتركته يلعن حظه. ومكانها وجد مفتاحاً ضخماً يبرق.

سألت صباح في ذهول وهل ذهبت طلطللة إلى خيمته؟ قال باهتمام مصطنع أن ملكة البربر طلطللة أحببت الفارس العربي علم. هزت رأسها في براءة علامة الفهم. وهي تعدل من جلستها لتتعد بين ذراعيه وقال ونيس. في اليوم الثالث خرجت طلطللة في رداء حري مصنوع من القصب المجدول بالذهب والفضة. وهجم علم هجوما شديدا كأنه السيل المنهمر. وشدت طلطللة عليه حملة شعواء. فكسسى الغبار سطح السماء وصمّت الأسماع قعقة السلاح. فلما انتصف النهار شدت طلطللة عدتها وهجمت بكل قوتها. وضربت ضربتها فأطاحت سيفه الباقي إلى السماء. فهبط لتتلفاه بيساره. وقد أصبح علم أعزل من السلاح. فهتف البربر وهللوا. ووجم العرب واستغفروا. ووقفت طلطللة على جوادها وقالت: يوم لك ويوم عليك. قد أخذت سيفيك فإذا أردتهما ابحت عنهما إن شئت.

صاح علم: ومن تكون؟ فرفعت طلطللة خوذتها الذهبية فكشفت عن حسناء البرية. وبدد الدور البهية فأرخ عقله. ورجف قلبه. وعاد إلى خيمته حزينا وقد فقد سيفيه رهينة طلطللة التي سميت سلطنة. فترك الجيوش وأخذ حصانه الأشهب. والمفتاح الذي تركته في خيمته. وراح ينتظر الصحراء هائما على وجهه. يعيش بين الذئاب والأسود. ويصارع الكواسر والفهود. وقد ترك لحيته ترمو حزنا هائما في البيداء. يسبح عن تلك التي خطفت منه قلبه وبسلاحه. وسار ست ليال قمرية. بلغ به العطش مبلغه. وفي اليوم السابع

كبا جواده وتعثر. فقال له ناعت بي الأيام. وحذلتني الدهر. وفعلت بي  
صروف الزمن أفعالها. ولم يبق لي سواك فشدد من عزمك ولا تهن.  
فصهل الجواد الكريم. فقال علم. مالك يا أشهب لا تتحرك أي شيء  
أصاب سافك. ونزل علم فوجد ساقيه تعثرنا بجذائل شعر حالكه  
السواد غزيرة. لم ير مثلها. ولم يشم طيب مسكها في حياته. قال  
لو كان هذا شعر فتاة فإن حسنها لم يرد على الدنيا من قبل. ولو  
كان شعر جنى فسوف يهلكنا فلننتع مصيرنا حينما يكون. وراح  
يتبع الجذائل حتى وجد ربة عالية. وعلى فمها قصر منيف صعده  
بجواده. بمن النفس بمصيره حين وجد فتاة ساحرة الجمال تطل من  
شرفة قصرها العالية. لم يخطر حسنها على بال. وارتنى درجات  
القصر الرخامية فوجد بابا ضخما كبيرا وعليه قفل كبير ولما أمعن  
النظر وجده مكتوبا عليه. مفتاحه مع قاطعته أمه:

مفتاحه مع لولاف العين.. قفلها صال يا علم.

ضح الأثنان ثريا وونيس بالضحك وضحكت صباح. وقالت أمه  
وهي تبتسم نشهد بالله أنك مخرف. ولا يوجد من يخرف مثل  
تخريفك. وقامت بساخطة وهو يدعوها إلى سماع بقية الحكاية.  
لكنها خرجت مبتعدة. قالت صباح وهي تغفو: منو الفتاه؟  
أجابها: سلطنة. مدت أمها يدها لتأخذها منه. تلامس كفها  
وكفه الخشبية. امتسلا بالارتياح وشبكت الظلمة ذراعيها على  
صدرها رافضة. فعادت ثريا بساعدها لتسدك بكفها على كفه.  
فعلت ذلك لأول مرة باستواء نفسى. ودون تنوءات أمضت روحها  
الساكنة في أعماق الصفيح وأخذت تلتهب ببطء. وشعر ونيس  
بكفها الساكنة فوق كفه. ارتعد للمس البشرية الأثوية. جذب  
كفه برفق من أسفل كفها وعاد يقبض عليه ويضغطه برفق.  
فاهتزت بموجات الرعشة والنشوة. فتحت صباح عينيها تسأله  
بقية الحكاية. فقال وعاشوا معا في سلام وأمان. وأصبح علم رمز  
الشجاعة والحب والعفة. وصار الفتبان والفتيات ينادون من يحبونه

باسمه أما سلطنة فقد تركت للسنان وجها جميلا مورا كالبيدر  
وسألها كوجه من؟ أجابت تسأله كوجه من؟ قال كوجه صباح.

أضرع وجهها وأشسرق. واستطرد. كما تركت لهن شعرا أسود  
جالك مجعد كمسوح البحر. يبلغ الأرض فصارت لهن أحمل جداول  
شعر في العالم. وعاد يسأل الطفلة مثل شعر من؟ سألته في  
صبر: كشعر من؟ أجابها كشعر ثريا. ضغط على كمها الساكن  
في يده ونظرت الطفلة إلى أمها التي شمع وجهها سعيدة. وقالت  
مرددة كشعر ثريا

هيا.. جاء وقت النوم.

\* \* \* \*

في هذه الليلة نامت ثريا تضم ابنتها صباح إلى صدرها  
بستغرقها النعاس دون كوابيس كما لم تنم منذ زمن طويل.  
وطيلة أسبوع تنقل من الغرف إلى التعريشة الخارجية. يعمها  
صدوء داخلي. امتلأت بمتعته. تنظير مجسيء ونيس وقد هيات  
نفسها. واعتنت بلباسها ومظهرها. فبدت جميلة. تفوح منها  
رائحة الخبز الطازج. خلق حوله هي وابنتها فراشات تستغرقهما  
حكايات البادية وأساطير القدامى. وأشهر قصص العشق. أو  
يحكى لها قصص الغربة. والفتيات اللواتي عرفهن هناك. وهي  
خيطه بعينها. ليصبح بقعة مضيئة في عالم مظلم. تود في  
كل لحظة أن ناديه بكنية ملأها بالقداسة «يا علم».

في نهاية الأسبوع جاءها هاتف يدعوها للعودة إلى مدينة  
الحضر. فقد حضر عمر من مصر. أصابها الاضطراب. لقد تذكر  
شينا كان غائبا. واستعادت ثريا أشباحها السوداء.

\* \* \* \*

عندما وقف عمر ليلا من وراء الشرففة الزجاجية لـحجرة مكتبه يشاهد الأسرة التي غادرت لتوها السيارة التي وقفت أمام العيلا. أسرة من هذه التي تأتي لزيارتهم. تملئ بإعجاب من اهتمام الشاب بزوجته. كيف سيقفها فسي النزول ودار نصف دورة ليفتح لها بابها. كيف مد لها يده. لتستند عليها. فمثل أن يحمل الطفلة التي تعلقت به بحميمية طفولة تبحث عن الصدر الدافئ لأبوة مكرسة بالأمان.. أبنته صباح.. لكن هذا ونيس. أما المرأة فهي

لم يفكر فيما يجري أمامه منذ لحظات. فقدوم ونيس الذي ينتظره بشراهة من يرغب أن ينزع شوكة في كعب حذائه. أطاح من ذهنه غرائبية الشهيد. عندما التفوا على العشاء نسي ثريا واستغرق هو في اقناع ونيس بأن يقنع حميدة بتسليم نفسه. فهو على أية حال لن يستطيع أن يختفى إلى الأبد. وكان عدم ضياع العام الدراسي سيفا مصلتا على رقبة كل من يحاول تضخيم المخاوف الناجمة عن التسليم. ورغم أن الجميع بلا استثناء يدركون أن تأمين عمر لحميدة لا يرقى للشك. وحده ونيس السدي كان يتهمه بأنه لا يأخذ الموضوع مأخذ الجد. فعقله مشغول بأعماله عن الخطر الذي يتهدد أخاهم الأصغر. وأضاف إنه لا يشك في مقدرة عمر ونعموذه. لكنه يتمنى عليه التأكد والحذر.

كان الحديث الذي دار بينه وبين صديقه المصري قد قضى على

فكره تسلسل حميدة عبر الحدود واللجوء الى مصر. والبحث عن دعم تقدمه المعارضة المصرية. ورغم أنه لم يكن مقتنعا بالأمر برمته. كان كل محاولاته تركز على أن ينبيه عمر لاتخاذ كافة الاحتياطات من أجل أخيهم الأصغر. ولذلك عرض ونيس الفكرة على أخيهم الأكبر عمر موضحا أن هروب حميدة لمصر أفضل من أن يقضى في السجن ثلاث أو أربع سنوات. وهو يؤكد أن أخاهم متهم بجرمة شخصية بالدرجة الأولى. وذكره بأن الرجل الثاني للثورة أفتحم الجامعة شاهرا مسدسه مجرد أن طلبته اختاروا عبر انتخابات اتحاد الطلاب على غير هوى القائد. وخرج وخلفه عشرات الجنث من الطلاب الوطنيين. فما بالك من حرق قدس الأقداس. أنا نبيه فيك قدام بانك والعجانر. خوك حميدة حرق «مبنى اتحاد اشتراكي الحضر».

لكن عمر سخر من هذه الأفكار. وسأله إذا ما كان أخوه يبى يصير جيفارا. ساخرا من فكرة هربه عبر الصحراء. وعندما أشار الى أنه مأكد من أنه سيذوب مثل قطعة من الآيس كرم خلال ساعة أو ساعتين تحت فيظ الصحراء. ضحك وقام باستخفاف. لم يناقش شينا. كل ما قاله إن على هذا التيس الرامل أن يحضر حتى ينتهى من مشاكله. قبل عودته إلى القاهرة الأسبوع القادم. وحذر مهيدا أنه لو حاول عبور الحدود كيف السلكاوية سيقوم بنمسه بالقبض عليه في القاهرة. واستعادته من قفاه وتسليمه بيديه لسلطات البلاد. وأضاف كى يريح الأب وزوجة أبيه التى لم تتوقف عن البكاء «إن كان على الميسى الذى احترق سيرسسل على جمعة والمهندس زياد بيث يعيدوه كيف الأول وزيادة. وأنه سيؤثنه أحسن من الأول. حتى ولو حرق مليون دينار بيث عيون الزب حميدة. بس بجي. وأضاف وانا مصالح ثقيلة واجد لا تسمح بعث الأطفال. وما فى نقاش. واضح. كررها عدة مرات حتى يرددها ونيس خلفه. واضح..

\* \* \* \*

شاهدت ثريا بسففسها كيف ينتصر زوجها على الجميع. وطوال أسبوع كامل لم تلتق بعمر سوى مرة عابرة. كان منشغلا عنهما بضيوف يضعون سياراتهم بعيدا عن الفيلا، أو يأتون بها مطلقاً الأثوار. يبدون على درجة عالية من الأهمية والخطورة. ضباط في ملابس عسكرية أحمرها تحت معاطف مدنية. يظنون حتى الفجر. ويرحل خلفهم في رحلات طويلة ولا يعود إلا في اليوم التالي. ليستقبل آخرين. تتابعهم من وراء زجاج نافذتها. يعبرون حمام السباحة. تنعكس ظلالهم على صفحة مياهه الرائقة. هذه المرة جلست عارية لا بسترتها سوى قطعتين من مابوه بكيس اشترته لتوها من صديقة قادمة من روما. وعندما أغمضت عينيها كانت تشعر بلمس الماء البارد يلامس بشرتها الحليبية. يغزو أعماقها. وعشرات العيون من ضيوف زوجها يتلمسون عريها بعيونهم النهمه. يتابعونها من وراء النوافذ حتى حل ظلام دامس.

في نهاية الأسبوع علمت من كنتها أنه سافر إلى أثينا أو لندن لا تعرف. استقبلت الخبر بلا مبالاة أو فرح أو ارتياح. وكان كابوساً أنزاح عن كاملها. وتمت ألا يعود. حتى لو بقيت علاقتهما معلقة على سقف وثيقة زواج. بعد أسبوع طلب الشيخ حفيدته. فرحلت عائدة هي وابنتها صباح وهي في شوق إلى القبة.

\* \* \* \*

أريد أن أراها.. هكذا حزم ونيس أمره بعد دوامات من الهلاوس.  
تخبط فيها بين الحساب العسير واللوم.. يطرق صخور الساحل  
المهجور بقدمه متابعاً زيد البحر القادم من الأفق. تنشكّل على  
سطحه أمواج عاتية. ترتطم بالصخور يرتفع الرذاذ عالياً ثم  
يسقط محطماً إلى شظايا صغيرة. مستقبله الذي يتمكنك  
موشكا على الانهيار.. هل هي النهاية؟

أجابته فاطمة زوجة صديقه الدكتور رفعت: كيف؟ قال.  
لا أعرف. طلب رفعت من زوجته رجاء أن تحاول. وقال ونيس إنها  
تستطيع أن تتصل بخالتها بواسطة الهاتف.. كانت منزعجة.  
تساءلت إذا كانت ستقبل؟ سد زوجها عليها الطريق. وقال سواء  
تقبل أو لا تقبل فلن تنطبق السماء على الأرض. ساد الصمت وبدأت  
المرأة الشابة مضطربة. لكن ضعفت أمام رجاء ونيس وهو يسألها  
«بيي تساعديني». هزت رأسها والصمت يرم عليهم. استترد  
معتذراً أنا نعرف صرت سخيلاً ثقيلاً عليكم. بيي تسامحوني..

\* \* \* \*



بعد عشرة أيام حضرت سلمى مع خالتها التي قُلت عائدة وهي توصي فاطمة ترجوها ألا تتأخر. جلست في وجوم شاحبة كسيفه البال. وقد لبس شعرها عن حبينها. يكشف جبهة مضينة كيدر في ليل اكتماله. وجمالها الفطري سبلة قمع ذهبية.

حكمت مواجهتها. قالت بقلق إن إخوانها يشاهدونه مرات كثيرة في اليوم الواحد. يدور حول الجوش. يثورون وأمسى خدق بي وفي عيبيها اتهام.

سألتها: وأنت؟ قالت. أنا أنا نشعر به حولي قريب مني. لا أعود أعرف إن كان علي أن أشعر بالسعادة أم التعاسة. حتى توطن بي غم علي غم وبأس علي بأس.

تظنيه يكف لو طليت منه.

وشنو يفيد لو استمر أنا وهو نتعذب

اطلبي منه الآن بنفسك؟

رددت في عجلة ما بقدر ما بقدر أن أفعل.

سألتها ومتى سيتم الزواج. هبطت برأسها إلى الأرض وقالت بعد أسبوعين. قالت فاطمة. لا سبيل إلى شئ.

- لا سبيل إلى شئ. قالت سالمين بعد فترة من صمت. وأضافت هل تفعلون ببياتكم كيف مكس في مصر. قالت فاطمة كثيرا: عموما ترتهن الأمور بالفتاة. لو عزمت علي الرفض فلا تستطيع قوة أن تمنعها.

رفعت سلمى رأسها في حقد وفي نظراتها موج أمواج الكراهية. وقالت إنها لا تستطيع. وأجابت فاطمة في إشفاق إنها تعلم. فاستراحت وألقت برأسها إلى كتف الكرسي الضخم خدق في السقف مغمصة العينين.

ما لبثت أن سألتها إذا ما كان الدكتور رفعت يؤمن بوجود الله. فأجابت نعم. تساءلت وهي تختنق ولكن من الذي يستطيع أن يبرع ظلما كهذا؟ احتارت فاطمة كيف يجيبها فصمتت ولم تجب.

داهمتها بالسؤال. تظني أنا غلطانة...

- ونيس هو الجروح. عاجز عن تقدير موقفك.

- ك..... كنت..... تريد نتزوج كـ..... كنت أريد نكون سعيدة..

منو ببي التعاسة.. منو ببي الشفاء.. منو يحضر لنفسه قبراً.

قاطعتها فاطمة وهي خدق بها وقالت في تساؤل إذا ما كانت تظن أنه (تقصد الله) سلبها سعادتها. نزع عنها هئاءها وألبسها ثوب الشفاء. أطرقت سلمى برأسها إلى الأرض حائرة ثم قالت حظ. نصيب بانس لو لم يكن لها أولاد أعمام لو لم يتقدم لها أحدهم.

قالت فاطمة عليها ألا تلوم أحداً. فمن ذا الذي يمكن أن يتجاهل الزواج بمنلها. وأضافت وهي تؤكد على مخارج الألفاظ «القدر». فهزت رأسها في استسلام. وكأنها وجدت حلاً. قالت وما هو القدر. أليس هو المكتوب. أي أنها مشيئة الله. استطردهت فاطمة. وهل أخطأت في حقه حتى يعاقبك؟

فهمت سلمى رأسها نضياً. أضافت فاطمة بالطبع لم تفعل على الأشياء التي تستوجب قصاصاً كهذا. أبدت موافقتها. عادت تسألها إذن تظنين أنه على هذا القدر من الظلم؟

انزاحت برأسها إلى الخلف مندهشة. ونظرت لها بحذر في شك وريبة وبنفاذ عميق. سألتها وقد ضاقت عينها عما تقصده: أنا ما يهمني أن يؤمن رفعت بوجوده أو لا.. أنا شخصياً أؤمن بوجوده وبالمقابل أعتنق المبادئ الإنسانية الأخلاقية التي تعبر عنه.. الخير.. الرحمة.. الحب.. الصدق.. الوفاء.. العدل العدل العدل وأظن أن المسألة الأولى لا تعني شيئاً. هزت سلمى كتفيها علامة على عدم الفهم. استطردهت فاطمة إن عليها أن تتحمل مسؤوليتها تجاه مصيرها. فلو كانت على يقين بوجوده. قاطعتها بحماس: نعم على يقين.

فعليك ألا تظنيه ظالماً. هزت رأسها.

باهى دافعى عن مصيرك. صاحت الفتاة غير مدركة للشكرك

الدى تجذبها بحوه المرأة الشابية: كيف؟ أجابتهما بحسبم. تزوجى ويسس.  
وكأن قطاراً صدمهما.. همست تدافع عن نفسها.. براءتها..  
صدق كينوتتها.. صدق عجزها.. قالت كيف.. ما فى شيخ واحد  
يستطيع عقد قرانهما بكُل. ما فى حجر صغير يختفيان خته.  
ما فى عم ولا خال تختمى بكنفه. ما فى أخ يدافع عن وجودها.  
حقوقها. رغبتها فى الحياة. جميعهم يرون أن الشيء الصائب  
والطبيعى الوحيد أن تتزوج رجلاً يحمل فى عروقه دم القبيلة.. أى  
رجل وكل ما عدا ذلك ليس مجرد خطأ اجتماعى. تخلف حضارى.  
وإنما هو غير موجود فى عرف البوادي.

عدلت من جلسستها واستقامت بقامتتها تهتف فى ضيق  
بالغ إذا ما كانت تظنها قادرة على ترك أهلها واستئجار شقة  
بحى الساحل مثلاً. المدينة كلها ستنتعنها بالجنون. سيرجمونها  
بالحجارة وفى قلوبهم رغبة السحل.

• مشر ح تكونى وحدك. قالت وهى تشعر بضيق من الحصار الذى  
يحيق بها سوف يبنذوننا يطاردون أبنائى بالطرقات ليقولوا لهم  
أمكم هربت من بيت أبوها لتتزوج ولما لم تجد لدى فاطمة اقتناعاً  
كافياً. قالت فى توسل تظنون أنه فى مقدورى شيء وأتقاعدس..  
نسيتم إخوتى الصغار. كيف سيواجهون أصدقاءهم وجيرانهم  
وكيف تستطيع الفتيات الزواج لو لوئت شرف أبى؟

رددت فاطمة فى قسوة أى شرف تلوته. إنها ستتزوج فقط.  
وإخوتها سيعانون ما تعانيه هى الآن لو استسلمت. سوف يخسرون  
حياتهم كما خسرتها.

صاحت سلمى أنا.. أنا.. بق جرس الباب فتوقفت. وعاد لوجهها  
شحوبه. وصوت الباب الخارجى يفتح. وقفت متهاالكة متهدلة  
الأعصاب. وسافاها ترتعدان. تقبض على مسند المقعد وتركه لتمسك  
بساعدتها المستند على المنضدة. خدق بباب الغرفة فى هلع.

دخل رفعت فحياها وتبعه ونيس بقامته الجديدة. استقبلته  
بعيون من الفراغ الحزين. عيون خالية من الشوق. ومدت كفيها له.  
هاله أن تصافحه دون حرارة. وجلست مطرقة دون أن تقدر على  
مواجهة عينيه تنتظر محاكمتها في استسلام بالغ. يكللها  
شعور بكونها أئمة خائفة. لقد بدأت معركتها الأخيرة قبل الموت  
المحنوم خاسرة. ران صمت ثقيل. نخيم روح عدائية. نظر إلى سقف  
الغرفة وخرج صوته جافا يسألها: متى يتم الزواج؟ فأجابت مدانة  
بصوت لا يسمع: «بعد أسبوعين».

حدق بنظرة نفاذة يلقي نحوها بسهمه. ويسألها إن كانت  
قبلت؟ أجابت دون أن ترفع رأسها إنها لم تسأل في شيء حتى  
تقبل أو ترفض. أظرق برأسه إلى الأرض وقام رفعت وزوجته خارجا.  
فلحق بهما همسا برجوهما البقاء.

سألها رفعت مندهشا وونيس يتابعهما عن السبب. قالت إنها  
جاءت كأخته فلا تتركني. نظر إلى ونيس محاصرا فسأله ونيس أن  
يستجيب لرغبتها. قال بلطف إنه سيحضر الشاي ويعود. بان على  
وجهها الألم بزوجا بامتعاظ. وجاءه صوت ونيس وقد فهم مقصدها:  
ابق لا تذهب فقال: باهى.. باهى.. ليه التوتر لحظة وأعود.

صارا منفردين. لهما تختلس النظر إليه. فقام يعيد تماسكه  
ويرتب ذهنه. جلس بجانبها وهي خافضة الرأس لا ترفع عينيها  
نحوه. وجلس رفعت في ركن قصي يعيث بمجلد جراحات القلب.

ناداها باسمها فأجابته: نعم. اضطرب جسده وعاودته  
الشجاعة. قال إنه يستطيع أن يتحدث إليها لأسبوع كامل. أو  
يكتب كتاباً يوضح فيه لها أو لأي إنسان آخر حاجته الماسة الضرورية  
إليها. ابتسمت. وفي عينيها فلق. وأبتسم رفعت. واستعدت  
حدقتا عينيه إثر اتهما. وغمرته الراحة. عدد على أصابعه: أنت  
متعلمة وجميلة. تخليين لب أي إنسان بكمالك وروعة نفسك.

وهذونك الشبوع بالعمق. وذكأؤك يكفى أعظم شاب كى يزهبك فى أى مجتمع. ما يزيد خسارتى فىك أننى على تمام الیقین من أن العهد لىك مقدس وأنا أرىء عهءك.. صمت فترة ولم يطرف لها جفن. استطرء قائلأ نستطیع الزواج.. وأعاد العبارة فى صوت باتر.. نستطیع الزواج ونضع الكل أمام الأمر الواقع.. انظرى.

احضر حقیبته السمسونایة. وأخرج مجموعة الأوراق المرتبة. وقال ما هى أوراق الالتحاق بجامعة میونخ. سأراسلهم كى تستكملى دراستك.

حاولت أن نتحدث فقاطعها قائلأ لا تتخذى قرارا توا. مو هكى دكتور رفعت؟ استءار یطلب تأییده فكرى... فكرى واجء. ثم أشار بكفه قائلأ. انظرى.. وعاء إلى حقیبته وهو یقول: ما فى مشاكل مادیة. وعبث فى الأوراق ثم أخرج منها دفترأ بنكیا. یرىها إیاه: انظرى هذا هو رصیءى بالبنك ثلاثة وثلاثون ألف ءولار. وبقءر أوفر من باتى مثلهم.

واستطرء وفى صوته رنة الارتباح مؤكءا سننعیش فى أوروبا. الملاهى والنواى اللیلیة. نستطیع التزلج على الجلیء شتاء. أوعءك نسافر باریس وفینا ولنءن أسالىء الدكتور رفعت. مو هكى؟ وأءار إلیه رأسه. رآه یءق فى سالمین ممتع الوجه. وونیس یستترف نفسه فى لءاجة وءون فائءة. أعاء ونیس سؤالیه. أءاب ءون أن یءرى نعم.. نعم. عاء إلیها مستطرءا وعنءما نعود بعء خمس سنوات ومعنا أطفالنا. ینظر الناس إلیك بءهشة واحترام. أسرتك تكون تقبلت بالأمر الواقع الأمر الرائع الواقع بانك یستقبلك ناءما معءءرا عن خطئه فى حقنا. وسیقول لك اعءزینى أنا كنت مخطئا وأنت یا بنیتى كنت على حق. صمت لفترة ثم سألها إذا كان ابن عمها یعرف بعلاقتهما؟ سألها أن تخبره. قالت: یعلم.

بعلم أنك خمینئى. أخبریه أنى أحبك. خلى خالتك تخبره.. فكى الحقیقة. أنا نفسى باتكلم معه.. لن یرضى بكون زوج فتاة. فب غیره.. ح تقولى له. مو هكى. كان جوابها الصمت فعاء سؤالیه.

وجاء صوتها بعيداً منكسراً مهزوما يرح تحت جبال الأسي  
والظلم. همست: إنه يعلم.

تغضن وجهه متسانلاً: يعلم شنو.. علاقتنا!! هزت رأسها  
بالإيجاب.

صرخ مندهشاً: منو قال له؟

خالتي.. أرسلت له خالتي.

- وشنو ببى بعد كل هكى؟! سقط على المقعد منهاراً يفتك به  
الغضب. وهو يكتشف الظلام الكثيف الذى اكتنفها. والمصير الذى  
ينتظرها. ردد فى خوف وفرع: وين يذهبون بك.. لا تقبلى بهذا الظلام.  
اهرسى من هذا المصير. واعتدل يقول بجديبة. وقد حلت على وجهه  
الصرامة: نذهب وتتزوج قدام القاضى بالحكمة.. هذا بحق لنا قانونا..  
- لم أبلغ سن الرشيد.

سن الرشيد قاومى توا وما تقبلى اطلبى منهم ينتظرون  
بيش تنتهى من الجامعة..

عاد صوتها يأتيه من قاع قبو مظلّم: سوف تجد الفتاة التى  
تسعدك.

شعت عيناه بالذعر. حدثته نفسه بأنها تستهتر بمشاعره.  
تخذه. أجاب بغضب والتوتر يحل على رفعت لرأى وجه سالمين  
يتجلد فى قسوة: صار هكى سأجد الفتاة التى تسعدني. بيش  
وجدت الرجل الذى يصنع لك قفصا من الذهب. وعلى أنا أن أرحل..  
أقفر من الناقذة. لكنك تعلمى أننى أيضا لن أستطيع.. وتعلمى  
أننى لن أجد هاذى الفتاة اللى سوف تسعدنى لن أجدها بكل.  
قالت إن من حقه أن يهينها كما يريد. ولكن عليه أن يتذكر  
الحقيقة التى سيكتشفها بعد شهر أو عام. سيمر الزمن  
وستلتئم جراحه. وسيجد البنت التى ستسعده. كل فتاة تمنى  
أن يكون زوجها لها.. أما هى ستموت موتاً بطيئاً والسلوى الوحيدة  
هى ذكرياتها معه.

استطردت أبقي عليها الله يحليك. أبقي لي عليها.. سافر أوروبا. كمل دراستك وخود دكتوراه. ح تلاقى سلواك.. أنا فين أجد سلواي؟ خلف خصاص نافذة. أو من ثوب باب مسكر بقفل.

اهناج يمزق أوراق السفر مو نبي نساfer من غيرك.. بدى أفكرك. هكى قلت.

«نرجاهم أتناشر عشر عام بحساب يوم في شان الوفا»  
امتقع لونها، قبضت على مسند الفوتيه. ونظرت إليه في حمد طاغ ولكنه تابع حديثه صارخا، مو هكى ولا توا نسيت.  
جاءه صوتها هادئاً قويا وقالت: ما نسيت. وأنا توا أفعل. حدق بوجهها ومال برأسه نحوها وقال. كيف؟ تقضى حياتك في فبر.. تقدمى جسدك كل ليلة لرجل تكرهينه.

ازداد وجهها صلابة حتى صار قطعة من رخام. وراحت تزم بشفتيها وهو يواصل حديثه قائلاً: شنو نظني نفسك ضحية عيد الأضحى لأجل من؟.. العيلة.. العشيرة.. القبيلة.. الله ما يقبل.  
- وشنو يقبل الله.. انزاحت بجسدها منتصبة الرأس واستطردت مو هادى شريعته.

- بالطبع لا.. هذه شرائع بشر مجتبع قديم. واستدار لرفعت المندهن وقال في قسوة: شنو فعلت زوجتك. عاد إليها يسألها ساخرا إذا ما كانت تنوي أن تفقد إيمانها. ردت عليه في إباء جريح: شنو ما جنت أهنا بيش تعظني.

أصابته الضربة فأسكنته وأحسست به مهزوما. فأصابها القم وقالت نواسيه إن كليهما يصطدمان بجدار صلب يستحيل اختراقه.

سرت في جسده نبرة الحنان الأولى كالطغيان. واستطردت لا تطرق رأسك به.. فعلنا ما بوسعنا.. ودع لي الطريق الذي اختير لي دون أن أريده. وستمر الأيام. وفي كل يوم يمر وأفقده من عمري وكان

من الممكن أن أكون فيه سعيدة.

بلغ اهتياجه مداه. وظهر الانزعاج على وجوههم. شعرت  
سالمين به يتمرق وهو يصرخ «أنا مو لص بيشر يرفضنى بانك. كنت  
تبيك وأنت تبينى. بأى حق وأى شرع».

نظرت إليه وآلامه تمزقها. والتفت عيناها فهدأ. ووضع كفه على  
جبينه. يكبح داخله صراعا عنيفا. وأحس بالجميع ينظر إليه. أحنى  
رأسه لأسفل هربا من عينيها اللتين حملتا نهري من الأسى والعتاب.  
- شنو أسوى.. أسف.. سامحيني.. ما عدت قادرا على التمييز..  
لشنو أصرخ.. ترى أنا فقدت اتزانى.. حل الصمت وهم ينظرون  
نحوه وهو مغمض العينين ملقيا برأسه إلى الخلف. يقول «كنت  
أنظر للحياة باستهزاء وثقة. حتى الموت لم أكن أخافه. لا أحس  
جوعا لشيء وليس لى رغبة فى الاعتداء على الآخرين. رفع رأسه..  
هذه القيم الساذجة.. الصدق والاحترام. الاعتداد بالذات. الوضوح  
والصراحة. قال ساخرا.. مثاليات.. رومانسيات مبتذلة.. لم يتبق  
سوى إعلان الجمهورية السعيدة المنعزلة عن بشر حقراء. لكنى..  
هه.. كنت أبله.. بتعرفنى؟ أصابعى.. ومد إليها أصابعه.. ترينها؟ لم  
أعد أستطيع السيطرة عليها.. تتحرك بشكل لا إرادى. فكى ينقبض  
على ضرورى يسحقها. نظر إلى الأرض.. عندما أتذكرك وأستعيدك  
معاى وأستعيد عهدك أقول هى صلبة عنيدة. ثم أجدك وحيدة فى  
غابة. ترتفع برأسى أمواج هادرة. ويصيبنى صداد قاتل.

أجهشت بالبكاء. كانت تبكى بمرارة من فقدت إلى الأبد أعز  
الناس. كانت ترى طفلها يسحقه قطار وهى عاجزة عن فعل شيء.  
نظر نحوها كمن ينظر الفراغ وقال: لا تبكى.. لا تبكى. فجاهدت  
أن تمنع نفسها. قال يواسيها: لشنو أنت جميلة هكى.. الثوب هادا  
بسيط يخليك فاتنة. لا أنت اللى تخليه جميل.. تصفيقة شعرك..  
بارى نوا أنت جميلة واجد. لشنو تشعيرنى بخسارتي. خسارتي



توا مضاعفة عشرات مرات.

همست بصوت يختنق بالبكاء؛ هادى المرة الأخيرة.. قال بود: من شأنى فعلت هكى. أجابته وهى تجهش بالبكاء: نعم ولكنها المرة الأخيرة. رفع رأسه وردد: هى النهاية. لم تنبس بكلمة. ونظرت إليه ملتاعة.

- أعطنى يدك. مد كفه بمسك بأناملها وهى تقبض بكفها الأخرى بشدة على مسند المقعد. قبلها وحط بشفتيه على راحتها يلثمها. ارتجفت وانسالت الدموع. قاومت نفسها أن تمد يدها تحتضن رأسه وتنهار.

قام. مرر كفه على رأسها.. وجهها.. عنقها.. صفقة ظهرها.. وهى تكاد يغشى عليها. وأستدار راحلا. تابعته يختفى من الباب متهدل الكتفين..

ها قد جاءت النهاية.. فراغ بالباب وبقايا شبح فارغ. لما اختفى إلى الأبد. وكأن قلبها اقتلع بشفرة سكين. انهارت فى المقعد خدق الفراغ الذى كان يحوى عما قليل قامته الفارغة.

صامتين .. ساعة لا ترم. ورفعت وزوجته يجلسان عندما رحلت تلملم أشلاءها المبعثرة. وختل على وجهها معالم القسوة والسكوت كى تعتمر حياتها فى جبل الثلج القادم حيث الوحدة والصفيع والانتهاك المتواصل.

\* \* \* \*

قضى اللقاء الأخير بين سلمى وونيس على كل الأوهام. الزواج واقع لا محالة. سقطت روحه من جراح تشيئه بها يراها نوعاً نادراً. لأيام بقى وحيدا. يتقلب على أشواك من الأفكار المدنسة. عاد إلى القبة. أظهرت المرأة البدوية بشاشتها بعودته. وأسرع تغتسل وتستبدل ملابسها وتلقى بخصلة شعر على مفرق الجبين. تلبى

طلباته عن طيب خاطر. تعد له طعام الغداء والشاي والقهوة. وتقدم له عصائر الفواكه الثلجة. ولم تكنف ففعلت ما لم تفعله لزوجها. وأمام الجميع أنتفت ثمرة من أطيب ثمرات تفاح ووضعتها أمامه. على بشرتها لاحظ قطرات الماء تلمع كالؤلؤ.

كانت تقول حدنى. ماذا ننتظر؟ وهو يشعر بأنه مهاجم بفعل سبيل من ومض ينشق عن لحظها ينزل به ضربات صاعقة. فلما لا يتناولها. وكانت تنتظر أن يفعل. راحت نقشرها. وأصرت أن يأكلها. وعندما خرج مع قدوم العصر جلست أمام المرأة. وراحت تتزين وأسدت شعرها الأسود المجد إلى الخلف شلالات هادرة. يمتد على طول كتفها حتى الأرداف. وارتدت ثوباً أبيض موشى بالقصب. وراحت تقلم أظافرها وتعطيها لون خدودها الحمراء. وبقيت تنتظر عودته وقد انتابها الضيق لتأخره وعندما أوغل الليل لت شعرها مستاءة. ونضت ملابسها توبب ابنتها وتقول مسكينة جاء اللي حبيبه ومشغولة بيه ورحل. ولم يكلف خاطره أن يبقى معك شوي.. هيا ننام. قالت الطفلة حكى لى حكاية.

توسدت أمها حكى لها قصصاً متقطعة. وحكايات لا رابط بينها. حتى إنها قالت عبر مقتنعة بحكايات أمها إنها قررت النوم.

بعد منتصف الليل سمعت طرقةً على الباب استيقظت مسرعة وتوجهت إلى الباب الخارجى على عجل لا ترتدى سوى ثوب نومها الأبيض العارى. الفصير المصنوع من الدانتيل. فوق سرورال طويل داخلى ذى ألوان من زهور زاهية. كانت تعلم أنه ونيس. دخل دون أن يحدث صوتا وسألته فى الساحة الداخلية للتعريشة. بصوت منخفض إذا كان تناول عشاءه. أجاب يكفيه فنجان القهوة. وجلس على مقعد بالصالة. أسرعرت إلى غرفتها تغطى جسدها بروب ثم دخلت إلى المطبخ تعد القهوة. جاءت بها ووضعتها على المنضدة. همت بالذهاب لكنه دعاها أن تنتظر. وسألها أين تذهب؟

أشارت إلى حجرتها «سأنام». سألتها أن تبقى قليلا، فجلست وهي تقول إن الوقت متأخر. وإذا ما كان يريد شيئا آخر؟

رشف القهوة وعيناه خلجان في اللا مسكان. جذب يدها وهم واقفا يطلب أن تأتي معه. أجه إلى الكرمة الخارجية. سارت خلفه طائفة وهي تهمس نسأله وين تاخذنى ونيسر؟ اكتفى فقط بقوله ما فى شىءى. تعالى.

سارت صامتة تفيض بإحساس ينبئها أنها على وشك اكتشاف أشياء جديدة غريبة مدهشة. لملت شعرها وسوت من الروب. عبرا الحديقة إلى غرفة الضيوف الخارجية كانت مغلقة. فدلغ للعريشة الجانبية. واستدار حول شجرة شجرة السرو العملاقة وثبت جسدها الفارع على جذعها. وضغط بجسده على جسدها يقبل شفيتها المزمومتين. وقفت مغمضة العينين لا تقاوم ولا تستجيب أيضا. حاول أن يخلع عنها الروب. قاومته ولم تمكنه. توقف ولكنها بقيت تنتظر أن يعيد الكرة. فعاد يفك أزراره ويخلعه عنها فى عنف. وجذبها إلى الأرض المضمخة بعناقيد الكروم التى جمعت لتوها. فجلست تحرق به فى انفعال. ينصو عن نفسه ملابس العلوية. نظرت إلى صدره العارى فى بلاهة. وعقلها يتساءل أليس الفراش نهاية الحب.. تناقض

عاد يجلس بجانبها وشرع يقبلها بفضاظة. اعتدلت فى جلستها تنابعه وهو يقبض بكفه على نهدها بعصره. عادت تزم شفيتها بقوة وهي تنفر بفمها عن فمه يمينا ويسارا. فيهرب إلى وجهها. فتتركه ووخز خفيف يتصاعد من نهدتها. يتصليان من الأكم إزاء خشونة قبضته وهي تشكل ما تخلقه نشوة العادة السرية المبتورة..

فكرت أليس الجنس نهاية الحب.. هبط بكفه إلى فخديها يفركهما وفمه يبحث عن فمها ثانية. محاولا أن يطلق شفيتها من عقالها دون جدوى. فقد عادت تزمهما بشدة. كان جسدها يتحول



القوى. وانهممر عليه جبل من الذهبول رفع رأسه وتوقف يحدق مشدوها قال. ثريا فأجابته فى بساطه. نعم

تعالى

جذبها إلى عنافيد الكسروم ومددها بينها فتمددت طائفة. وراحت تنظر إليه كانت تنام عارية الصدر والخصر وقد افتريشت تحتها نهرا من العنب والجذائل الليلة تحيط بوجهها الأبيض وبشترتها الوردية الباعمة كالمرمر بدر مكتمل. وعيناها السوداءوان الواسعنان تنظران إليه بترقب وانتظار. نظر إلى نهدها الصلب يعرك فحديها. كان كل منهما ينشد الآخر فى نفور عصابي. نادها باسمها وسألها أن ترخى جسدها. هزت رأسها نفايا. وقالت متوترة خائفة وقد خيم عليها رعب الفئشل. ما انى قادرة.

كانت التجربة قوية وحادة عليها فقالت وهو يقبض على نهديها عطشانة تريد أن تشرب. سألها اذا كانت تريد الآن. فكررت إنها تبي شوية مبي. فقام يريد إحضاره. لكنها رفضت وأصرت أن تحضره هى.

أزاحته فى رفق وقامت تضم قميصها الممزق على نهد عار وتابعها ساخطا. كان يعلم أنها لن تعود. وخرجت تملأ كوبا من الماء. ورشفت وهى لا تعي إن كانت عطشى أم هو الخوف من نفسها. وبدهشة رأها تعود وتستلقى فى دات المكان. وكان يظنها لن تعود. قالت وبصرها نحو الفراغ. وهو يلف ذراعه حول خصرها يعض أكتافها الرخامية بأسنانه. ونيس حيني؟

نعم

فمدت قدميها وتركته يعاود عراقه على جسدها المزموم. لم تكن تفعل شيئا. دارت بين يديه دورة الأفلاك السماوية وجسدها يسحق حبات العنب فتذوب بشترتها فى خدار يسكره نبيذ الكرمة. وبينما كانت له حلما من كرة صلبة مغلقة يديرها بين يديه كيفما شاء. لكنه عاجز عن النفاذ إلى أعماقه. بلغه الإنهاك ثانية. صاح

غاضبا: ارتخي. ليش تزمين نفسك.

ارتخت ولكيها عاودت الانكماش بعد وهلة قصيرة في عنف. كانت قد انفجرت منذ قليل بين الكروم في شلال هادر من الأورجازم دون أن يدرك ذلك. فلما صاح بها يطلب منها أن ترتخي. قالت وهي لا تعي شيئا: إهدا. إهدا شوي أنا تعبت.. ما اتي قادرة لا أستطيع. زاد حديثها من انفعاله فهتف بعصبية: لما أنت تعبانة هكي ليش تلاعيني. دفعها عنه قائلا هيا غادي ابتعدى. استدار مشغلا وقد حل به السأم.

دهمتها اللوعة وهو يعطيها ظهره والأسى والحزن.. كانت السعادة العابرة طوق لجأة خادع. تركها للأمواج الغاضبة تضرب بها جدار الوحدة الصخري. خيم صمت طويل فلما استدار إليها وجدها مددة باردة مغمضة العينين. وقد حلت بيدها سروالها. فانهال عليها بحيوانية وفضاظة يستقى لذته وحيدا ويتركها لنار الثلج تنهش عظامها. ضمت جفنيها وعضت على نواجذها في حزن غضوب. وقد عبرت مخيلتها صورة وجه زوجها عمر في ملايسه الرسمية السوداء. وبقيت حثه جريحة تنزف كرامتها المهانة. فلما انتهى دفعته عنها. وقامت تلمم أشياءها المبعثرة ورحلت تبكي في حرقه إلى غرفتها. وقد بانث أشعة السحر الأولى

وفى الصباح عاملته في نفور وجفاء بالغ. وكادت وهو يحدثها أن تحيل ما جرى بينهما إلى فضيحة. لكن خيبة أملها تحولت في الأيام التالية إلى لوم لنفسها. وأخذت ترجع فشلها إلى تصرفاتها وعصبيتها ونفورها. وراحت تنظر إلى ثوبها الممزق الملوث بعصارة العنب ومشد صدرها اللدين احتفظت بهما بدهشة تتحول إلى ابتهاج. ثم ما لبثت أن جمعتهما معا وأخفتها في مكان أمين خدق بهما وقتما تشاء. أما ونيس فما إن جاء الصباح حتى رحل وفى نيته ألا يعود وقد شظير وجهه شرخ عميق فى المرآة.

\* \* \* \*



# فصول للموتى





غدا نغتصب سالمين شرعا. الكل سعيد. يعيث به جنل  
طفغولى وسعادة خالصة. إنه الزواج سنة الحياة وسرها. عندما يجرد  
يصبح نكاح رجل وأنثى. وعندما يعاد تركيبه يتحول إلى علاقات  
اجتماعية عريضة ومعقدة ومتشابكة. تبدأ من صلة الرحم إلى  
الوئامق الجهولة بأجهزة السجلات المدنية والشريعة التي تؤثق  
السلالة. وتورث الأسماء والدم والموارث. وعلى الأطراف جتمع  
كل النقائص. من الصدق إلى النفاق. ومن الحب إلى الكراهية.  
ومن الوفاء إلى الخيانة. والكل سعيد: أبواها وإخوتها وأعمامها  
وخالاتها وصديقاتها. كل من يرتبط بها بصلة الدم أو الصداقة أو  
الجيرة. منهم من هو سعيد لها أو لزوجها ومنهم من هو سعيد  
لتنك المفكرة الأبدية المتكررة عن الأخاد الشرعى بين الذكر والأنثى.  
والنسل القادم. دوما الزواج والناسل... عالم من الهلع الكل فيه  
سعيد عداها هي: وقفت فى جهود الموتى. شاحبة همدت عيائها  
الجميلتان رعبا من هذا الشيء الذى يأتى ويبدأ كى يفتح جسدها  
فى ثبات الكوايبس. وكلما مر يسوم كلما أفتريت كلابات لا تركها  
إلا وقد نزعنت عنها أذرعها وسيفانها وترحل وقد تركتها بفعل  
عصابى مزرقة قطعاً صغيرة فى بحر من الدم الدبق.

\* \* \* \*

هام في المدينة ساعات طويلة يجوب شوارعها بلا هدف. عابرا  
الطرق الرئيسية نحو البحر. وعاد يخترق الوادي أسفل الجسر  
العام للطريق الرئيسي. وانحرف عند الجسر القديم ملتصقا بحوائط  
المنزل ميمما شطر حوشها. يحاول الاختفاء عن عيون المارة. يظن أن  
جميعهم يعرفون سره. يشعر في نظراتهم ازدياد واحتقار ضعفه.  
أمام محل صديقه صاحب حانوت بغداد جلس صامتا بينما على  
الذي قدم له الشاي يتظاهر بالانهماك في العمل.

سرح ونيس طويلا يتخيل اغتصاب سلمى فأحس بالغثيان.  
فلما اقترب على مه سألته فجأة شنو سوت هادي البنية؟ سألته  
أي بنية يقصد؟ قال اللي تبي الإجهاض.

انعمت ملامح صديقه يسألته اذا كان بنوي القيام بعمليات  
إجهاض. قال بحزن إنه يقبل إذا كن في حاجة.. وأضاف هن  
مسكينات والله.

- طبعاً لكن كنك تقدر تسوي هكي عمليات.  
أجاب في تناقل «سهلة يا راجل». تشاغل على ودار حول نفسه  
في أرجاء الحانوت وفجأة باغته بالسؤال: كم تبي؟  
نظره بامتعاض وقال ما نبي شئيء بـكـل. نبي لترين من عينه  
دمها.

- باهي وأمتي تكون جاهز.  
- غدا  
تسويها هنا أجهز لك الغرفة الداخلية.  
- لا أنا نسوي الجراحة بالمستشفى.  
أجاب بانثسراح: نشهد الله خير فعلت. وقام ونيس لا يدري  
كيف ورط نفسه.

وفي ظهيرة اليوم الثاني وكان قد وجد استحالة عمل العملية  
بالمستشفى. فتح باب شقته عن علي. وبجواره فتاة مذعورة

مختفية في عاءة. لما كشفت عن نفسها سأله شنو هذا؟

اللى اتفنا عليه بالأمس.

لكنها مو هادكاهى الننت.

همس علي: الأخرى انتحرت. نظر مشدوها ونادها: تعالي شنو

أسمك. أجابت في خوف «رم». اسندار بحدته: هادى طفلة أجا، نيس..

ما تخشى شي. وشنو تعملين؟ قالت بوجل: ندرس.. أنا طالبة.

- فى الثانوى؟

لا فى الإعدادى.

عندما شرع بالعمل ارتعشت يديه. ولم يمض وقت قليل حتى

بلغ به الاضطراب مداه. وقف رفعت على باب الغرفة بحدق فى

ونيس مشدوها لا يصدق عينيه. وفجأة تقدم هامسا: توقف..

توقف.. ستقتلها بين يديك... ما الذي تفعله اجننت؟

نظر إليه ونيس بدهشة وسأله. كيف دخلت؟

الباب مفتوح وأنت تصنع لنفسك قبرا.

خلع رفعت بذلته وراح يغسل يديه مسرعا عطهر. وارتدى

قفازاً طبيياً. وأزاح ونيس الذى أوشك على الانهيار. همس ونيس:

وينه علي؟

- طردته وأغلقت الباب هات قطن أراى سمحت لنفسك.

عاوز تقضى على مستقبلك. أجا مهتاجا باهت فيها.. طفلة

هادى.

يخصك إيه؟ تشرع الكيون أمسك فخدبها جيداً.

عندك دم من عينتها مجنون مفكرتش فى سمعتك.. هل

تطمئن إلي هذا الحمار؟ مش ممكن يفشى سرك.. مش ممكن يحضر

لنا الشرطة الآن!

- لن يفعل. سأله عن ما دعاه للتورط إذا ما كان فلوس.. موقف

أخلاقى.. وأضاف. فاكر نفسك ملاك الرحمة حضرتك.. كس غاكرت

عاقل.

- مين هو العاقل.. نتركها تنحدر كيف الأخرى.  
- انبيه.. نسكت شويه لحد ما ننتهي من المصيبة دي على خير.

\* \* \* \*

جاء يوم عرسها. أغلق عليهما الباب برتاج خارجي. تصاعد صوت الدفوف وأغاني الأفراح. والنسوة والأطفال والفتيات يرقصن. ويغنين لها. فى صخب ومرح شديد. يخفى صراخاً يتصاعد من داخل غرفة العرس التى فاحست برائحة الدنس.. وسالمين تصرخ تناديه فى قناع وغيها. نتمنى لو يأتسى ليخطفها من بين يدي مغتصبها. لكن الوقت كان يمضى. وبفعل قوة قاهرة قيدت بأذرع شدت عليها فى عنف. طعنت طعنة ليتها تميتهها. لكنها ستبقى عليها معذبة بانتظار الموت. أو مهياةً للأمراض العصاب والهوس الهستيرى. وانطلقت من أعماق جسدها المشدود صرخة تنعى طفولتها السعيدة. وانفجرت فى بكاء شديد حتى هبطت عليها سحابة ثقيلة من الظلام. وهى تعض نواجذها تشهق فى خفوت. تروض نفسها على اغتصابها اليومى القادم

\* \* \* \*

هام على وجهه بالمدينة يجوب أحياءها القديمة والجديدة متنقلا من حى المنار إلى باب شيحة. ومن السوق إلى باب الشرق. وحى الساحل. كان ينهك جسده ليخفف عن رأسه عبء العواصف والأعاصير التى تتلاطم داخله. هام حول منزلها. سمع ضجيج الأفراح فانتابته قشعريرة الموت. وأحاطت به وحدة قارضة. وفى آخر الليل قفل عاندا إلى شقته متشرنقا بعالم من الوحدة. ولم يخرج إلا نادرا

ومر أسبوعان منذ رحيل ونيس. وأمه وأبوه يتحدثان عنه فى سخط. لم تدر ثريا سببا لغيابه. حتى جاءت عائشة إلى القبة. علموا بزواج سالمين. وأن أخاها المعتكف فى فراشه مريض لا يريد أن

يرى أحداً. ولا يستقبل أحداً. بكت أمه بينما أعلن أبوه سخطه.

مريومان وثريا في القبة دنية حبيسة سجنها غير المرئي يحرسه عشرات الأوصياء. حموها الذي يجلس على باب الحوش مثل حارس قلعة. كنتها التي لم تنوقف عن البكاء منذ جاءت عائشة. أهل القبة الذين يراقبون زوجة أكبر أثرياء الشرق تهذر وحيدة. وهواجسها النفسية. وهذا الغول الخفيف المدعو عمر أقوى شخصيات البوادي والحضر. وأكثرها نفوذا الذي يعيش خارج البلاد. يأتي وقتما يأتي ويرحل وقتما يشاء. غير عابئ بها ولا بحقوقها الزوجية.

ثمة رجل ملقى وحيدا شعرت أنه في حاجة إليها. ربما هي التي في حاجة له. وبقرار مفاجئ؛ مالت على أمه وقالت لها «بترك لك صباح وأنا بروح غرناطة بينش أشوفه. يمكن يكون محتاج شيء. نظرت لها الأم بامتنان. وهي تعلم أن ذهاب ثريا إلى أخي زوجها الاشكابلى بداية لإعلان كارثة عن نفسها. عندما خرجت مالت على أمه وأخبرتها أن صباح نائمة. وأنها أخبرت حماها أنها راحلة إلى الحاضرة الشرقية نعود أختها المريضة.

في الثالثة ظهرا أدارت محرك سيارتها البيان فيو الحمراء طراز 520 وحركت بإجاء طريق الساحل. وعندما بلغت اتخذت اتجاه الشرق. على الطريق الساحلى جاوز عداد السيارة البيان فيو مائتين وعشرين كيلو مترا في الساعة. المنعة أم الغبطة الشعور الطاغى بالبهجة أبهم هو الذى وهبته لها السرعة الفائقة التى تقارب حط الموت. وفى منتصف المسافة التى جاوزت حافة الاندفاع إلى تخوم الخطر تنسمت المعنى الكامن للمسافة اليسيرة بين الموت والحرية.

أسفل إحدى العمارات الضخمة أوقفت سيارتها بجانب الطريق وهبطت منها لتدخل البناية المواجهة. وعندما طرقت الباب فتحت فاطمة. سألتها ثريا وهي مبهوتة: هادى.. هادى شقة

الدكتور ونيس بوزوي.

نعم.. تفضلي.

دخلت تنظر فاطمة باستغراب وحرص، ووقفت جامدة الملامح تخفى اضطرابها، تنتظر منها أن تدلها على مكانه.

على باب حجرته وقفت، وجدته ممدداً على الفراش، أشعث غير حليق، تمتع الوجه، شاحب الملامح، وبجواره الدكتور رفعت، رأها هتف باسمها، فحينته باضطراب، قالت من مكانها: خير ونيس شنو بيك، باتك والعجوز قلقانين عليك، والعجوز تبكى واجد.

- تعالي.. ادخلي بقيت في مكانها مسمرة، وشعر رفعت بالموقف فقال « سنرحل أنا وزوجتي الآن، وأعود لك غدا، عايز حاجة».

- أشكرك بالله ما تنس توقع الأجازة من المدير.

اطمن خليك في حالك واهتم بنفسك.

عبر رفعت الباب فأفسحت له ثريا المسكان دون أن تنظر إليه، وجاءت فاطمة تحمل بقايا الطعام للخسارح، وتعود له بفنجان القهوة، وكوب من عصير الموز المخلوط بالفراولة لها، حيث فاطمة ونيس من الباب، وأحيت ثريا فلم تزد عن أنها حركت شفيتها في صوت غير مسموع، عندما سمعت صوت الباب يعلق تحركت نحوه، وقد ركزت نظراتها عليه، مد لها يده ليجلسها على الفراش قبالة، قالت: شنو بيك ونيس ليش ما جئ وحشتنا واجد؟

أجاب في حزن: تعبان كثير، تعبان، نفسي أرحل لبعيد.. نفسي اختفى في آخر الدنيا.

سألته: لشنو؟ حبيبك تزوجت، أغمض عينيه علامة الموافقة.

- برغبتها، رفع رأسه وأجاب أرغموها، عاد يسكن حزنه.

نادته: ونيس.

- نعم

- باهي وين ما تروح خدني امعاك..

بقيت الكلمات تائهة عاجزة عن النطق. وحل على المكان القلق والحيرة. وفتت أمامه. نابعها بعينه تنصو عنها الجاكيت وتعود. لتندس بجواره فى الفراش. دون أن ترفع رأسها إليه. ومد ذراعه كى تتوسده. لكنها عدلت وضعها. فتحت أزرار قميصها. وجذبتة ليتوسد صدرها. فلما استقر بينهما. ضمته بذراعين حائيتين. وانكأت برأسها على رأسه

كان مجهدا فنام نوماً عميقاً. وبقيت هى مستيقظة تلمح تقلصات وجهه. تحكى كوابيس حياته. فتحاول مثل أم أن تأخذها عنه. ترقبه وتدفع أناملها تفرق شعره الغزير حتى يهدأ وينزاح توتره.

فى العاشرة ليلاً استيقظ. كان عارى الصدر يتوسد صدر زوجة أخيه. قام للحمام وهو يفكر فيما يحدث حوله. سألها إذا ما كانت قد تأخرت على العودة. عارضا استعداده أن يعيدها القبة. أخبرته بنعومة وهى تغطى عريها عن كونها أخبرت الشبايب إنها راحلة إلى الحاضرة الشرقية لزيارة أختها المريضة.

وقف يحدق بها ثم قال وأمتى تروحى أجابته «نوا». وصمتت طويلاً قبل أن تستطرد «إذ بتي؟». دار حول نفسه لا يدرى ما الذى يجرى؟ ولو.. لقد أصبح الآن على يقين من أنها جاءت لتمضى الليل معه. قال بأخذك الحضر الفجر.. صمتت.. وعندما عاد إلى الفراش غط فى النوم سريعاً ولكن كان عارياً عرى آدم.

هى أيضاً فعلت. وقد عزمت امرأة أخرى غيرها أن تصير غانية. وبين يديها. وفى أحضانها جسد يقول لها خذيني.

عمر الحاضر بينهما. لم يغب. وبينما كان ونيس يظن أن الطريق الذى ارتادها معاً منذ عودته من ألمانيا. كان سينتهى إلى هذه اللحظة. عزمت ثريا أن لا تفكر لا فى ماض ولا مستقبل. مكتفية باللحظة التى تنالها الآن وتوا.

فى العاشرة كانت تلمسه بأناملها وتلاعب به وتفر منه. قبل



أن تستعيد نبضاته المتوالية في رتم وجودي بين كفيها وفمها كما  
ينبغي لامرأة أن تفعل.

في الثانية عشرة قام إليها تدفعه الرغبة في الجسد الذي  
ينتظره. لقد بدأ عراقا بين حيوانين يبحث كل منها عن سسر الآخر.  
منافذه مكامن العشق والرغبة، وفي الثالثة صباحا كانت ذئاب  
وأبناء أوى جبل الفتايح تردد وراء ثريا عواءها.

وفي هذا الليلة تألقت البدوية مثل جُمة من جُوم الفلاوات.  
وطوال ليل طويل كانت تنصهر وتصقل بين ذراعيه. تزح بحار  
الاغتراب وتنسج جوعها العاطفي. وعندما رحلت في ظهيرة اليوم  
التالي لم يكن هناك وسط. فيض السعادة والبهجة مكان للندم.

\* \* \* \*

مرشهران على مجيء ثريا الأول لغرناطة. كانت الحياة بالمدينة جري وسط مظاهر الاستنفار العسكري، والفتية والفتيات يسيرون في شوارعها الناعمة بملابس المقاومة الشعبية. وهو يستقبلها على مرات متباعدة خلسة. أنذاك كان يعامل تنوعات نفسيتها برفق وصبر واحتشام أثلج صدرها. وجعل مشاعرها تفتح كأرض بكر تتلقى مواسم البذار المتأخرة. تحت أمطار تشكلت من مشاعر وعواطف غريزة.

عندما سألتها أمه بقلق بعد عودتها من أول ليلة أمضتها بين أحضانها. أين أمضت الليل قالت ببساطته في غرناطة. ولم تجرؤ الأم أن تستكمل استفسارها أي غرناطة؟ غرناطة عائشة أم غرناطة ونيس. وعندما سألها الشيايب عن صحة أبيها ونيتة أن يزوره. نهرته العجوز أن يفعل. وقد ذكرته بحجم العداوة بينه وبين عمر.

ابتسمت ثريا موافقة. سرها الآن بينها وبين أمه. وعلى العكس من ذلك. لقد شعرت أم ونيس بأن العالم ينهار من حولها. فعمر الذي سيعرف ولا شك. لن ينتقم من ثريا قدر انتقامه من ونيس. والكارثة التي حلت بناصر ابن ضرته لم نهمه كثيرا. والآن يحف بابنها معا حد السكنين. الأول تعبت به امرأة أخيه. والثاني هارب في قلب البادية حيث الصحراء مترامية الأطراف لا يعلم عنه أحد شيئا ماذا جرى؟

ومادا يجرى؟ ولماذا الأيام على هذه الشاكلة من القسوة؟

«جاءت القحبة»..

مع الوقت ران على ونيس مشاعر سأم سريع. عكس شعورها المتزايد بتعلقها به. الآن يفاجئها بعبادات أوروبية مبتذلة. يجبرها على أن تجاربه إياها. وأن تقبل مداعباته السافرة. وبدون أن تعي عادت تنكمش على نفسها. غير قادرة على أن تتوقف عن تذوق شعاع الشمس الذي برز في حيانها المظلمة فجأة. رغم طعمه الذي راح يملأها بمرارة العلقم الآن عندما جيئه وتظهر بشقته كان يعاملها بشكل ألي. مستاء من شعورها السوداوي. وهو يهتف في سره «جاءت القحبة»..

وفى الأحاديث الخلفية بغرناطة لبيوت المال ومجالس كبار الضباط شاع سرها دون أن تدري. ففي مدينة صغيرة لا يبقى بها أسرار. ترددها المتكرر في سيارة عمر بوزوي المعروفة بطرازها ولوحتها الخاصة. تقودها سيدة شابة في جمال ثريا. تصفها في الأزقة الجانبية للبناية التي يسكن بها ونيس. كان لابد أن يثير بحض الصدفة التساؤل والاستفسار. لكن الإنشاعات تأكدت عندما أشار أطفال عائشة لسيارة زوجة خالهم.

إنها هي.. غمغمت عائشة.. ماذا تفعل تحت عمارة ونيس.. وعادت بأطفالها إلى منزلها. وطوال الليل كانت السيارة لا تزال في مكانها. اليوم التالي رأت عائشة زوجة أخيها غير الشقيق تغادر في الصباح الباكر منزل أخيها الشقيق شهقت من الرعب..

وجه النقيب مفتاح الشهبى زوج عائشة. حذيرا صارماً لونييس. فلم يبد اهتماما وقال بسأم «هي جئي أنا ما نبي منها شيء». قالوا «وخوك»

تطلع إليهما والدموع تترقرق في عينيه تغيم بالجنة السوداء المدلاة من حبل المشنقة وقال «خلاص ما عادنا خوت».

أخذت السيارة منها لأسباب لم تفهمها وبيعت على الفور. وأصبحت بلا سيارة. ولم يمض أسبوع حتى أعيدت ثريا للحاضرة الشرقية عنوة.

شعوره بالارتياح استعاده مع زم التي كانت جيئه وتمضى الليل معه. كانت ماجنة نهاجمه بانتذال ووقاحة. وتتقبل مداعباته وجيد تكرارها فى سرعة وسهولة ويسر.

تعرف عليها فى آخر أيام الشتاء، والغروب على الطرقات الفارغة بالعممة. وأضواء مصابيح الطريق الشاحبة. من أحد الأزقة سمع صوتاً يناديه. وعندما دقق النظر لاحظ شبح فتاة بين العممة. عاد بسيارته إلى الوراء ليقف أمام الزقاق. اندفع شبحها ووقفت على نافذة السيارة تصيح به «وحدك». ولم تنتظر إجابة. فتحت باب السيارة وقفزت داخلها. وهى تصيح «هيا دكتور.. بالله عليك عجل».

- وبين تبي الذهاب؟

- وبين ما تبغى توال. بس ها المرة نصف ساعة.

مضى بالسيارة إلى الطرقات المظلمة يتجنب وسط المدينة والشوارع والأحياء المزدحمة. سألها عن اسمها. صاحت به مؤنية ما تفكرنى؟

- اعذرنى.

- أنا زم.

سألها فى دهشة «شنو.. أنت..!». تذكر الفتاة التى أجرى لها يوماً ما. وهو فى حالة سكر بين عملية إجهاض. وأنقذه صديقه من كارثة. قالت «نعم هادى هى أنا..»

سألها ابنة من تكون. قالت بدهشة ما تعرف؟ لشنو أنت سويت العملية. ضحك لفرط وقاحتها. لشنو تظنى.. رافة بحالك؟

- ها باهى أنا بنت الزروق عمران قال بدهشة «صاحب الاخاد العربى للمقاولات». مالت برأسها تقول «مو بالضبط.. أنا بنت أخوه»

ما فى فرق. لكن واضح إنك تلعى. نبي تسوى إجهاض ثانى وثالث. قالت بغنج عندما بصير صديقها ستقطع لديه كارنيه. ضحك حتى ترقرت عيناه وهو يعقب كارنيه ومجانا. سألته إذا ما كان متزوجاً، فنفى. وتساءل لماذا السؤال. قالت ما نبي شيء. نزلنى أهنا.

كيف ما نبي. أمسكت بكفه خييه. وهى تغمز له بعينها «تشاو.. نراك مو هكى؟». هز رأسه بالموافقة.

فى إحدى نزواتها سألته وهى ممددة عارية بجواره تدخن الحشيش فى سجائر الدانهل «تزوجني.. فكر شووي.. أنا ريم بنت الزروق عمران نضمن لك أسهما معقولات فى الشركة التى بيبى باتى يكونها مع خوك.. وما تخاف من شى. ما تدفع درهم. هم يبحثون عن مين يكمل العدد القانوني. الأقارب والثقة وإلا اللواء القائد يأثم فيهم. ترى أنت تقدم لهم خدمة.. فكر يا دكتور أنا نعرض عليك عملية مالية مريحة. هم يحتاجون ثلاثين عضواً بيبون مشاركتهم الاسمية مو جديات. وبدون رأسمال. تأخذ أرباحاً كاملة. وأضافى وهى تهجم على جسده وتعتليه بعربها «وتاخذنى كمان على البيعة. شنو رايبك فى هكى صفقات. ضحكت ملتاعة بالهوى والغنج وقالت وهى تلمس له بأصبعها شفتيه» يا دكتور أنا نتكلم جديات».

حدق بالفتاة التى لم تتعد الرابعة عشرة وقال مستاء وهى ممددة فوقه تبحث عن ما تسكنه ما بينها لا جده. كان يشتها كى لا يمكنها من تحقيق رغبتها.. ضحكت بجشع. وأضافى «باهى فكر بدك تدير بيزنس على.. لوناتية يا دكتور». صمت قليلاً ثم قال «هذا يجتن عمر لكن ما انى فى حاجة لهكى». وأمسك ساعدها بخشونة وقال بقحة «تأكدى من تناولك الحبوب. ما تتحملى جراحة إجهاض ثانى.

قالت نثيره بغنج «وشنو يؤكد لك أنسى واخذات حبوب.. ويلي

فتح عينيه بالزجاج «ولشئنا ما تاخذى الجيوب». ضحكته وهى تدير له ظهرها العارى تستعد للنزول من على الفراش وتقول « نبيك تتورط معي.. نروح ليوى ونقوله هكى عريس أنا نيباه. أنا نشيل ابنه فى حشأى. تضطر تتزوج بي. ولو تفكر جديات. وتكون عملى. هاذى تكون مصلحتك وأجد.. واستدارت تقبل أذنه وهى تهمس. حق النبى أنا نتكلم جديات يا دكتور.

جذب ساعدها وهى تضحك. وقال غاضبا «مصلحتى أعرفها أنا ما نتزوج. ما تبغى نجيب أطفال نهائى فى عالم كيف هادا كاهى. لو حملتى أنا ما تدير لسك عمليات ولا تجهض فيك. أنا نخنق فيك أنت حتى إن نطلع فى روك بين يدي هادى.

هزت كتفيها فى لامبالاة وهى تدير رأسها فى رقة كاشفة عن كتف عار «شئنا أسوى مع بنى آدم ذكى كلك مو غبى.. خلى عقلك يستريح شوى» وضحكت فى غنج وهى تقول « كيف ما تبي يس أترك يدي حبيبي».

جذبها بعنف. وأطلقها على الفراش. فانطلقت تضحك. انقض فوقها بثقله يضغط على جسدها الرقيق المدد فى رقة ورقة السيجارة. وهى لا تتوقف عن ضحكها تستفرزه.. عاهرة فى جسد طفلة. تلوت بمنعة. وكأنها تستفى لدتها من الاختناق. وكلما خفف من قبضته عادت لضحكها الصاخب بتحد وشبق يدفعها دفعا لحواف الخطر والإثارة.

وعندما وضع مقدمة إنسانه لم تتوقف عن الضحك. كان غاضبا. ولشدة غضبه أدار ماكينته بقوة وعنف. دون أن تتوقف عن الضحك. وكان ما يجرى لا يخصها. واصل مشواره حتى يأتى بها من عالم اللامبالاة. وقام بها وهى متعلقة برقبتة يبنها بوجوده.

حتى عادت إلى عالم الاستجابة. هذا الذي حدث بعد زمن طويل. ولو لم تبدأ في اللهاث، لتهاوى منهرماً. ألقى بها إلى الفراش من عل. كتم أنفاسها. حتى توقفت عندما سألتها دون أن يدرك لماذا كان سؤاله «تري تريون في كلب؟» هزت رأسها بالإيجاب.

- شنو نوعه؟ لم تتمكن من الاجابة فرفع كفه عن فمها. عندما قالت: دوبرمان.

تراجع مذهولاً.. وقف مندهشاً ينظر لها وهو يفكر في عمق. طرقت بيديه يدعوها للتقدم، فقفزت نحوه. أشار لها بأصابعه أن تجلس على الأرض ففعلت وهي تضحك.. كانت على أربع نهزت مؤخرتها. حمل المياه بكفيه فمالت لتلقها. وإذا كانت قد بلغت نشوتها وقامت ترتدى ملابسها راحلة. وهي تقول له بوقاحة أن يفكر جيداً في عرض البنزين الذي تعرضه عليه. وكان بغوص متجهما في قلب الصدمة. أمسك بها ثانية. وهي ترجوه ضاحكة أن يتركها ترحل. وكان سيفعل لولا أنه سمعها نغمغم خلاص باهي عرفت نشهد الله أنك أقوى منه.. هنا استعادها ثانية. وألقى بها أمامه على الفراش. مستخدماً قفازاً طبياً ومربطاً. وبقسوة متناهية ضاجعها من وراء.

في البداية لم تفهم.. ربما أخطأ طريقه. لكنه لم يكن.. حل بها السكون. وبينما كان يفعل ما لا يريد أن يفعله. كانت دموعها تنهمر بغرارة. وقد توقفت جسدها كلية عن الاستجابة. وعندما انتهت قامت تكي. ورحلت صامتة تمسح دموعها دون أن تنظر نحوه. كانت تظن أنها تسعده. وكان يظن أنها تقهره. وهاهما كلاهما يقهر الآخر.

\* \* \* \*

استدعت ثريا على الفور من البوادي. فجاءت ومعها ابنتها. بلغت الحاضرة الشرقية في العاشرة صباحا. ودخلت الفيلا وهي في حالة من الانشراح النفسي. وأقبلت على العائلة بشوق ومودة لم تعهدها بنفسها من قبل. لكنها استقبلت ببرود جاف. ومع مضي الساعات داخلها يقين بأنها تعامل باهمال. وعلى ملامح الأخت الصغرى صديقة نظرات لا تخفى الاحتقار. فأسرعت تختبئ في كهف العزلة. متشرفة داخل صدفها الصغيرة. صعدت إلى غرفتها. ولما حان ميعاد الغداء. وارتفعت أصوات طرق الأطباق والملاعق بالمائدة. مصحوبا بضجيج الجالسين. حتى حفت الملاعق بقاع الأطباق الفارغة. لاحظت برعب أن أحداً لم يدعها. أصابها الفرع. وغرقت في لجسة من الأفكار السوداء. شرعت تبحث عن غيبوبة تهرب بها من المكان والزمان. وعندما ساد المنزل سكون الظهيرة نزلت وطفلتها إلى المطبخ متسللة كلصمة يدفعها الجوع. متسولة بقايا الطعام وهي تخشى أن يراها أحد.

طوال اليوم كان يدفعها بعيداً عنهم حائط صلد ظهر مؤخراً في وجوههم. في إحدى المرات دفعته صديفة من كتفها بخشونة كى تفسح لها طريقاً. دون أن تسدى اعتذاراً. فلما صعدت إلى غرفتها وساقاها لم تعدا قادرين على حملها. في اليوم الثالث ارتدت ملابسها وهي تختنق وحدثت كبتها بأنها ستخرج في سيارة عمر لساعة وتعود فلم جئها. تابعها الجميع بنظرات جامدة وهي تعبر الصالة الداخلية بصحبة ابنتها إلى الباب الخارجي. في السيارة لم يدر المحرك. أخذتها العصبية وهي تعيد المحاولة. فكرت أن تستنجد بأحد. لكنها لم تفعل. فلما رفعت غطاء المحرك وجدته بدون البطارية. شعرت بمن يراقبها. رفعت رأسها لأعلى. وجدتهم جميعاً بالشرفة يتابعونها في اهتمام. عندما التفت نظراتهم لم يبس أحد بكلمة. وأحدوا بنسحبون إلى الداخل واحد بعد الآخر حتى فرغت منهم الشرفة جميعاً وبقيت وحيدة. عندما



وجدت الشبايب فى الباب يصيح فيها بخشونة وهو يدعوها بيده للدخول «ها ادخلى هيا وبيز تسمى تدهوري». صعدت غرفتها بمتعة اللون. وخلفها ابنتها متعلقة بردائها منطوية على نفسها.

مر أسبوع عاشت بينهم منبوذة محاطة بمشاعر العدا والكراهية. وهم لا يتورعون عن دفعها من طريقهم فى صمت وكراهية. لم تسلم الصغيرة من اضطهادهم.. فكانت تنابها الرغبة فى الثورة عليهم جميعا. ولكن وازعا داخلها كان يطفى روحها الثائرة ويدفعها إلى انتظار عودة زوجها من القاهرة.

لكن ماذا كانت تعنى عودة عمر لها؟. كانت تعنى الرعب..

وفى مساء أحد الأيام صاح عليها الأب أن تجهز حاجياتها. وتستعد للانتقال إلى حجرة حميدة. تساءلت دهشة عن السبب. فلم يجيبها مباشرة بل حدث امرأته بأن تخبرها بأنهم يقومون بعمل إصلاحات بالطابق العلوي. وأشاحت الأم بعينها صامته وهى تعنى أنها تسمعه. الوحيدة التى حملت لها مشاعر الإشفاق فى نظرات عينيها كانت أم ونيس. لكنها كانت تتحاشاها. ولم تسع لحظة لأن تقترب منها. أو تتبادل معها كلمة. كان أى تعاطف معها يعنى موقفا معاديا لكل من الأب وعمر. وكلاهما عات فى عدائه. مدمر فى كراهيته.

وعلى مدى ثلاثة أسابيع أزيلت حوائط الطابق العلوي. فتحت شقة عمر على شقة ناصر التى كانت منزل عرسه الذى تحول إلى مأساة. وعمد بموت العروس. ليتحول الطابق بأكمله إلى شقة واحدة. غرفة نوم واسعة كبهو. وفتحت صالة الاستقبال على غرفة الطعام. ملحق بها بار كبير. وأعيد تشكيل الحوائط على هيئة أقواس دائرية. زخرفت بديكورات من الخشب الماسيف. وتحول الحمام لفاعه بمسبح صغير ملون. ملحق على غرفة النوم الرئيسية. زينت حوائطه بالرايا واللوحات الزيتية. وتعددت ألوان الحجر الواحدة

على النمط الأوروبي الحديث. وعلقت مجموعات من الكريستال التشيكي والنجف الإيطالي. وبعد أن انتهوا بيومين. وقفت شاحنة ضخمة بمقطورة فاختمت النسوة وراء الأبواب. وحث إشراف أحد المهندسين امتلأت الفيلا بالعمال الذين قاموا بنقل قطع الأثاث الثمينة الفاخرة المستوردة رأسا من أعرق محلات الأثاث الإيطالية بروما. لحساب بوزوي. وفي كل غرفة وكل ركن ثمة تحفة حديثة أو فائزة من الصيني الثمين. ولما هتفت ثريا من الإعجاب جاءت إجابة حازمة وسريعة من صديقة بأن هذه الأغراض ليست لها.

حثت بشرة رأسها الرفيعة دارت دوامات من الأفكار السوداء. هي الآن ريشة في مهب رياح الغضب. فرخ حمام في عاصفة من الرعب. عمامة تنتظر انفضاض ثعبان كوبرا. وقبضة عمر بوزوي. ولن تستطيع أن تجد ملجأ لدى أحد. خاصة حوش أبيها الذي يكن لها عداوة وكراهية منذ خذلانها له يوم خدعه عمر خدعته الكبرى.

عندما أتى المساء حولت الهواجس العريضة إلى حدس. والحدس إلى حقيقة غير معلنة. الكل يعرفها ولا يجهر بها. ليس عن خوف منها؛ ولكن لكونها أقل شأنًا من أن يبالي بها أحد. سوف تأتي امرأة جديدة تحتل مكانها. فمن هي؟

في الصباح عرفت غريمتها؛ فناة في الثامنة عشرة. أخت إحدى الشخصيات السياسية الرفيعة التي تتبوأ موقعاً رئيسياً في الحلقة المركزية العليا للثورة. عراب عمر بوزوي منذ صعوده. إذا فقد انتهت ثريا وانتهى عصرها. وبعد أن كانت امرأة على عرش المحاضرة الشرقية صارت خرقه عفتة يمرغ بها في القاذورات.

من يستطيع أن يجعلك تضحكين حتى تبتغي حد التلاشي؟ كنت ثمرة شهية اقتناها عمر حتى تعفنت بين مقتنياته وها هو يلقى بقاياها إلى المجاري العامة.

الصمت والتبسس العقلي والفرش القديم المنهري؛ وطفلتها

لنتى تدوى فى سكون حلفاء الغرفة التى قذفت إليها فى الباحة الخلفية للدار. وكلما ارتفع الضجيج والصراخ وارتطم الأشياء المعدنية بالأرض وطرق أذنيها الأصوات المجهولة المختلطة لأشخاص تصبح بأخرين. بأصوات أمرة وسعادة. مختلطة بأصوات غلق وفتح المزالق الخارجية. والحركة المتصاعدة تنسب عن العرس الجديد. تسحب الحياة من أمامها. تبهت الأصوات وتخف الضجة وتختلط الأصواء الشاحبة بالظلال. وتضيق رحابتها حول أشباح راقصة.

تضع منها سيارتها البيان فيو. وأسفلت المدينة وبحيراتها المرامية وأبنيتها الحديثة الدالة على ما بلغته فى زمن قياسى من النعيم والثراء. تتلاشى حوانيتها المتلألئة بالسلع الأوروبية الحديثة. سوق الظلام المزدهم بالمعشترين من أجناس مختلفة. وثرء السوق الجديدة. وعرفتها السابقة المكدسة بفساتينها وملابسها الداخلية باهظة الثمن وعطورها الباريسية. وتلك الأشياء التى تجعل منها امرأة مستوحشة وحيدة. امرأة مكتفية صلبة تخمش الهواء الذى يحيط بها فيتساقط قشورا هشة. ليحل محلها رعب مهول وخوف مذهل. لقد جعلوها حشرة ضئيلة تنتظر وقع ضربات حدائهم. وابنتها تتابع هذه الأم المتغيرة فى دهشة واستسلام وبراعة.

ضوء من كوة الأمل والوهم أفاقت عليه. أن يخطفه الموت. ولو بفعل قوة غامضة مجهولة. أو حادث عارض: لتحررت من سطوة طغيانه المريع. من كابوس يجثم على أنفاسها.. لهذا ظلت تردد.. لو مات.. لو مات..

صلت لله تدعو موته.. أن تنقلب به سيارته على الطرقات. أن تنفجر طائرته فى الجو.. لو مات ستمنح جسدها اللذة الكاملة. ستستعيد عشرين عاما من الجفاف.. الدهماء والمشوهون والعجزة وحمالو البناء التى تفوح من أجسادهم رائحة النتن. البدو الغلاظ القساة ستمنحهم كل ذرة وكل خلية من جسدها. حقا غير

منقوص من المتعة الجسدية. أخوه الأصغر والأوسط وأبوه لن يفلتوا من سطوة جسدها. ستحطمهم وخطم كل رجل وسيم الملامح. ستذله وتذل جسده... لو مات..

لو مات ستطلق نهديها للريح وتلقى جسدها الرخامى للماء البارد. ستجعل كل حياتها حمامات للسباحة والعرى. ستستعيد طفولتها. سترتدى الملابس البيضاء الطاهرة كملك جميل. وخب بيت الله الحرام وكعبته المقدسة، وتزحف على ركبتيها بين الصفا والروة. لأن الله أنقذها من برائن عائلة بوزوى: الحاج مفتاح وزوجتيه. وعمر والكلب ونيس الذى تدفع ثمن إيمانها به الآن. وحميدة الضائع فى صحراء البادية هربا من المطاردة.. وستجعل من ابنتها أسعد أطفال المدينة..

لو توقفت الحياة بى عند صدر أُمى.. لو أن هذا ليس سوى حلم مزعج لكابوس لا يعاود حضوره، لو أستعيد لحظة اختيار حياتى من جديد. لابتعدت عن هذا المكان الذى يوجد فيه بمائة طابية ولعبت صحراوات البادية. واحات النخيل. وعيون الماء وتبعث الشمس من مشرقها حتى تغيب فى الأصيل.

الصمت والتبسس العقلى والأيام التى تمر، كانت هى الأخرى تخفف العبء العصائى. مستسلمة فى الهروب من ظل اللحظة. إلى شمس التهيزات وهى تنحول حقيقة واقعة.. لكنه الباب يفتح عليها فجأة وهنأ طفلة تنادى «بابا» فتعيد الحياة انسحابها السريع.

جمدت ثريا من الرعب الذى حل بها وأستدارت فى بطء تقاوم جمد أعضائها. فكأنها باب حجرى يقاوم ثقله. سمعته يهتف باسمها بصوت خال من التعبير «ثريا».

كانت تنتظر صفعات وركلات مينة، ولما لم يحدث انبعث الأمل. تعلقت باسمها، الذى نطق به. فأجابته وهى تستدير إلى قامته

استقبلها بوجه منشرح. وعلى شفتيه وفى صوته ابتهاج.  
فتلقت بمشاعر الاطمئنان. ووضعت فى وجهها الخالى من الدم  
ابتسامة اغتصبتها من عشائر الخوف السبعة تتقدمها المسكنة  
والذل والحيرة

كيف حالك ؟

بخير عمر.

- بالله ضعى توقيعك على الأوراق هانى.

ألقي إليها مجموعة من الأوراق ضمنها شيك وأوراق أخرى لفتح  
حساب باسمها فى أحد بنوك إيطاليا. همست: شنو هذا عمر؟

اقرب منها فانزاحت بجذعها إلى الخلف مذعورة. لم يلتفت  
لرد فعلها. وقال تعلمين الثورة تصدر قوانين تأميم وهكى تصدر  
أرصدة فى بنوك والأملاك. لكبار رجال الأعمال. باهى وهم يصادرون  
أرصدة أسرهم. ودفع ابنته إلى الخارج دون أن يأبه ليكانها. انتبهت  
وهو يخرج عدة شيكات حول أرصدها التى تبلغ ثلاثة عشر مليوناً  
وستمائة ألف دينار فى بنوك وطنية مختلفة لحسابه. وقال لا بد من  
سحب هذه المبالغ اليوم. بيش يرحل إيطاليا غداً. ليودعها باسمها  
فى أحد البنوك الإيطالية. حتى يتفادى جُميدهم.

وقلب ظهر كفه. اهتزت وأخفت فى سرعة وجهها بين يديها.  
جأهها. وقال وهو يستدبر إلى الباب فى تأكيد مصطنع « تعرفى..  
أنا توا نخط باسمك مثلهم». هزت رأسها موافقة وهى تخذ  
نفسها هذا ما يريد باهى.. باهى.. يأخذها. يأخذها يأخذ كل  
ما يريد كل ما أعطانى إياه ويتركنى نبقى أنفذ من بين يديه.

كانت ترتعش ويدها غير قادرة على الإمساك بالقلم. كى ترسم  
اسمها وراحت إلى الأوراق تتفحصها بعينين مغرورتين بالدموع.  
بحثت عن الصك بأصابع مرخفة. وهى تخشى على عينيها من

أصابه التي تقترب حد الملامسة.

جسدها المرّجم. ساقاها اللتان لم تعدا قادرتين على حملها..  
ها أنا أنتهي.. ما هي النهاية تقترب.. وأخيرا وجدت الصك صفته  
على عجل.. إلا أن القلم خذلها فوقع على الأرض. انحنى تستعجل  
النهاية وهو يقف أمامها عمودا حجريا ضخما

دون إنذار ضرب مؤخرة رأسها بكفه فانكفأت لتصطدم  
بالطاولة المصنوعة من الزجاج الصلب.. نساءلت وهي تسقط  
بين شظايا الزجاج غير قادرة على الصراخ من الألم. وفمها مفتوح  
على مصراعيه. كيف جمعت كل هذه القوة في قبضته. رغم هذا  
قامت تبحث عن الأوراق لتوقعها دون أن تأبه للدم الغزير المنثال على  
وجهها. جن جنونه استسلامها السريع. وأقترب وفي وجهه وعيد  
الشيطان. غطت وجهها بساعديها من الرعب. كان يلف جدائل  
شعرها على ساعده كحبال سفينة غارقة

انتزعها من الأرض فارتفعت خلف شعرها وفروة رأسها  
مصعوفة من قوة الألم وقد شق نوء المقعد ثوب نومها فبدأ ظهرها  
عاريا. وتهدل نهداها إلى الأمام. فزاد ذلك من ثورته وهياجه. دفعها  
إلى المائدة وهو يصيح «لشئنا ما تبيي توقعي.. هه.. لشئنا». وكانت  
ترد عليه وقد خنق البكاء والألم حلقها في صوت غير مسموع.. أنا  
نوقع... أنا أسوى اللي تبيي.. يستطرد لشئنا ما توقعي الصك تشكى  
بي.. هذه فلوسى أنا.. هذا مالى أنا.. يدفعها بقوة. تصدم بالخائط  
لتسقط على الأرض. لكنها جمع قوتها لتقف تبحث عن الصك  
والقلم كي تنتهى من هذا الوحش الهائج الذى كان ينفضها ويرتطم  
بها في كل ما هو صلب. وهي تردد دون صوت سأوقع.. سأوقع..

وتركها حتى أمسكت بالقلم بعد بحث متعثر. فلما وجدته  
قبض ثانية على شعرها وجذب رأسها إلى الخلف وهو يصيح..  
لكنك لا تبي توقعي.. لشئنا.. بدى أعرف.. تبي تسرقها؟ وهبطت

بده الأخرى بقوة على خدها. فاندفع الرأس إلى الناحية الأخرى.. ترك شعرها فاندفعت محشورة بين الأرض والحائط. وقد شعرت في فمها طعم الدم المالح.. ووقف بينها وبين المائدة صامتا. خاملت ثريا وهي تهتف بنفسها في رعب.. يجب أن أوقع كي أنتهى منه.. زحفت على أربع. تحاول بلوغ ظهر المائدة، فلما وجدتها تعلقت بحافتها تحاول النهوض فلما استقامت ضربها في فكها ضربة خطافية بقيضته اليمنى. طارت بسببها إلى آخر الغرفة. كانت صباح نيكى وتدق الباب في الخارج. وسقط إلى جانبها فيح كنعبان.. أنا اللي يؤكل لحمه يا قحبة يا شرموطة.. أنا الذي تلوث سمعته بين البوادي للحضر. وهبط على وجهها كفه الذي يساوى مطرقة. فراح يضربها بحزامه الجلدى ويركلها بحذائه. وحينما كانت تنهيا للضرب كانت نغمض عينيها مخفية رأسها بين يديها في صمت لو شئت قتلتكما ولكنكما حشرات جرباء. كلبة ساقطة. وتيس زامل.. مو أنا الذي يؤكل لحمه وقعى وإلا قتلتك

وزحفت ثانية وقد انهال الدم من وجهها وجسدها. حتى بلغت المنضدة المهشمة. رسمت اسمها على الصك. فلما انتهت جاءتها دفعة قوية من الخلف فسقطت إلى الأمام وقد اصطدم رأسها بالحائط

لحظات كالدهر قبل أن تستفيق وتعدل في جلستها: ارتكنت بجذعها على الحائط مفترشة الأرض. مزقة الملابس ممددة الساقين عارية بنثال الدم منها. وقد اهتزت الغرفة في رأسها. لا ترى سوى الظلام. حتى سكنت وهي تستعيد ملامح العالم تدريجيا في عينيها. كان منتصبا وسط الغرفة بعظيها ظهره. يلم الأوراق داخل حقيبته السمسونايت. سمعته يقول شيئا تخيلته كما لو يكون «أرحلى غادى حوش التيس أبوك»

امتلات عيناها بظهره: عملاق شرس. تابعته يخرج من الباب.

فإذا به يغيب. ويعود الباب إلى عينيها المنسحبتين من الحياة. لقد  
خلت الحجره منه. تمددت بصعوبة على أرض العرفة الباردة. صدرها  
يتنفس في ثقل. ببطء رفعت يدها تفترد، من وجهها. وبصعوبة  
وضعت أصبعها في فمها تمصه كطفلة خدق في الفراغ.

أصداء.. أصداء.. شامتت نفسها تعبر مدخل حوش أبيها  
المظلم. مترجلة على الأقدام. بدأ وحى تلمح في عيني أختها خيرية  
سيول سوداء من السماتة. زمرانة مظلمة للتعديب.

أصوات عاصفة تنطلق على ظهر خيول الريح الفسيحة في  
رأسها ترجه.. أصداء تعبت برأسها.. أصداء تتجمع من هذا الفضاء  
لتصب شلالاً هادراً تحت سطح قشرة رأسها.

أصداء قرعت رأسها على طاسة نحاسية مثبتت عليها  
تاج شوك. التوت عيناها وتهاوت. تستمع إلى الضربات البدائية  
لضجيج العالم المشكل من ملكوت السماء وقاعه السفلي..  
وذلك الإنسان الضعيف السادر جهة الظلام الأبدى

أصداء.. أصداء.. تغرق مساحات شاسعة من منطقة الوعي.  
تختفي داخل مناطق الظلال. تفتح فمها لتصرخ. يخرج فحيح ربح  
قادمة من كهوف بدائية تشكلت من صخر الزمن.. تجحظ عيناها  
بالعذاب. ها هو المخ ينفجر في نريف دموع تحت قشرة الرأس.

ثمة شيء باق من وعيها يجعلها تتحرك ببطء للخارج. هناك  
حيث حمام السباحة وقد امتلأ بالمياه وانعكست على صنتحته  
الأضواء. المعد خصيصاً للفرح القادم. حمام السباحة الذي بنى  
من السيراميك الإيطالي الفاخر تقسمه مربعات الحياة بخطوط  
الذهب والفضة. وتتوسده السيدة العارية القاطنة بأسفله تنادى  
التائهين. حمام السباحة الذي كان وعداً بالحبة وهدية مودة منه.  
سيصير لأخرى قبل أن يرتاده جسدها كما حلمت من قبل طويلاً.



ها هو يود لو يستقبلها. يشدها تدفعها إليه حاجة من بقايا  
وعبها الذي يتلأنسى منها نقطة الضوء الأولى تبعث من فوهة  
سرداب أبيها المظلم. حيث هي ملقاة بقاعه. مقيدة بعشرات من  
ثعابين الحكايات القديمة. وأفاعى الذكورة. العالم الذي لا تنتهى  
إليه المسافات. القهر.. الألم.. الهلع.. الانفراج عن ساحة من القرع  
الضوئى.. آلاف الألوان لقوس قزح. يوشئى سماء شمسسية من  
أسلاك الذهب اللانهاية بحبات الزمرد.

ضحكت وضحكت وصرخت.. خف وزنها فجأة وراح ثقل  
الاختناق. لا تحمل شفاهها سوى حركة خامدة. ترحل بعدها موجة  
وحيدة فى بحر اللانهايات لتغمرها الراحة الأبدية.

\* \* \* \*

فى الصباح أشار أحد عمال الطلاء إلى المسيح الحديث. هناك  
كانت طفلة تيكى جسد امرأة مشووفة القوام لموديلات الحدائث.  
تطفو فوق المياه عارية: عرى لا يكسوه سوى قطعتين شديدي  
الصغر لمايوه بكينى من أزهار الزنبق. مصلوبة على سطح المياه.  
وجهها الذى كان ينظر شمس الصباح يحيط به هالة واسعة من  
الليل الجدول بشلالات من جدائل الشعر الخالك لامرأة بدوية. ترسل  
رسالة الحياة للكون. وفى عيونها الخامدة كانت بقايا من أسئلة  
موجهة للرب..

إلهى..

لم أكن الأنثى الأولى التى ولدت وحيدة من رحم البرية..

ولم تعطنى رسالة لبشر تعساء

ولم أكن عذراء..

ولا مريم المجدلية..

فلم جعلتنى مسيحك؟

لم صلبتنى على صليب من المياه البدئية؟

لم يا الهى جعلت صليبى أوسع مدى  
لم تبتنى بأشد فسوة من مسامير الناصرى.  
وجعلت نهاياتى أشد عذابا من النهايات المكرسة على طريق  
الجلجلة.

وإذا لم أكن مرسله..  
وليس فى قمى رساله..  
أسأل حصورك الكوسى..  
لو أننى أستحق هذه النهاية

عندما أخرج حسدها الوردى من حمام السباحة. كانت ثريا قد  
أعلنت عريها بثوب من الصمت السرمدى. لم تكن ميتة بأى حال.  
رغم كونها قد عذمت على الهرب من تلك الحياة التى عاشتها.  
وتلك التى تنتظرها. بحنا عن مكان آخر لا نعرف أين يمكن أن يكون  
فى ملكة الله المعروفة، وربما خارجها.

\* \* \* \*

فى صباح اليوم ذاته كان عمر على ظهر الطائرة المتجهة إلى  
روما. يحمد الله ويشكره. فقد كان فى حقيبته الأوراق التى تتيح  
له تهريب أرصده جميعها للخارج. إنها لحظة فاصلة فى حياته.  
ولئن تمضى ساعات حتى يكون قد أعاد إيداعها فى أحد البنوك  
الخاصة التى يصعب تتبع أرصدها.

لهذا كان لعبارة إنها مصابة بشلل فى المخ. وفقدان فى  
الذاكرة. التى أتبع بها خلال مكالمة هاتفية فى مطار روما. صدى  
مريح استلزم منه التوجه بالشكر والحمد لله. وقد عزم على  
التصدق للفقراء والمعوزين. وأن يسهر سهرة حمراء بين غانيات  
روما. فما يقارب من نصف ثروته كان باسمها. وها هو الآن مودع  
باسمه فى بنك روما ناشيونالتى. وهو أيضا ارتاح من حمل الانتقام  
وهوموم. أو الطلاق بفضيحة نهز الحاضرة الشرقية. وأصداء انتحار

دربة عروس ناصر لا زال يحلق في ذاكرة الحضر.

عندما عاد من روما استقبله الجميع بالنصمت. ربما يخفى حزناً. فثريا على أية حال امرأة صغيرة هجرها زوج تضح الحضر والبواى وروما والقاهرة بمغامراته النسائية. كان الوحيد الذى يضحك. إلا أنه مشغول البال بكيفية الانتقام من أخيه الأصغر ونيس لتؤجل الأمر.

لكن القدر لا يؤجل شؤونه. فمنذ الصباح الباكر لأحد الأيام الأولى من شهر أبريل. أطلق الموت على مدينة الحضر الشرقية مناجله. كانت الطرقات ترخف من البرد. والناس يسعون لشؤونهم وفى قلوبهم رجفة. لا يتوقعون الهول المنتظر فى سماء المدينة. وفى الثالثة ظهراً. تلك الساعة المشنومة من الزمن. المسروقة من عمر العشائر التى استوطنت الشرق منذ قرون خلت. وحيث تعودت أن تغلق المحلات التجارية أبوابها. وتجري السيارات مسرعة فى الشوارع الخالية من المارة. والمنازل والأحواش تغفو قيلولتها الباردة. وقف عدد قليل من النجارين فى منتصف ميدان البلدية أمام مبني الاخاد الاشترაკى الذى كانت أثار حرائق المظاهرات الطلابية فى يناير الماضى بادية عليه. يجمعون عروقاً من خشب. ينصبونها واحداً بعد آخر. ربما كان كبيرهم يعرف ما ينوى تشييده. ربما رأى مخططات الموت تسم علاماتها على الميدان فى رسوم تفصيلية. ربما كان عماله يعرفون. ربما لم يكونوا بشرأ. وإنما من أعوان الشيطان. فهذه مهمة فاسية لا يتركها إلا لأتباعه ومريديه. ورغم ذلك لم يلفت جهمهم انتباه المارة. منصة مسرح شيد فى منتصفها أربع دعائم عالية من الخشب مد بين كل اثنتين منهما عارضة قوية. فماذا يمكن أن يتوقع: منصة احتفال سياسى لم تستكمل. سراقق فاخر ستأتى من أجله وفود البواى والحضر لعزاء شخص مهم مسرح للفن ليس من المتوقع تشييده فى هذا المكان..

أشياء كثيرة لتوهومات واحتمالات عديدة عبرت دون أدنى اهتمام

أذهان المارة العائدين من أعمالهم والمتسكعين في الجوار. لكن في اللحظة التي صعد فيها أحد العمال ليلقى من منتصف العارضة الخشبية الممتدة بين الدعامتين حبلاً من الشبل القوي ينتهي بعقدة للشنق ليهيئ منصتي إعدام من المشانق. ارتعدت المدينة وحل بها الرعب. والخبر ينتشر انتشار الهشيم في سماء المدينة الوادعة: ثمة مشنقتان منتصبتان في قلب ميدان البلدية.

الذهول الذي انتاب العدد القليل من المارة وهم يتطلعون إلى ما لم يسبق لهم أن رأوه أو توقعوه خارج الصور المدرسية. والأفلام التسجيلية المصورة التي حكى عمليات إعدام المجاهدين والتي كانت كل ما ختويه ذاكرتهم. لم تكن لنستطيع الصمود أمام الوقائع العيانية التي تنتصب الآن في قلب المدينة معلنة بأن المشهد المائل أمامهم ينتمي للزمن الحاضر. وأن الوقائع الملموسة رؤى العين تلقى بالضرورة بعلامة استنفهام طافت سماء الحضر.

من الضحيتان اللتان تنتظرهما أعواد المشانق؟

سؤال عبر سماء المدينة ووجدانها في سرعة البرق. كانا هناك ينتظران في عربات مصفحة ينتظران مصيرهما. لا حايا لا هتافات.. لا وداع من الأهل.. لا عناق مع الأحبة.. لقد لحق بهما العار. وهما يعاملان معاملة الخونة.

وقبل أن تبدأ الشوارع في استقبال الضجة الاعتيادية للمتسوقين الخارجين للنزهة في طقس ربيعي معباً بنسمات البحر القادمة من المتوسط. التف حبل المشنقة بقوة علي عنقي الطالبين اللذين اقتصا من المبني الذي أطاح بالعشرات من الرفاق. فاختطفوا منهما الحياة. وتدلي في رداء الموت الأسود جسدان غضان في شرح الشباب لم تنعد أعمارهما العشرين. معلقين من أعواد المشانق الحزينة وقد غطى وجهاهما بالبرقع الأسود للمحكوم عليهم بالإعدام شنقاً. والذي تم استعارته من محاكم التفتيش

الإسبانية. ومحارق السحرة والفتك بأعداء الكنيسة الرومانية.  
والأعداء الطبيعيين للملوك. وقطاع الطرق واللصوص.

تحرك الجسدان كبندول الساعة. فارتجف قلب المدينة مع كل اهتزازة. وبرز كفا قدميهما المكامل بالزرقة ضعيفا. ضعيفا.. كضعف الإنسانية أمام الطغاة.. تتدلي الأصابع التي غاب عنها لون الدم تقول لن أستطيع أن أدب علي الطرقات ثانية.. لا يهم لن أحتاج لهما بعد..

الآن أنا في طريقى طائرا إلى ملكوت الرب.

التحم المارة في حلقة تتسع شيئا فشيئا. وقد وقف علي رؤوسهم الطير وبين المفاجأة والدهشة ثمة فتاة في الثامنة عشرة تعلق بها طفل صغير. شرعت تكسر الحلقات المشرية المحلفة حول الموت. كانت تقرب من الجثث تبكي في هدوء خيط بها الهالة المقدسة لارتباط الأحية بضحايا الطغاة. تتكسر الدوائر وتتسع. تنتشر جحافل الحزن.. يكمل وجه المدينة بالسواد..

منذ الساعة مساء لم يغادر أحد منزله. ليلقى الموت الذي شرع مواجهه في سمائها. وأغلقت الحلات في احتجاج صامت أمام نرعة الطغيان التي عصفت بالمدينة. واختفي المارة من شوارعها. واختفت من الطرقات أضواء السيارات وبقيت أنوار الشوارع الباهتة. سيارة وحيدة قادمة من مدينة غرناطة الشرق التي شيدها حجاج أندلسيون عابرون للحج. هربا من مجازر ملوك الطوائف ومعابدهم المشيدة من جماجم الخصوم والأعداء والحلفاء والأصدقاء لا فروق ولا مبررات. سيارة وحيدة كانت تنفض على الطريق الرئيسية قادمة من الجبل الأخضر. استجابة للرسالة الهاتفية الباكية التي خاملت بها زاهية على نفسها لتقول.

«أسناد ويس تعال توا.. نرجوك.. خوك معلق على الطرقات»

الكتلتان السوداوان اللتان كانتا تدليان من أعواد المشانق وهو يلقي بسيارته في ناصية شارع عمرو بن العاص. حوّلنا في ثوان

ليرفعين بخفيان رأسين لجسدين معلقين من رقبتيهما قى قلب ميدان البلدية. خائته أقدامه وهو يتقدم وسط الأعداد القليلة. لكنه عزم على بلوغهما. سار يدفع كل معارفه وأهله الذين جتمعوا ينظرون ابنهما صغير السن الذى جرى إعدامه عقابا على حرق المبنى الذى يمثل فكر الثورة. الوحيدة التى أخذها تحت كتفه. وسار بها قدما ناحية المشنقة كانت زاوية حبيبة أخيه وصديقه ورفيقة أيامه الأخيرة. كانت تتمتم وتقول «والله حرام.. ما يستحق.. كان كبير واحد وقتلوه»

حاولت الشرطة منعه من الاقتراب. لكنه بدأ هانجا للدرجة التى جعلت الضباط يتركونه يمر من الكردون المقام حول المشنقة.. وهناك أمسك كل منهما بواحدة من أقدامه. بيكيانه بضراوة وهما يقبلان أقدامه. وحولهما وحتى التاسعة مساء تصاعدت تلاوة القرآن من أفواه أهله والوقوف القليل عندما أنزلت الجثتان.

وهناك حيث عشق وجوده. فى أديم الجبل الأخضر. سارت سيارة وحيدة. طبقا للأوامر العسكرية. غمّل جثته أحد عشاقه. عندما انحرف النعش عن الطريق الساحلى كان بانتظاره أهالى القرى والدساكر وخيام البدو واقفين للتحية وعلى رؤوسهم الطير مشيرين بأصبعهم إليه وهم يغمغمون آيات من القرآن الكريم..

\* \* \* \*



بعد سبع سنوات



البادية مرة أخرى.. مرة ثانية مصر تضيق بأهلها (بما رحبت).. نغلق كل سبيل الرزق أمامى وأمام كثيرين من أبناء جيلى الذين انخرطوا فى الحركة الطلابية وكافحوا يوماً من أجل تحرير الوطن. وكأنها تنتقم منا.. وكأنها لا تعلم أنه لولانا لكان السادات قد وقع صكوك الاستسلام ولأصبح العار يجلل هامات الوطن حتى هذه اللحظة.

مياه كثيرة جرت مند قاتلت مصر من أجل استعادة سيناء. وعندما أرتفع العلم ذو الشريطين الأزرقين على الأراضى المصرية. كان الرد العربى مفاطعة جماعية وإغلاق غالبية سفارات الدول العربية. حتى أصبح السفر لكثير منها درياً من المستحيل..

لم يكن أمامى سوى اللجوء إلى صديقى (خالد منصور) الذى يحظى ولا يزال باحترام شديد فى العواصم العربية فكتب لى خطاب توصية لقيادة البادية الذين قادوا وجهة نظر الصقور فى معسكر الصمود والتصدى. ولم يكن أمامى سوى السفر إلى واحدة من الدول التى تحولت إلى محطة يسافر منها المصريون إليها.

وهناك عشيت فى تونس الخضراء أياماً كثيرة. وقد أخذنى سحرها. وسيطرت على وجدانى سهوب الخضرة الممتدة لمرج البحر. ختضن أمواجه وزرقته الصافية. وشوارعها الواسعة النظيفة.

تنتشر في أرجائها محلات بيع الزهور. لم أفكر في الاقتراب من سفارة البادية. مفضلاً دخولها بالشكل المعتاد بدلاً من اللجوء لخطاب التوصية.

أنا مواطن عربي ومن أوليات حقوقى دخول كل بلاد العرب دون تأشيرة ولا تصريح. ناهيك عن استخدام وأسطحة تمكني من دخول وطنى الأكبر. ولذلك تركت خطاب التوصية فى الفندق وبرت متوجهاً للقنصلية. وهناك فوجئت بطابور طويل من المصريين ليس له نهاية. وقفت أنتظر الساعات الطوال. حتى بلغت الموظف القابع خلف الزجاج:

شئو تبي؟

أبى أدخل البلاد.

عمل ولا زيارة؟

عمل.

- معك عقد عمل؟

لا.

ممنوع.

طيب أبغى زيارة.

أنا ما نى سألتك عمل ولا زيارة.

ما فهمت سؤالك يا أخی.

- باهى يا أخی معك دعوة؟

لا.

- ممنوع.

شعرت بالواقف خلفى يزيحني ليأخذ دوره. ويقدم جوازه للموظف... وفى لحظات وجدت نفسى لست خارج الطابور فقط. ولكن خارج الموضوع بأكمله.. وقفت غير مصدق. فأنا عربى والبادية أرض العرب.. لكن يبدو أن هذا كان قانونى الخاص. وسط حزن وأسى شفيف أيقنت أن على أن أفعل بما ليس منه بد. وفى الفندق أدت

قرص التليفون على رقم خاص في عاصمة البادية، رد على أحد أهم الشخصيات المقرية من القيادة السياسية، بعد أن بحث له باسم الأستاذ خالد منصور انتهى النقاش وطلب منى على الفور الذهاب صباح الغد إلى السفارة والالتقاء بالسفير والتحدث معه مباشرة.

في الصباح الباكر كنت أقف أمام مبنى السفارة أطلب مقابلة السفير عندما أخبرتهم باسمي. فُتحت الأبواب على مصراعها واحدا خلف الآخر، حيث وجدت نفسي في لحظات أجلس في صالون الاستقبال في منزل السفير، ومدير المنزل يسألني بأدب شديد تشرب إيه!؟

حضر السفير بعد قليل كان يبدو عليه أنه يعرف شخصية ضيفه. وبعد كلمات المجاملة العادية طلب منى المرور على القنصلية لاستخراج التأشيرة، وشدد على ضرورة إبلاغه شخصيا بموعد سفري.

«القنصلية تانى»... بلغتها ولا تزال أثار لقاء الأمس عالقة بذهني. ولكن ما أبعد الصباح عن البارحة. فهناك تخطيت الطابور الطويل الممتد كالثعبان ونوجهت مباشرة إلى الموظف القابع خلف الزجاج. قلت له «أنا دكتور رفعت بيومي» و... قبل أن أكمل ابتسم الرجل بترحاب شديد قائلا وينك أنت يا مصري؟.. انفضل يا راجل.

فتح باباً صغيراً قريباً منه ودخلت... وبطرف عيني ألقيت نظرة إلى الطابور الطويل، فوجدت البشر قد جمّدوا في أماكنهم. وعيونهم مصوبة إلى هذا القادم الذي تجاوز وقتهم المضية بساعات طويلة. وفتحت له الأبواب بترحاب، لا أنكر ما داخلني من مشاعر الغرور ولكن بعد ثوان طاف بالخاطر إحساس غير مريح.. ماذا يمكن أن يظن هؤلاء الناس بي

خلال دقائق كانت التأشيرة في يدي. وموظف القنصلية

بخبرنى أن هناك طائرة تغادر إلى البادية الليلية ويمكننى اللحاق بها.. شعرت بالخجل ما انتابتى فى طابور الصباح من أحاسيس أمام أقرانى من المصريين.. لا أعرف لكنى قررت البقاء قليلا قبل الدخول فيما لم أعد مهتما بدخوله.. لكن فى المطار وقبل أن أركب الطائرة تلفنت للسفير كما طلب منى برفقم الرحلة. وهناك فى مطار العاصمة كان فى انتظارى مندوب من طرف الشخصية الهامة التى تلفنت إليها. عرفنى بنفسه وبأدب شديد طلب منى مرافقته. وبنظرة من عينيه تراجع موظف الجمارك الذى كان يهم بتفتيش حقائبى. خارج المطار انتقلنا فى سيارة خاصة إلى وسط المدينة. حيث أبلغ إدارة الفندق الصغيز الذى نزلت به أننى «ضيف القيادة». منذ تلك اللحظة عوملت معاملة (V.I.P). شىء ما جعلنى أرفض ذلك وأكرهه..

عندما جلست فى المساء وحدى أتأمل ما جرى فى الأيام الأخيرة من حياتى. شعرت بالظلام يخيم على المستقبل. والامتهان يزغ النفس. كيف وأنت خريج واحدة من كليات القمة. لا يشفع لك ذلك فى الحصول على حياة كريمة تعفى أبئك الذى طحنته السنوات من عبء الإنفاق عليك بعد أن أفنى عمره ليضعك وإخوتك فى ظروف أفضل من تلك التى عاشها هو. وها أنتى كى تبحث عن فرصة عمل ترحل بلاداً كى تعبرها لبلد عربى. وموظف القنصلية يرفض إعطاءك تأشيرة الدخول لأسباب وأهية عبيطة لا معنى لها سوى أنها تتركك فريسة لتسول حقوق الحياة الطبيعية ولا تأنف أن تلقى بك للغربة تغتالك وحيدا بعيدا عن الأهل والأصدقاء.. ثم فجأة يتغير كل شىء وتفتح أمامك الأبواب. ويستقبلك السفير. لا لأنهم اكتشفوا أنك قيمة فى حد ذاتك. ولكن لأنك تملك «الكارت السحرى» الذى يحمل اسما هاما بكل المقاييس.

تاريخك.. نضالك.. دورك الكفاحى فى الحركة الطلابية والسياسية لا أحد معنى به.. أرفض ذلك وأكرهه.. شعرت أن ما يجرى حولى ليس

سوى فصل من مسرحيات العيث واللامعقول.. ويا الغرابية ورغما عنك كنت أحد أبطال هذه المسرحية.. ما الذى أعادك إذن إذا كان هذا حالك.. ولماذا رحلت إذا كنت مضطرا للعودة؟

«البادية مرة ثانية..» بعد سبع سنوات أمضيتها فى مصر تدهورت كافة التوقعات التى عولنا عليها لقيام معارضة مصرية قوية.. لم تكن لنعرف ذلك الوقت والحياة تذى من بين فروع الأصابع.. وبعد كل ما أدركناه وتلاشى ما سعينا لبلوغه ها نحن نكتشف أن الحياة جعلت منا هدفا ينبغي بتره.

جئلى الذى صهرته معارك الغضب من أجل تحرير الأرض المحتلة. جرى طرده خارج مسرح الحياة. وألقى به للعرء. وبعد أن كان النضال ضد السلطة وأضحاً كالشمس. والسجون والمعنقات جنات فردوسية. تحول الأمر إلى كارثة.

لا مجتمع الثورة والفساد. وشيطان بشريف خير من ثورى فاسد. فالضرر الذى يخلفه الأخير أقطع مئات المرات. الفارق أن الأول يضعك أمام خيارين الجحيم أو الفردوس السماوى. بينما الثانى يجعلك تكره فردوسه وجحيمه ونفسك معا. ولا يتيح لك سوى خيار وحيد: تيه لا متناهى فى مفازات العماء..

هده خلاصة التجربة المصرية فى نصف القرن الأخير.. الآن أنا هنا أحاول البحث عن تريباق للشفاء من جرعات الألم التى تناولتها رشفة بعد رشفة. وجرعة بعد جرعة من أصدقاء كانوا لى فوق الشبهات. لا يخفف عنى الكابوس الذى أعيشه سوى أصدقاء آخرون كانوا قطعاً من الماس النقى ولا يزالون. هم حاولوا إنسانى عن الرحيل. لكنى عزمتم ورحلت. كل الذى طلبته منهم أن يودعونى. لأنسى كنت فى حاجة ماسة لوجوههم أحملها معى كى نصاحبنى غريتى الموحشة..

\* \* \* \*

فى الصبح سُنلت عما أُرعب. طلبت العمل فى مستشفى  
غرتاظة العام حيث كنت أعمل من قبل. نظروا إلى دهشة.  
وسألونى إن كنت أُرعب فى أى شىء آخر؟ قلت مطلقا هذا كل ما  
أُبعبه. فى اليوم التالى حملت خطاب تعيينى. وسافرت فى نفس  
اليوم. كانت بر رغبة ملحة فى رؤية المدينة التى بناها الأندلسيون  
مرة ثانية. أحياؤها المشيدة على ظهر الجبل الأخضر. سهل الفتايح.  
بحرها المتوسط. ساحلها الشريطى الضيق يعصل بصفرة رماله  
الذهبية بين زرقة البحر وخضرة الجبل. هواؤها البارد. نسانمها  
المنعشة. لا أستطيع أن أخفى حفيقة كوني متيم بها عاشقا  
لعرائشها. مدينة النساء

فى صباح اليوم التالى تقدمت بخطاب تعيينى لمدير  
المستشفى. لم يكن هذه المرة الدكتور حميد البرغثى. لكنه كان  
رئيس اللجنة الشعبية الأخ مصباح عبد اللطيف. الذى عرض على  
مند سبع سنوات العمل مع الثورة على طريق الزعيم الخالد عبد  
الناصر. أذكر لحظتها أننى ابتسمت موضحا أننى عزمت النية على  
الأ عمل بالسياسة مند اللحظة التى أغانر فيها أرض مصر. حيث  
تذوب المسافات وتتلاشى الحدود بين العمالة والخيانة لرفاق جمعهم  
السجون. وحيث يصعب الحفاظ على الشرف الفردى وللحقيقة  
تقبل الأمر. الآن ها هو يلاحظ شعورا من الدهشة حاولت إخفاءه  
عندما قدمه لى الزملاء بوصفه المدير العام للمستشفى. ورغم  
ذلك كان ودودا. يحاول أن يكون أيضا صارما بما كى يسد النقص  
الناجم عن شعوره بعدم أهليته لمنصبه.

فى البداية سار كل شىء ببساطة. استلمت تعيينى بعد  
الانتهاء من الإجراءات الروتينية التى استمرت سبعة عشر يوما.  
أقمت خلالها لدى أقارب لى. وبعد استلام عملى انتقلت للإقامة  
فى سكن الأطباء مؤقتا. حين الحصول على راتبى.

ما إن استقرت الأمور حتى بدأت في البحث عنه: دكتور ونيس بوزوى صديقي القديم الذي أجرى أولى عملياته الجراحية تحت إشرافي. فنجح. أثناء بحثي بدا لي أن الشخصية التي كنت أعرفها تلاشت. لتحل محلها شخصية أخرى.

كانت الأخبار تصلني عن سسكير خطر. تدور حوله الأقاويل والإشاعات. من تعدد العلاقات النسائية. إلى العمليات الجراحية القذرة بدءاً من الإجهاض حتى صناعة غشاء بكارة للواتي فقدن عذريتهن مبكراً. وسط شهرة ترددت بالاحترام والتقدير لكونه أفضل جراح في الولاية الشرقية. حصل على الدكتوراه في طب الجراحة من جامعة بون بتفوق. ورغم هذا لم أستطع مقابلته. فقد قيل لي إنه في رحلة لحضور دورات تدريبية ومؤتمرات طبية في أكبر المراكز العالمية لطب الجراحات المتخصصة في الولايات المتحدة وأوروبا.

في تلك الآونة عشت حالة المغترين. أمضى حياتي بينهم وأعاني مما يعانون وهو كثير.. ولأسباب تتعلق بتأخر تأشيرة الإقامة لم أستطع توقيع عقد العمل.. ولهذا السبب البيروقراطي الدنيء لم أقبض راتبي لمدة طويلة تجاوزت سبعة أشهر. أمضيتها بلا دخل أعيش منه. ولم يكن أمامي سوى الاعتماد على مساندة بعض الأقارب العاملين في الحَضْر. كان وضعاً يصعب تصوره. لكنه للغرابة كان يطال آلاف المصريين العاملين هناك..

كيف؟ و«نحن أبناء أمة واحدة» عبارة تصفعنا صباح مساء.. صرت شديد الخنق والغضب. فهناك زوجة وطفلان في حاجة لمصروفات الحياة وأب أن له أن يستريح من أعباء أولاده.. لكن شيئاً ما بداخلي كان راضياً لأنني أعيش حالة المعاناة الحقيقية للمصريين المغترين الذين لا يحملون «كورونا سحرية»

كانت هذه فرصة ذهبية للتعرف على مجتمع البادية الحيفي الموجود خلف كواليس الشعارات التي يرفعها النظام السياسي.

إعلام يحسده عليه الأطفال المنغوليون. تليفزيون يعلن عن سهرة مع خطاب للقائد ألقاه في الحضر منذ ثلاثة أعوام. وكأننا سنمضى الليل على موعد مع فيلم ليوسف وهبي أو أنطوني كوين.. والخطاب إجبار بطعم الاختيار. وليس هناك بدائل.. بعد نشرة العاشرة مساءً تبدأ السهرة تعرض تسجيل لأهازيج وهناقات أبناء البادية بحياة الزعيم القائد. وفي منتصف الليل موعد وقف الإرسال التليفزيوني يخرج المذيع ليقول نكتفى بهذا القدر وغداً إن شاء الله سنذيع الخطاب وتصبحون على خير..

هذه الفترة بما رأته كانت كقبيلة بأن جعلني أعيد التفكير في قناعاتي السابقة. وقد توصلت بالفعل إلى أن هذا النظام بكل ما يرفعه من دجل حول القومية والانتماء العربي. يقدم بعد زواله البيوادي والحضر على طبق من فضة لأشد النظم معاداة للعروبة. وأن أمتنا العربية وأوطاننا لم تعد بحاجة إلى مزيد من مهرجين بطعم العسكر ولا نيناشيينهم التي منحوها لأنفسهم. وأن الحرية هي الحل الوحيد؛ حرية الفكر والعقيدة. حرية التعبير. حرية الانتقال. حرية تداول السلطة. وأن الديمقراطية هي السبيل الوحيد لأوطاننا كي تعيش بكرامة وتلحق بالعصر.. الطامة الكبرى أنتى وصلت إلى قناعة أن وطناً يحكمه أمثال الزعيم القائد ليس في حاجة لأعداء.

ما أزعجنى أنتى علمت بطريق الصدفة. بعودة دكتور ونيس بوزوى من الخارج منذ أكثر من أسبوع دون أن يحاول لقائى. رغم أن الأخ مصباح ذكر لى بعفو الخاطر أنه أبلغه بحضورى يوم عودته.

ذهبت أبحث فى كل مكان فى المستشفى. قيل أنه يشرف على تجهيز مجمع للعمليات الجراحية الطبية الدقيقة. وأنه يستقبل وفداً من ألمانيا الشرقية قدم بالخصوص. وبين مجموعة من الوجوه الجermanية. بحثت عنه وكان هناك وقد تغيرت ملامحه



كثيرا. قامته المديدة. وجهه العربي الملوح بالسمرمة مغطى بلحية هوجاء. شعر منكوش عرير تتدلى على حبيبه العريض خصلاته الشعثاء. وملابسه التي كانت دوما تنسم بالأنافة والدوق لم تعد كذلك. بل ملابس متافرة جمعت كيفما اتفق لتعطي انطباعا عن شخص ينتعل صندلا وجوريا ولا يهتم بنفسه. ورغم ذلك كان الناس يتعاملون معه باحترام شديد. هل بسبب شخصه أم بسبب كونه مثل الدولة الثرية أمراً مجهولاً. تقدمت نحوه بحرارة مخترفاً الوفد الجرمانى مدفوعا بشوق السنين. وبينما توقعت استقبالا حارا وأحضانا صاخبة تنعشها صحكاته المجلجلة. وجدت شخصا آخر ينظر نحوى بامتعاض وبرود. ويطلب منى أن أنتظره فى عيادته. حين الانتهاء من عمله.

هل عرفنى ربما لا.. لكن دشنا من الماء البارد وقع على أم رأسى. ترددت فى انتظاره. وفضلت ترك الأمور لتكشف عن نفسها. ولذا قررت تناسى الأمر بمجمله وضمه لأرشيف الذكريات المؤلمة.

لكن غرف العمليات جمعتنا بالضرورة. ولما شعرت بتجاهله لى. لم أهتم وانكبت على عملى أؤديه كما ينبغي. وكما تعودت.. ومع الوقت تبين لى أن ثمة خطراً قابعا دوما فى عملياته. وأن يده المرتعشة أصبحت القاسم المعتاد للحظات الجراحة المرحجة. ومع الوقت لم أعد أعرف ما يتعين عمله. سوى أنني عزمت على أن أكون قريبا منه دائما. حتى جاءت اللحظة التى كنا نجرى فيها عملية دقيقة لعروس شابة مصابة بورم ليفى يمنعها من الإجاب. كان مضطربا مند البداية. يحاول السيطرة على أعصابه بقسوة شديدة. وارتعاشات يده التى أشاع عنها مريدوه والمتعلقون حوله أنها ذروة فنه الجراحى توشك أن تسبب قطعاً غائرا فى جدار الرحم سينجم عنه حتما إزالته. لتنتهى العروس الشابة التى جاءت بحثا عن الأبناء الى عافر مدى الحياة. ساعته علمت أنى أفعل ما لم أسامح بنفسى عليه قط. كانت رائحة الحمر تفوح منه. خرجت من

فوري واستدعيته لغرفة التعقيم. وطلبت منه بوضوح أن يرحل من فوره إلى منزله. وإلا سأأخذ إجراءات عقابية صارمة في حقه. ولن أبالي حتى ولو انتهى الأمر للقضاء على مستقبلي الطبي. كنت عنيقا للدرجة التي نظر إلى فيها بتحديد. توقعنت فضيحة لم أرغبها. في تلك اللحظة خرجت من باب جانبي خديجة عبد السلام حنيس طبيبة جراحة من الخريجات الجدد. التحقت للعمل بالمستشفى حديثا مع عدد من زميلاتها. طلبت منها بلهجة أمرة أن تدخل من فورها غرفة العمليات. نظر بيننا مثل أسد يفكر. وقبل حدوث الكارثة خلع معطفه وملابسه المعقمة الخاصة بالعمليات واستدار بكبرياء الليث ورحل..

خديجة بن حنيس طبيبة جراحة موهوبة بالسليقة. ترتدى عوينات طبية. وابنة للثورة. وعضوة اللجان الثورية. متوسطة الطول ترتدى الملابس القصيرة الضيقة. شعرها القصير العملي كان لافتا لبدوية من الجيل الجديد الأكثر عصرنة. قدمت من العاصمة بغرض الإشراف على مشروع تطوير قطاع التمريض في مستشفيات غرناطة. وهي مكروهة دون أن تدري سبباً ذلك. تعيش مع أعمامها الذين قدموا من الغرب مع جريدة حبيب.

خديجة بن حنيس كان يحلو لها منذ دخولها غرفة العمليات أن تتابع مهارته بإعجاب شديد.. الآن دخلت بديلة عنه. دون أن تدري السبب. أو ربما عرفت لشدة ذكائها وبراعتها الشخصية والمهنية.

عندما أنهينا العملية نجاح عزمنا على الذهاب والاعتذار له عما حدث. لكنه لم يكن موجودا. وعلى مكثي شامدت مفكرة قديمة ترجع لسنوات مضت. لم أهتم كثيرا. وفي نهاية اليوم مددت يدي أحاول معرفة مصدرها لكنني فوجئت بالصفحة الأولى التي كتبت بخط نسخ جميل: «مذكراتي أنا حميدة بوزوي»

وكان مطرقة من مطارق العصور الوسطى سقطت فوق أم

رأسى. وأمامى تدلى جسده الجيفارى الغض التشكيل من جبل  
المشنقة التى نصبت فى مدينة الحضر يوماً ما بميدان البلدية أمام  
مبنى أيديولوجية الثورة «الاخاد الاشتراكي».

وفى الجوار كتب ونيس بالقلم الرصاص جملتين

أنت تخليت عنه

وأنا ونيس بوزوى سلمته لهم بيدي..

أيام طويلة مضت قبل أن أجرؤ على أن أقلب الصفحات. لكن  
شعورى الممتلئ بالخوف من لقاء ونيس صدفة كان يدفعنى لقراءتها  
كعقاب ملزم يوقعه بى..

ماذا سطر يا من أختطف شاباً على مضارب صحراء الحربة.  
وصدمتنى أول كلمة بمذكرات طفل فى الثانية عشرة من عمره..





مُدكرات

أنا كهيبة مفتاح بوزوى

رمسة الميران وقسطه العدل

أنا هجيرة بعجيف ابتسامه وليس.. لكن أنا هجيرة  
ما أصير كيف عمر ولا أدبر له سغل نُؤكل  
أنا هجيرة أصير هجيرة حتى الحضر ما بيها  
اليوم بكتل أُسرى مصى على ذلك زمن طويل  
مثل الأيام القديمة أيام كُما هجيعاً على  
القيت عائسة لم سروج بعد، عمر، أصير،  
ونيس، مارالوا طلاباً، وأنا لم أتعد العاشرة  
من عُمرى تلك الأيام كاتب بهيجة، أبهج  
ما فيها الأفكار الصغيرة التي هب وأينعت بس  
مضاب الجبل الأحمر وعممه الى تناضح السحان  
هنا يتسكل من أدنيه الجسد ويعلو الروح علو  
قممه السامقة، وعلى مروج بهو العقل وينتزع  
بتلك الأسرار الصغيرة التي يتوجب حلها، مثل  
كيف نكسب الأسره ررقها، الكسارة، الساحتان  
رعى الأعمام سيع صوفها الوفير الذي بحر  
بعد دهاب الربع ومجئ الصيف ..

أما كيف ولد الحرفاء، مردداً سر عجيب، وما  
أجل تلك الحملان الصغيرة عندما همد أقدامها  
الإمامية كي تحاول الوقوف بعد خروجها إلى الحياة  
أصغر الصغيرة صديقتي، لماذا لا تحب أمي مثلما  
تحب أمها؟ كما تفعل أختي الكبيرة عائشة  
التي لم ألاحظ أنها تفرق في المعاملة بين الاثنين،  
أما هذه الفردة فهي لا تترك حضن أمها عطف  
ولا تذهب إلى حضن أمي - أأحبيدة لا يذهب  
إلى حضن أحد

الشيخ عثمان يقيمون له كل عام مولدًا، يصعدون على  
ضريحه علمًا أبيض، هل يستطيع حقًا أن يستجيب  
لرغبات أمي ~~ويجعلها~~ ويجعل أبي يحبنا ويحبنا  
أنا ووتيس وعائشة أكثر من أن يحب امرأته  
الأولى وأبناءها عمر وناصر وصديقتي.  
هكذا قالت حديثاً لأمي وجعلتها تذبح له حرفاً



صغيراً اشتريناه سراً ألا أرى جودك ، ولكن من  
يبري أن امرأة أبي لم تفعل السيء بنفسه  
عان أي أحمد الله أي مدحك جنب ولداً  
ولست فتاة هكذا بقول لي جدي ، فلو أي  
جنب بعناً ما تعادله القسمة وإصار لدى امرأه  
أبي ولدان و بنت ، أما لأي جنب ولداً ما حدتنا  
والقسمة تكون متعادلة ، فحمد الله ، وللشيخ عثمان  
الذي انتبه إلى هذا الموضوع وإلا كانت ستحدث  
مشكلة

لكون أصغرهم يجد الكل ما يشعله ويهمل هذا سيئ  
أبي لا يرائي ، وعمر دائم السجار مع الجميع  
لو يهتم بدراسة إصار موظفاً في الحكومة ، ولاهتم  
به الملك

ناصر يتحمل رعبه عمر ، ويقوم ما كان يجب عليه  
عمله ، وكيف يهتم بإضافة إلى دراسته .  
ونسب منهمك دائماً في مذاكرة دروسه ورعي  
الأعمال .

ويكنه أمي أن تقوم بدورها في أعباء المنزل  
فمن ذا الذي سيهتم بي هذه هي المشكلة..  
فلو أن أحداً فعل لأجاني أين ينتهي الجبل الأخضر؟  
قال عمي عدي غادي ولم يكن ناصر موجودا  
ونيس قال عبد البحر تعجبت  
ألا تساوي عدي عادي عبد البحر  
اسطرب اليوم الذي أخرج فيه إلى الرعي أتجول  
في أنحاء الجبل  
يعلمك البرد قبيحت المطب الجاف  
يعلمك المطر كيف يغسل الجبل، ينظف حجارته،  
ينقى هواءه  
يرمض أوراق الشجر والأعشاب اجبات اللؤلؤ  
كنت لأترك لأقدمي كل رايتي وهضبة حتى أبلغ الأفق.  
لكن عند آخر بيوت التنك يصعب ما عدا ذلك فحرمنا على  
البدو يخطفون الأطفال، يأخذونهم للحضر

في الصيف يبدأ موسم اللعب ، الرجال والعجائز يلعبون  
السبجة

تسعا وأربعين حانة ، أنا أجيدها عندما تكون ضمناً  
وعشرين

أصنعها من الأجر ، أجعلها مدورة في حجم عطاء  
البيبي

إذا قررنا اللعب أخرجوا من حيث جأتنا وأسرع في  
العودة

سأكون عازماً على هزيمة أحدهم ، ذابرة جمعة  
المتحرف

في أحد الأيام سرقتهما صديقتي !!  
ثنو العمل مع القردة الصغيرة ، أصربوا ؟ نسقتلني أمي .  
وكلنا إلى الشيخ عشان يأخذ حقي منها  
ضحك عمر ويامر ووييس ، وغضيب امرأة أبي  
أمي لكزنتي في خاضرق ، ماذا سيفعلون بي لو كنت  
ضربتها أتعدت وذهبت للجلوس بجوار ونييس .  
بعد أسبوع أصيبت بالحمى كيف أتوقع أه الشيخ عمار  
سيهونم بطل ، وليستحب لأميتي

حملتها امرأة آى إلى المستشفى العام  
استأب كثيراً ، وطالما قصت أمى أشياء كثيرة منه ،  
ولم يهجم

حق أنا طلبت أن يكسب فريدى فى الكرة ، وخسر  
فلماذا يستجيب إلى هذه الأمية الشريرة ؟  
صيم الحزن على المنزل ، وعفوا يودعونهم على باب  
الحوش

قبل أن تركب صديقة الشاحنة

نادت على امرأة أبى تعال يا كهيبة

لم أختره من مكاي أنا أعلم أن الجميع غاصب

مى بدأت فى البكاء قالت تعال ما تخاف ..

اقتربت خائفاً وضعت يدها على كتفى ، قالت

كهيبة سامح أختك صديقة على ما فعلت

وسأضرك فى صامة من غرامة . فقلب لوجا لا

أريد شيئاً يا حنا

تم أنا لم أقصد أن يضرها السيخ عثمان كل هذا الضرر

قال باهى ادعى ~~أمن~~ وشفيها فهو يستجيب إلى

دعاء الصغار.

ولتسئروا ؟

ثوب الأطفال أحبب الله .

بأبي تروانا نذهب للصلاة ، وغادي أحلى لها كل يوم  
ركعتين

شرعت في الصلاة وكما مسجدن كان محبلة صلت  
بصدقته وضامة في الليلة الأخيرة ، كانت تبكي من كل  
جسدها

لم أسترح إلا عندما عادت

اجتمع حولها كل إخوتي ، أنا فقط الذي بقيت وصيدا ،  
كنت متأكدا أنها ما زالت غاضبة مني ولكن ما ذنبى أنا ؟  
لقد سمع الشيخ عثمان أمياني وأهتم بها أكثر من اللازم .  
لمحتلوا تفارقهم جميعاً ، تقدمت نحوى وفي يدها  
علبة جميلة

وقفت أجدقها مسحورا وهي تعطينى كل الأمل  
ضامة ودومينو قلت لا أنا ما نيش شرع  
قال خذها بدلاً من قطع الآر التي ضاعت  
أستطيع أضيع غيرها ، ومن ناحية أخرى تروانا

نلعب الكرة مع جماعة المتحرفين  
 بان على وجهها الغضب وقالت اشترى بتعالله  
 وتوانت ما نبيها  
 استدارت الى أمها تصيح ما يبش يأخذها  
 لاحت نظرات أمي تكاد تقتلني قتلا  
 صرحت خوذ الذهب من أحلك يا تيس  
 وقامت الى وض عيونها شرويا لطيف منها ساعة شربها  
 قلت مسرعا سأخذها لبش للمشاكل؟  
 بابها سأخذها أنا فقط كنت أريد أن أوضح

قال جدي: لولا الأعمار لمتنا جوعا  
 نظرت إليها في امتنان وشكر، وامتلأ صدري لها بالحب،  
 وقلت في نفسي: لأعتني من الشيخ عثمان أن يبقى عليها.  
 ويزيدها صحة على يستجيب كما استجاب لدعوتي  
 الأخرى المشؤومة

إذن فهي الحرب

لم تعد صورة جمال عبد الناصر التي لدينا الصورة الوحيدة  
في القبة ، بل صار منها كثير واجد . في حوسا  
الشخصي والعوام احواس كثيرة صارت تشيل  
صورة الملك وتعلق صورته

إذن فهي الحرب

قلت لنفسى باصر أكل الآن فالهرب لا تغنى عن  
الأكل

على مائدة الطعام تذكرت بنديقه أبى ، ضغنت باقى  
أجابى دون أن يلتفت الى : . أيش تبي يا تيس ؟  
قلت وأنا أتوقع منه الاصتمام تكارب اليهود ؟  
قال وهو يلوك طعامه فى هرود غريب لا  
صدمنى شجرت بالاستياء كيف ؟

كنت قد تخيلت التجربة التي سترسلها القبة الى  
الحرب

تضم الجيع

البوادى على الخيول تتقدمهم الرايان

الحضرة في تكات الدبايات والبنديق على أكتافهم  
لكن ما يكون باي معهم !!

هذا يصير عار ما تتعلمه العيلة ولا تتعلمه الزواوية.

وتشوفن فعل ببندقية؟ طبرت لي فكرة

قلت باهي باي توأنت ما تحتاج ببندقية؟

أجابني بذات الطريقة الباردة وكأنه لم يفهمي: لا

باهي أقصد إذا ساءت الأمور وجاء اليهود هنا

سأخذها لم يجب، تجاهلني تجاهلاً فظيماً

رأيت اللعينة صديقة بكنتم ضحكيتها

صرت أسنان وأنا أقول القزدة مبسوبة

أنا حميدة ما أياس ذهبت لعمرك لا تنك سيهاتم

وكان بمفرده

سأنبهه إلى أمور طاهرة هل سيكفر اليهود هنا؟

أجابني لا

كانت هذه أيضاً مشكلة قلبي الأمور رأساً على عقب

فإذا كانوا لن يحضروا هنا علا داعي للبنديقية، طيب



عليش كل هاذي الصرجة .. قررت أن أقول ما أعتقد،  
فقد يأتي اليهود على غرة  
أقول لوجاء اليهود مثلاً، علينا أن نتأكد أن هناك  
خرطوشاً كافياً للبندقية  
حذق في قليلا ثم انفجر في الضحك، وسارع ينادي ناصر  
وونيس، يقول لهم التيس الصغير هذا يبي البندقية  
والخراطيش بيتش يجارب اليهود

هكذا عمر يسخر مني دائماً، تركته غاضباً، وأفتحت  
ألا أتدخل في هذه المسألة بعد الآن  
ومخافة قامت الحرب، تطلقنا جميعاً نحن الذين نسكن في  
القبعة على بعد كيلومترات من الطريق إلى جبر بها الملك  
حول المذيع، نخلل فرجين، نتابع سقوط الطائرات،  
كان منا الكثير الذين يهوبون أنظارهم إلى السماء بحثاً  
عن الطائرات التي تعاوت  
ولكن كما قامت الحرب سريعاً، حل الصمت سريعاً  
لتأتي بدل الطائرات الأعنام

كنت أول من سمع عناء ~~الخصام~~ أول حمل لأغنامنا

هذا العام

باء باء أناهنا باء باء جئت استيقظوا.

عدود خارجاً الى زرائب الأغنام وعلى باب الحظيرة وجدت  
التعجة مستلقية على الأرض تخور، والحمل يتعثر ويتبرخ  
بحلول الاحتفاظ بتوازنها حتى وقف

وفي اليوم التالي حدث هذا ثلاثين مرة، لم أر مشاعر  
أسى تجاه مفارقة عائشة لنا بعد أشهر قليلة إلا هذه  
الأيام، المشكلة أن الأمهات إذا عانين مشاكل في الوضع  
أو الرضاعة تعان ولديها من فورها، ويصبح الوليد  
غريباً بلا أم، لا يجد لبناً يأكله، كلما اقترب من  
تعجة ضراقتا ملتفتين باللبن رفضته وفسدت قويه، فلا يكتم،  
فينال الضربات المتوالية حيناً بالرفض وحيناً بالنطح،  
يجتار الجميع، هذا يخمن وهذا يقول العمل جوعان  
يتاعى ماء ماء عايز آكل عايز آكل.  
في النهاية نالاً لعائشة، فهي قوية الذاكرة تعرف كيف  
تعالج الأمر

تضع كل حمل أمام أمه ، تلعب الأم بعبيده عنه ، ثم رأسها  
تنشبه ، تسترجع رائحته بصعوبة ، ترضع رأسها ، وأخذ  
في النخير والصلاح فرحاً ويذم مع أحيط الوليد ، ثم يبداً  
في البحث عن طعامه في صررها على الفور يدفعه الجوع ،  
جوع ونهم شديد

كان احتيار عائشة صحيحاً  
صاحت أمي فجأة: تواسن لديروا العام القادم ،  
صمت الجميع فالعام القادم سيأتي ، وعائشة في بيت  
زوجها ، قال أمي أنا نقول لباتك انك لسه صغيرو  
بيش يوخر جوازك

صوت أمي هادي ريد تزكنا اليوم قبل بكره أنا  
درب

استشاطت عائشة غضباً ، قدفتني بالإساءة الذي في  
يدها وهي تبغري عدي ياتس ما قرد  
قالت أمي بغضب ردي بالله عليه شويه ..  
قالت في غضب: تشهد بالله ، السجر أحسن من أمها  
قالت امرأة أبي نكاد تستلق على ظهرها من الضحك  
أبوه . صار هي يا حيا البيت ما عادت تبي رطل معنا  
. هيا لك يا مفتاح

عندما بطقت اسم مفتاح ضحكك الجميع، يبدو أن أعصابها  
لم تعد تتحملها ، فاستدارت تحت عني ، وكأني السبب  
في كل هذا ، جرب حلقى تقذفني بالطوب ورضيع  
أنت السبب يا تيس .

جريت أصرخ بأهـ .. بأهـ يا عاتشة أنا ما تأخذن  
في هي بعد اليوم .

الصيف الأخير الذي اجتمعنا فيه معا زادت مشادات  
عني عمر مع أبي أبي يريده أن يعمل بي بالكسارة ،  
ويذكره كل مرة أن امرأة أبيه طردته من الكوش ،  
فخرج إلى الحياة ليبدأ من الصفر . وناصر بدأ يستعد  
للإلتحاق بالجامعة

ذات يوم جاعنا خطاب بكت بسببه أمي كثيرا ، ونيس  
يسافر ~~لأوروبا~~ لسبع تسعين ما نشقونه أمي  
تكي وروئيس يضحك ، وابتسامته على فمه عن آخرها  
سألت ماذا حدث ؟

ونيس يبرس الطيب .. لسبعود لخصيا . كان أمراً مبهرًا  
حقاً نظرت إليه بفض ، ها دعوا لا يخيب ظنوننا

تخيلته وهو يرتفع عاليا في الطائرة يعبر الجبل الأخضر  
والبحر لبلاد بعيدة ثم يعود وهو طبيب قلت مرضيا  
نفس باه تجيي كل أسبوع

بنت الأعراف

لا! لا ما جى إلا فى ضاية العام

استأت ما فيكم غير عائشة تجيء مرة كل أسبوع

قالت له أيضا سوف تأتي إليها كل أسبوع

حظ ضحكوا وقالوا حق ولا عائشة

جلست مصدوما ، أردت أن أتأكد فسالته: شنو؟

قال الفتاة وين ما تذهب حوش زوجها ماتشوف أهلها

بوكل

تخيلت الحوش خارجا حزنت حزنا تنديدا لن تبقى

سوى هذه القرية المشاكسة، والتي تحب أمها أكثر

من أمي..

وحيدتي أذهب إلى ركن قصي وأبكي.

يد حانية شعرت بها تربت على ظهري، رفعت ناظري

كان ونيس.. كيف عرف مكانى عشان هكى أنا حميدة

تحب ونيس وما أبغى أصير كيف عمر بكل ..

لمحته وأنا جالس القرفصاء، كان لحويلا فارعا ضحكا،  
هو الوحيد من فريقنا، وعائلتنا وكل قبيلتنا لبيدها  
إلى ألمانيا

يجب أن تفرح لس  
نعم أنا سعيد لكنك ستغيب كثيرا  
جلس بجاني ووضع يده على كتفي: سوف أرى الدنيا.  
تتركني مع هاذي القردة الصغيرة  
معه أمه وباتك وعمر  
عمر لا يهتم ولا بنفسه  
بأها تعلم كيف تهتم بنفسه  
فكحت عيني مندھشنا، فكرت  
لقد كبر ونيس وها هو يدوي في حكم وأمثال.  
قلت: وحدي!  
نعم عليك أمه أن تجد لنفسه مكانا  
أأست صغيرا بعد؟

لا بلغت الثانية عشرة من العمر، ستدخل العام  
القادم المدرسة الإعدادية، ولكن مشغولا عن المنزل

وعن صديقة

يألها من مسكوبة للضعفة لا ساكون مسؤلوا  
عن نفسى فقط ، فصديقة رأسها مثل الحجر ولكن  
علام الكديت ، لقد رطت ها الأخرى فى آخر  
العام مع أمها إلى الحضر ، وبقيت أنا وأمى فى القبة

ولآن حان وقت الخروج إلى الجبل الأخضر، فى العاصمة  
مبجا استيقظت مسرعا غسلت وجهى ورأسى  
بالماء البارد من العين ، ودخلت مسرعا على صون ابى  
يدعون للإفطار ، وكان هناك محمد عمر وونيب  
وكان ناصر ذاهبا إلى العاصمة، ولن يوجد قبل ثلاثه  
أيام ، وحين خرجنا أعطتلى أمى جوابا علقته بكبل  
حول كتفى ، وقد كدسته بالخبر الطازج وعليه ملافا  
بالمكرونة والفاصوليا والهريسة

كانت هناك وطع من اللحم ضحيطا لى بمناسبة خروجى  
إلى الرعى للمرة الأولى ، وفى جراب محم كان هناك كوز ،  
وخبز وسكر وشاى لهذا كان طعام اليوم وشرايه  
أنا حميدة أذكر ذلك جيدا أذكر وسأظل أذكر

ما إن خلف القبة ورائك، وتيم جهة الشمال، ونحرف  
تقليلاً جهة الغرب، حتى تجد أجمل ربيع في العالم  
حيث تمتد سلسلة هضاب متوالية في عبر نسق  
كأن الطبيعة لا تصوى القائل  
لن يكفك أن تراه بسهولة  
بل عليك أن تبحث في كل مكان وكل قطعة هنا  
يا الله

هضاب تتخللها وديان مبهجة تبدو كأحافى متطاوّل  
يديك  
ثم ها هي فجأة تكسف عن هاوية لا قرار لها  
عندها وعلى سفوحها تختلط الصخور بالتراب  
الطينية الحمراء بالعشب الأخضر بالشجيرات بالأشجار  
بالأفق

من يستطيع أن يرسم هذا ؟  
شممت الهواء مغسولاً بمطر الشتاء  
شممت الهواء قادماً من البحر  
رأيت الأرض تخفى بيبير مرتين وثلاثاً وعشراً وخمسين  
بلا خطابة



فجأة تصعد مدارج العشب سلسلة الجبال العالية  
والوديان السحيقة

أصع أصابعي الصغيرة على أديم الجبل

أشعر به كأنه يتشكل بها

بخفي لها ، برصخ لرغانتها العائنة

أركض هنا وهناك وأعود أنتم راحة الأعمام وعبق

رونق الطازج

مع عمر أشعر بالأمان لا أخشى الذئاب مثلاً ، بالرخ

من أنه يصعب على التفاهم معها

هو عادة يأمرني أحضر هذا وأجلب ذلك .

مع ونيس وناصر يمكن التفاهم

عندما بدأت السير سألتني عمر ~~ميو~~ مبسوط بالرعي؟

قلت كما سأ نعم وأنا أبغى الخروج كل يوم

ضحك وتيقنت أنه يسخر مني

ما هي تواترعي الأعمام وحدهم خلى بطنك يفرح بيك .

لم أخهم مقصده سألته ليش تسخر مني دائماً

إن عليه التكرار والحد وقال: ليش تلحن هكي .. توأنت

صغير ، كيف نتناقش أنا وياك .

اسرحت قليلا لتبريره وقتل باهي ولشوق قصده  
أجابني بحديث الأمر بسيط ناصر وونيس راحلين،  
وأنا لن أبعي أهدنا ، وهن بانك هار لأول مرة  
بواجه هاذى المساكل العويصة  
ما تحب رعى الاعنام ؟

لهذا عمل يقوم به هار أو بغل صغير الولد اللي  
ما يروح مدرسه ، نعلمه الرعى ، أنت لازم تنسبه لدروسك ،  
إحنا احتاج توار متعلمين ومثقفين

أردت أن يعترف بحال الجبل الأخضر، قلت كحمار  
حرون ولكني أنا هميدة ما أتزل الجبل الأخضر  
إهي أبقى صاوسب مثل الحمار، ما تعلق شي، سأي  
نزيارتك بالعطلات

استأت فقلت غاصبا أنت ما تحب الرعى وما تحب الجبل  
ومنو التيس اللي تحب فيهم ؟  
تعزنت في التعبير، بعد فترة صمت قلت وأنا أكاد أبكي  
ليتني تريد تزكنا ، ليتش كلكم تزكوما ؟  
قال برصامة وحد توار السمط بصير ذهب ، يرمونه  
من الخضرة على الطريق، أظن أنه يجب أن يكون دسالة

من يلتقطه، أما الجبل الأخضر لهاذا ببقية العشاق  
وقارئ الروايات الغرامية ورعاة الاعنام أمثالك  
توا من الآن فصاعدا تصير الصحراء أجمل عشرات  
المرات من جبلك اللعين، وتوا انزكنى واهمت شوى  
لم أكن أتحدث معه ثانية بعد أن أماء إلى مشاعري وسفه  
منها، ولكن كآب حصاله القبه، لم أعرف كيف استطاع  
عمر أن يفودنا بمثل هذه الطريقة التي جعلتها تبرز  
مجاهة، ولم أستطع أن أكبح جماح نفسي عن حوشنا  
الآن، وعن العشاء الطازج الذي ينتظرنا نحن الذين  
قمنا، كل هذا العمل الشاق، وأمسكت بجراي وأنا  
أطوح به فوق رأسي، وانطلق أعدو في سرعة هائلة  
خو الكوش.. وأنا أرمح كما الكه جواد يرمح رماحة في  
ميدان الحرب وتابعت قدماى الصخور والأحراب  
تتلوح من تحتى، وأنا مشتاق لوجه أمى وصدر  
عائشته

كنا نرض أن نمر هو آخر من يغادرننا، بل إن أبى كان  
يستبعد ذلك تماما، ماذا يستطيع أن يفعل دون شهادة؟

هل سيحل كاتباً؛ أمرآه مشيراً للصحة أو الإشفاق  
ولذا صعظ عليه بشدة كي يبقى وده وليدير معه في  
الكسارة ، ولم يكن أحد يظن أن عمر قد يستخدم أسلوباً  
سعيدفع أي إلى الاستسلام - أحصرا  
أذكر يوم خروجنا من الثلاثة، أنا وناصر وعمر، حيث  
تغافى عمد ( عن ثلاثة أعنام )، عرف أي ناصر يوم أن  
حدث عمر، لكن ناصر فرغ صبره وأجيراً قال: ما نخرج  
في ، هو تغافى عن الأعنام - يقصد عمر نبي الحق تصرف  
امعاه هو اذا يفدر. وخرج ناصر اطلاقاً عن الحوس  
لأحد أصدقائه

في صباح اليوم التالي جهر عمر نفسه للرجل ضائياً  
عن القبة، بدأ أنا وناصر نخرج الأعنام. وبعد  
أسبوع واحد قابلنا أبي في المدينة عشرة ظهراً يقود  
شاحنته، ~~وهو~~ ومن الحلف أطل علينا وجه غريب  
تشع نظرات ~~عينية~~ عينية بالذعر، كان أي  
قد دخل الحوش وقد نسيه، فقد عاد وهو يصيح بالرجل  
وبلغة غريبة لم أسمها من والدي من قبل :

الرجل عم أحمد

عمر الرجل أسمر على وجهه ملامح تعجب وبؤس  
لشد يدين، تبرز من صدره حواف جلاليب عديدة،  
ارتداها واحدة فوق الأخرى، في يده الله اليسرى مبره  
وباليمين صندل قدم مهري، نظرت إلى قدمه، كانت  
عجاء منسفة كعجلة سيارة قدمه وقف مرددا مرعوبا  
مثل مار وقع في فريسة ققط موحشة سمعت أبي  
يادي على ناصر وأشار إلى الرجل المصري هذا خذه  
للبراقة، حل عاتسه بحصر له ببس يأكل، عدى معاه  
يا عم أحمد بدا أنه لم يفهم ما يقصده والدي، ورضي  
أبكم عبط أبي عليه عدت معاه  
سار الرجل خلف ناصر، وكفاه متهدلتان أسرعت إلى  
أي أسأله تشوباني مصري هذا؟

أبوه

أينش تشوبك بيه؟

يرحم الأغمام بدل التيس عمر

عندما حمل ناصر الطعام إليه، وجده نخل في نوم  
عميق. حاول أن يوقظه لكن أي معه: المصري

هاذلكاه مسكن ، جاء سيرا على كراعيه من مصر  
صاح الجميع معقوله "

أيووووه مصريين واحد في على طريق الساحل  
وليش لا ها دول خيرا في الجري كيف ما جروا اقدام  
اليهود كيف ما يحي جري كدها  
مع هم معي هم أهد حاجات كتيرة واحد بغيت ، وبعد  
سنتين ، دخلت الجامعة هضرتنا جميعا في منزل أخي عمر

في الجامعة التقيت مفتاح إسماعيل والنقطة أخته زاهية  
مات مفتاح بالرياض يوم اتكلمت اللجان الثورية بقيادة  
نائب الزعيم الجامعة وهما تطلق الرياض ما تفرق بين حد  
وأنا حبيبتنا عشقتنا

كنت أخاف مصري يكون نفس مصري ونيس . كانت تظن  
تقول الهمن واحد إنا نتبع منك آخر الدنيا  
أنت دير بالك على حالك وأنا وهبت لك نفسى  
ما أنا محتاجة موافقة باقى ولا حد  
أحس عطائي لك وبعد سن قتلوه  
ما انى محتاجة موافقة حد بعده .

في البوادي وبين ما كنت هربان  
صاداك اليوم الذي حضر فيه ونيس وعائشة  
وثريا والعريضة.

صالح وبين ما تتدى الكتيان الرملية  
حين ما تسطر على الصحراء والوجود  
حين ما تكون زرقة السماء عظامها  
والشفق الأرجواني ملء النظر  
وهبتني نفسها

أنا حميدة بوزوي وهبتني زاهية إسماعيل نفسها  
صبرت ما بنى شيئا لأنه ما عاد هناك شيء أبغاه..

زاهية عطيتني الوجود عطيتني الحياة  
مين تهلك من تكب نفسها

مين تمير أنت وهي واحد  
مين تكل فيها وتكل قبلك

ما يتيقن غير الخلود

هكي أنا حصلت الخلود إمعانا.. زاهية إسماعيل.

أنا مروحي تمنيت الموت من مرط ما خدت من الحياة  
أيش يده يصير لإذا سمعت كلام محروسا سمعت نفس؟

يجذبون يسجنوني بصوت  
كيف ما يكون

هاذي الصحراء

هاذي البوادي

هاذي الجبال

صارت أنا حميدة بن الحاج مفتاح بوزوي  
وصيرت هي صيرانا واحدا ما نتجراً

هكي قاله فارس العرب «علم»

هكي قالت ملكة البربر «طلعله

إذا بتريد الحياة ؛ أطلب الموت

وأنا حميدة ما عدت أهتم

بيش أنا

بين البوادي والسحر

على أطراف السماء وحد الفلا

حصلت حريتي وما عدت أبغى شيئاً



إذا كنت تريد الحياة: أطلب الموت..

ها قد أمضيت سبعة أشهر كاملة حتى حصلت على الإقامة. وعندما وقعت العقد فوجئت بكارثة محققة. إذ أن راتبى لم يكن يتجاوز ثلث ما يحصل عليه زملاء دفعتى في التخرج لنفس العمل بحجة أنني حديث الحضور. وعندما تسلمت حقوقى المادية أخيرا عن الفترة التى أمضيتها دون إقامة «سبعة أشهر». دون راتب وجدتها لا تكفى كى أسدد منها ديونى التى استندتُها من أقاربى طوال الفترة الماضية.. لعنت الحياة والدنيا.. فهذا نفض أسود من السواد.. أى نوع من البشر أنا.. إذا كان الموت ما يريدونه لنا فليكن بئسرف.. كنت قد لُحِت على شاشات التليفزيون بعض الزملاء من مصر.. ما الذى جاء بهم هنا.. علمت أن هناك أحد المؤتمرات القومية. فقررت أن أرحل خلال أيام للعاصمة والذهاب لتحتيتهم.. وعزمت بالمرّة المرور على الإدارة الطبية العامة للبحث فى حل مشكلة راتبى إما أن يرفعوه أسوة بمن هم فى خبرتى أو أغادر نهائيا. وليكن ما يكون..

\* \* \* \*

فى العاصمة لم اجد صدى لمطالبتى بالمساواة فى الراتب. لا بد من الرحيل اذن ومغادرة البلاد.. وقيل أن أستخرج تذاكر الطائرة. أجزيت اتصالا مع صديقى الأستاذ محسن الجمال رقيق الحركة الطلابية فى السبعينيات وأحد قادة الاتجاه الناصرى بجامعة عين شمس. وقد أصبح من كبار المهندسين العاملين فى الخليج. شرحت له الظروف فى ليبيا وسألته عن إمكانية السفر إلى الخليج فوعد بالرد خلال أيام.

وبينما أنا فى انتظار رده حتى أحدد محطة سفرى القادمة من طريق الغربية الطويل قررت العروج على المؤتمر لمصافحة الأصدقاء.. وهناك قابلت الشاعر الكبير عبد العاطى سلام، والأستاذ الفنان عبد الرحمن جمعة. وقابلت زميل الدراسة الدكتور عادل مندور.. كان هو الآخر أحد قسادة الحركة الطلابية السبعينية. والترزعم للاتجاه الماركسى فى جامعة عين شمس. وكان يتمتع بذكاء حاد وشخصية كاريزمية هائلة..

وفى الكافيتريا فوجئت به بتجاهلنى تماما عندما حاولت مصافحته. واضطر عندما فرضت نفسى عليه أن يوضح أنه ليس الشخص المقصود.. فى اليوم التالى قال لى فى مكان منزو أنه دخل البلاد بدون تأشيرة. يومها دار بيننا حوار طويل.. وبعد أيام قليلة اتصل بى محسن الجمال وطلب منى أن أذهب لتقابلة أمين المؤتمر الشجعى العربى.. قلت لنفسى لن أخسر شيئا وذهبت للمقابلة.

فى مكتبه التقيت بمدير مكتبه وطلبت منه أن يبلغه بحضورى.. كنت أشعر أننى أعرف هذا الرجل فهو مصرى وملامحه ليست غريبة على وأثناء دخوله لإبلاغ أمين المؤتمر بوجودى ففز اسمه فجأة إلى رأسى هذا هو الأستاذ (غ شكرى) المفكر المصرى المعروف والذي كنت أقرأ مقالاته بعناية فى مجلة الطبيعة والكاتب وأرى صورته أحيانا فى الجرائد.

انفتح الباب فجأة وجاء نحوي الأستاذ ( غ ) قائلاً بأدب جم تفضل وظل مسكاً بالباب حتى لا يغلق قبل دخولي.. تقدمت حيث يجلس أمين المؤتمر الشعبي. صافحته وجلست وقبل أن يغلق مدير مكتبه الباب طلب منه النضيف ألا يسمح بدخول أحد وألا يحول له أي مكالمة تليفونية. طوال فترة وجودي.

بدأ الحوار الذي استمر قرابة الساعتين بأن أبدى الرجل السياسي المرموق اندهاشه لأنه سمع باسمي من طرفين كل منهما قيمة كبيرة في حد ذاته. وكل منهما يمثل تياراً فكرياً مستقلاً وكل منها تقييمه سلبي للآخر. الشيء الوحيد الذي اتفقا عليه هو الاحترام والتقدير لاسمي المتواضع وسمي لي هذين الشخصين وهما المهندس محسن الجمال والدكتور عادل مندور الذي ذكر له اسمي خلال نقاش جرى بينهما أجهله..

ثم دار الحديث حول القضايا العامة وهموم المنطقة وكانت فرصة أن أنقل استيائي من ظهور خريطة مصري تليفزيون البوادي مظلمة باللون الأسود. والحديث عن القاهرة باسم العاصمة المقهورة. فهذا لا يلبق بمكانة مصر ولا بدورها التاريخي. حتى ولو كان هناك عداء مرحلي مع نظام الحكم القائم فيها.. فالنظم زائلة ولكن تبقى الأوطان..

وانتقل الحديث إلى استيائي من موضوع المرتب فابتسم ومد يده وجذب ورقة من مكتبه وبطريقة لافتة للانتباه مهر توقيعيه عليها. رفع رأسه وقال: إنسى اللي أنت بتقوليه. وهذه ورقة بيضاء عليها توقيعيني أكتب الرقم اللي يخطر على بالك وأنا موافق بس تشتغل معنا..

وبينما كان يشرح لي الحوار التي ينحرك فيها المؤتمر الشعبي العربي. تمثلت أمامي جثة حميدة المدلاة من أعواد المشانق.. ما قد جاءت لحظة البيع وقبض ثمن الصمت والسكوت.. كم يساوى

ثمنك يا فتى؟.. ليس الأمر خالفات العقيدة ولا النضال من أجل الحرية. ولا الكفاح من أجل قيم العدالة والمساواة.. شعرت في هذه اللحظة بطعم الخيانة ورائحتها تخيم على فضاء الغرفة

سمعته يقول وقد أصبح يفصل بيننا جثة الفتى: لدينا ثلاثة محاور المحور القومي ومحور القضية الفلسطينية ومحور الفكر العقائدي النظري..

دارت أفكار كثيرة في خاطري أحل مشاكلي جملة وتفصيلا أم أختار شرفي.. في الحقيقة كان المطروح على الطاولة شرف آخرين..

شرف وطني..

شرف تاريخ الحركة الطلابية. شرف رفاق ناضلت بينهم وناضلوا معي قرابة عقدين من الزمان..

شرف ونيس صديقي الضائع بين متاهات الحداثة النفطية وأصاله تراثه البدوي التاريخي..

شرف حميدة الذي قصف عمره عشقه للحرية. وظن للحظة أنه يمكن للمعارضة المصرية أن تحميه لكنها تخلت عنه..

وكما أن الخيارات التي عرضت على طيلة حياتي كانت قليلة ضئيلة.. كان خيارى ليس معروضا على الطاولة.. سرحت وأنا أنظر إلى اليد الممدودة لى بالورقة البيضاء إلا من توقيعك أتساءل كم من هذه الأوراق وأشبابها مرت من هنا.. وكم هي الأوراق التي حُطت عليها أرقام تجاوزت ستة أصفار حملها رجال جلسوا في نفس المقعد وغادروا ومعهم أوراق كتلك. بعد أن تركوا حريتهم هنا وإلى الأبد.....

كانت المفاجأة غير المتوقعة بالنسبة له. هو أنني شكركه معتذرا عن عدم قبولي عرضه السخي. قلت بالحرف إنني قادم من

مصر لأعمل هنا طبيباً فقط.. وبحكم كوني من المعارضة في مصر  
وإذا أعطيت لنفسى ما هو أكبر من حجمها فسأقول إن غيابى عن  
مصر يخصم بالناقص.

في هذه اللحظة سمعت ظرقات خفيفة على الباب. ثم دخل  
المفكر القدير الأستاذ ( غ ) مدير المكتب بهدوء شديد ليقدّم للرجل  
إحدى الأوراق وهو ينظر إليه بغضب للمقاطعة. مر على الأوراق  
بعينيه بسرعة وتمتم ببعض الكلمات التي تعنى عدم الاهتمام..  
وبعد خروجه التفت إلى قائلاً تعرف من هذا؟  
قلت بالطبع ومن لا يعرفه. لكن من المفروض أن تسأله هو إذا  
كان يعرفني أم لا؟.

ترى تظن إننا نشترك كيف هاداك.. أنت تفكر أنا نشترى فيك..  
هذا خطأ وأجد. أنا وأنت عرب ناصريين نصير ونسير معا يدا بيد  
على طريق الزعيم الخالد جمال عبد الناصر.

قلت وأنا استجمع قوتى بصعوبة لى أصدقاء وطنيون شرفاء.  
قاطعني قائلاً بسرعة «أيوه وهادى معروفة أكو شرفاء من كل  
نوع.. حتى الحمير بينهم شرفاء.. صعبة هادى مو صعبة» لكن أنت  
تقول إن غيابك عن مصر يخصم بالناقص أعلم إذن يا رفيق أن وجودك  
في البادية بحسب الزائد. لدينا آلاف الأطباء ولكن ما لدينا مناضلون  
ثوريون من أمثالك كثير رفع الورقة ودفعها أمام عيني وهو يردد  
بهياج أن أضع رقما أى رقم وسيستجيب له دون مناقشة..

شكرته مرة ثانية ورددت بالنص «إن وجودي في البادية لا يمكن  
أن يحسب بالزائد. لأن الثورة في البوادي والحضر في الحكم. تمتلك  
السلطة. وبالتالي هناك الكثيرون حولكم من هم أفضل مني. من  
يقولون لكم ما تخبون أن تسمعه.. وأضفت ثم إنني مستمتع جداً  
برؤية التجربة هنا. وأعتقد أنني أراها بأفضل بما تراها أنت..»

تراجع مندهشاً ينظر نحوى وكأنه يسألني كيف.. فأكملت

«أنا أرى أن في بلاد المادية مجتمعين متضارين على طول الخط.. ولكنهما اتفقا على التعايش وتقسيم الأدوار بينهما.. الثورة لها ميكروفونات الإذاعة وشاشات التليفزيون وصدارة المؤتمرات.. والثورة المضادة لها بمقياس المجتمع بأكمله.. والطرفان تعايشا على ذلك ورضى كل منهما بنصيبه.

رأيت طيفاً من عدم الارتياح على وجه الرجل. أحسست به ينهي اللقاء طالباً أن أعطي نفسي فترة أفكر فيها جيداً ثم أعطيه الرد النهائي.. والذي لم يختلف بعد ذلك عما قلته في اليوم الأول فوعد بغير حماسة أن يتدخل لتسوية المرتب. والذي لم يتجاوز في النهاية نسبة 75% من راتب زميل التخرج. ولكنه على الأقل ارتفع إلى نسبة من راتب..

لم يكن لدى خيار سوى القبول ولو لزمين قصير أنهى فيه بعض الضروريات الحياتية. قبل أن أخوض رحلة جديدة في رحلة اغترابنا نحن المصريين.

عدت لغرناطة حيث لاحظت أن شيئاً ما تغير في دكتور ونيس. هذه المرة استقبلني بطريقة أقل بروداً. وبدأ أنه توقف عن تناول الخمر أثناء العمل. انعكس على تصرفاته بعصبية. فكان يثور لأنفه الأسباب.. أعطيته دفتر المذكرات الخاص بحميدة. دون أن أثبت بكلمة. وهكذا بقيت علاقتنا فاترة يشوبها البرود. طبيعي فثمة جسد حيا معلق بيننا في السماء وعلى مشارف الصحراء لا يمكن عبوره.

لم أحاول اختراق الحاجز الصلد الذي أقامه حول نفسه. وفي إحدى العمليات التي جرت مؤخراً وأنا عاكف على تجهيز أوراق عودتي للوطن. ثار دكتور ونيس في إحدى ثوراته التي كانت قد بدأت في التلاشي. أسرعت على صوت الضجة القادمة من حجرة العمليات. وجدته يقف خارج الغرفة يقذف بطاولة الأدوات في جميع الأنحاء. وحوله الجميع يقف لا يجرؤ على الاقتراب أو الهمس.. وفي ذروة

غضبه طلب أن يعطيه شخص ما كوباً من المياه.

خديجة بن حنيس التي أصبحت طبيبة جراحة بامتياز. تلازمه أغلب عملياته. تنظر لبراعته بإعجاب تجاوز القداسة. استندارت وفي لحظة كانت تحمل بين يديها كوباً من المياه الصافية. لا يعرف أحداً من أين جاءت به.

تناول الكوب برعونة ويده تهتز بشدة. شاهدت المياه تسقط على ثوبها المصنوع من الجبردين. ليلتصق بفخذها. رأيته يركع مضطرباً دون أن يهتم بالمخلفين حوله من طاقم العمليات وأهالي المريض. وهو يعتذر بغضب عن رعونته. وشرع يجفف المياه عن ثوبها في واحدة من اللحظات النادرة التي استعاد فيها ونيس المدمر ونيس القديم.

كانت خديجة تبتسم بحياءٍ وعندما انتهى ووقف يعتذر لها هامساً: اعذرنى دكتورة خديجة أنا أسف واجد..

وللغراب رأته يحدق بها مبهوتاً. كانت تهمس له بوداعة:

طاسة أصحاب الصوب      ملايين غلايين بددت

لقد بدا لي في هذه اللحظة غريباً تقاذفته الأمواج والعواصف  
النائية طويلاً. وما هو يتطلع لجزيرته التي أطلت من قلب الرياح  
والغيوم والظلمة بعد طول عناء. سمعته يسألها مستفسراً:

شنو

• هل تعرفين أغاني " العَلْمُ " •





# فتحي إمبابي

روائي وكاتب



**المؤهل:** بكالوريوس الهندسة المدنية - كلية الهندسة -

جامعة عين شمس

دبلوم تخطيط نقل - المعهد القومي للنقل - 1986

دبلوم تخطيط أنفاق - ألمانيا الاتحادية - 1988

**المهنة:** خبير أنفاق - مدير عام الهيئة القومية

للأنفاق

**الأعمال الإبداعية**

العرس - رواية - 1980 طبعة أولى - 2000 طبعة ثانية دارميريت

نهر السماء - رواية - 1987 عن دار الفكر المعاصر  
مراعى القتل - رواية - 1994 عن دار النهر  
حاصلة على جائزة الدولة التشجيعية  
أقنعة الصحراء - رواية - 2002 عن دار ميريت  
شرف الله - رواية - 2005 عن الورشة  
الطبيعيون - مجموعة قصصية - تحت الطبع

#### دراسات اجتماعية وتاريخية

سهام صيرى زهرة الحركة الطلابية المحرر عن دار ميريت  
الروافد الاجتماعية لجيل السبعينيات عدد من  
المثقفين عن مركز الفسطاط

#### الدراما

طيور الشمس - مسلسل تليفزيونى - قصة سيناريو  
وحوار - قطاع الانتاج 2002  
نهر السماء - مسلسل تليفزيونى - قصة سيناريو  
وحوار - لم ينفذ بعد

# العالم

أنا حميدة أذكر ذلك جيدا.. أذكره وسأظل أذكره..  
ما إن تخلف القبة وراءك، وتيمم جهة الشمال، وتتحرف قليلا  
جهة الغرب، حتى تجد أجمل ربيع في العالم  
حيث تمتد سلسلة هضاب متوالية في غير نسق  
كأن الطبيعة لا تهوى التماثيل.  
لن يكفيك أن تراه بسهولة  
بل عليك أن تبحث في كل مكان وكل قطعة هنا.. يا الله..  
هضاب تتخللها وديان صخرية تبدو كأنها في متناول يدي  
ثم هاهي فجأة تكشف عن هاوية لا قرار لها.  
عندها وعلى سفوحها تختلط الصخور بالتربة الطينية الحمراء  
بالعشب الأخضر بالشجيرات بالأشجار بالأفق..  
من يستطيع أن يرسم هذا؟  
شممت الهواء مغسولا بمطر الشتاء..  
شممت الهواء قادمًا من البحر.  
رأيت الأرض تنحني ببسر مرتين وثلاثًا وعشرين وخمسين  
بلا نهاية..  
فجأة تصعد مدارج العشب سلسلة الجبال العالية والوديان  
السحيقة.  
أضع أصابعي الصغيرة على أديم الجبل  
أشعر به كأنه يتشكل بها  
ينحني لها، يرضخ لرغباتها العابثة  
أركض هنا وهناك وأعود أشم رائحة الأغنام، وعبق روئها الطازج.

## أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن الجنيه
٦٩٩	تبيذ أحمر	أمينة زيدان	مارس ٢٠٠٧	٧,٠٠
٧٠٠	جنة مجنون	أسامة أتور عكاشة	أبريل ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠١	ن	سحر الموجي	مايو ٢٠٠٧	٨,٠٠
٧٠٢	بذور الشيطان	لينا كيلاني	يونيه ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠٣	الفراق	أحمد شرف	يوليو ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٤	ثقب في جدار الزمن	عواطف أحمد البتانوني	أغسطس ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٥	قبل آدم	جاك لندن	سبتمبر ٢٠٠٧	٥,٠٠
٧٠٦	حرمتان ومحرم	صبحى فحماوى	أكتوبر ٢٠٠٧	٦,٠٠
٧٠٧	رجل وأربع نساءج١	إبراهيم يسرى	نوفمبر ٢٠٠٧	٩,٠٠
٧٠٨	رجل وأربع نساءج٢	إبراهيم يسرى	ديسمبر ٢٠٠٧	١٠,٠٠
٧٠٩	مسألة وقت	منتصر القفاش	يناير ٢٠٠٨	٥,٠٠
٧١٠	لعبة الحب	مصطفى بيومى	فبراير ٢٠٠٨	٥,٠٠

بطاقة فهرسة

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إمبایی ، فتحی

العلم ، فتحی إمبایی

ط ۱ - ۳۷۴ صفحة ، ۲۱ سم (روایات الهلال)

تدمك ۷ - ۱۲۹۵ - ۰۷ - ۹۷۷

۱ - القصص العربية

رقم إيداع ۷۱۷۰ - ۲۰۰۸

# المفتون

سيرة روائية



للكاتب والروائي الكبير:  
فؤاد قنديل

تصدر: ١٥ أبريل ٢٠٠٧

رئيس التحرير  
مجدى الدقاق

رئيس مجلس الإدارة  
عبد القادر شبيب

# أشهر الحوادث والقضايا

